الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

رواية



ريب المنون

THE MISFORTUNES OF LIFE

إياد عبدالرحمن

ريــب المنــون

رواية

إياد عبد الرحمن

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2135-2

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

أردتُ أن أهدي هذا الكتاب إلى أحدهم

فامتنع كل أصدقائي

حسناً

لا أحد جدير بالإهداء سوى خيباتي

قبل أن تقرأ!!

بعض القرارات البسيطة يمكنها أن تغيّرنا..

وأن تغيّر مجرى حياتنا أيضاً !!

هنا قصة حياة..

ولكن قبل البداية..

لنفترض جدلًا أن الزمن قد تقدّم بنا إلى الأمام قليلاً !!

الفصل الأول: كل أمل في الحنين حماقة

حملتها الريح وحطت بها في قصر عند خاصرة الطريق. أسواره عالية، شأنه شأن أي منزل سعودي آخر، وبجواره تلٌ تسكنه قصور متراصة بصمت كالمنافقين في جنائز الأثرياء. بتردد، أطلقت سيدة القصر سراح النوافذ، مدت كلتا يديها من الشق، وتحسست المساء بأصابع أدماها النبش، فعادت أصابعها باردة ثكلى. ثمة رائحة زكية تهادت من ثغر العتمة، وظل لاح لها من بين الأشجار، لربما كان خيال غائب يأتي من بعيد. هتفت "نوال" على شوق قديم:

- لعله جاء مع تفتّح الرياحين!

فاء الظل عن تواجده، تبدد سريعاً مثلما أتى، وكأنه كان يريد لها أن لا تشغل بالها، ولكن كيف لامرأة كمثلها أن تهنأ بقطع الليل هذا، وثمة من سرق منها راحتها؟ تذكرت "نوال" جيداً كيف سارت بجوار أحدهم ذات مرة، كيف أغمضت لأجله عين خجلها، وكيف أنها حين استيقظت من الحلم ما وجدته بالجوار، وما عثرت كذلك على قلبها:

- لقد أسرفتُ في الانتظار كثيراً.

همست بها المرأة مخذولة حين كانت تنظر أمامها. من بعيد، بدت لها "الرياض" ناعسة، غرفة معلّقة في فراغ. تغيّرت وتغيّرت كثيراً، حتى صار الجميع فيها غرباء. لا شيء في أحيائها سوى الحياة، والحياة بحد ذاتها أصبحت مهددة بالإعتداء. بالأمس، كهلٌ شنق حياته طوعاً على صنبور ماء. يبدو أنه قد اكتشف متأخراً أن الموت في هذه المدينة صنفٌ من أصناف الرحمة، وأن الوفاة هي أفضل خاتمة لفصول الشقاء. ذكرت صحيفة محلية أنه لم يكن فقيراً فقط، بل كان والده عضواً في حزب اللقطاء. وذكرت صحيفة أخرى أنه كان يسرق الأيام من معارفه؛ لأنه مصاب بمرض العوز العضال. على أية حال، إنه لم يمت بالتخمة مثل سائر أعيان المدينة، بل قد وافته المنية قبل أن يعثر على المفاتيح الخفية للثراء.

حاصرت "نوال" شهقاتها الأخيرة، فأسدلت الستائر المخملية على ثغر شباكها، ثم أدارت ظهرها بهدوء؛ لتسدل الستائر أيضاً على ما تبقّى من ذكرياتها؛ ولأنها لم تشأ أن تدير شريط خيبتها من البداية، أو أن تستمع إلى وقع أقدامها وهي تقع في شراك زوجها النبيل، أخذت هاتفها المحمول، وراحت تفتش فيه عن بقايا نبضها. أنهك البحث أصابعها، فسألت المرأة نفسها بصوت مبحوح:

- وكيف لي أن أستحضر الغائب، أو أن أستدرك اللقاء ذات حين؟

تحجّر بعض الدمع في مقلتيها، وتعلّق البعض الآخر في مشجب سري بين عينيها، فراحت تفترش بعضاً من صور كانت قد خبأتها بعناية في هاتفها، العامل المشترك في جميعها شابٌ في منتصف العشرينيات لا يشبه زوجها. عيناه براقتان، لا بل ماكرتان، وشفتاه تخبئان حديثاً لا يأتي بإشارات الحضور. مرَّرَتْ "نوال" سبابتها على عينيه بهدوء قبل أن تعيد وأد آثامها. ولأنها لم تشأ أن تترك جراحها الإلكترونية مفتوحة على الكثير من الاحتمالات، خبأت ذنوبها بعجالة، وهي مع بقايا دفء تدخل فصل

الشوق الأخير، ترسم خطوط يديها، وتنتظره على يقين:

- بعيداً سيأتي ذات مساء.

أطلقت "نوال" سراح خيالها وبدأت في صنع سماء وغروب، وامرأة تفترش البحر، ورجل يقرأ القصائد بصوت عال، فاستيقظت على قهقهة هازئة:

- وكيف لي أن أخفي آثاره دون أن أجرح مشاعر وحدتي؟

وما أن لدغت العقارب جلد الساعة بلا كلل، حتى أدركت المرأة أن القسط الأخير من الليل قد حان. هطل الوقت عليها ماءاً، فأحكمت إغلاق مخيلتها، لكن جذوتها ما زالت متقدة تأبى الخفوت. رقصت جدائل الأماني بين عينيها وكل قنديل كان يحمل وجه ذلك الشاب:

- لقد تأخّر وتأخّر كثيراً.

أشاحت بنظرها على مضض وتأملت نفسها في مرآتها، سيدة كان الدهر قد غيّرها، حتى أنها لم تعد تشبه والدتها، تلك النائمة بروح قلقة سبعة أقدام تحت الأرض، وتلك الراحلة عنها بلا استئذان. تكاد أن تقسم "نوال" بأن والدتها هي أعظم شهيدة في غزوات الحزن. كيف لا وقد اعتادت أن تسمعها كل يوم وهي تبكي بحرقة، لكن شقيقها "فهد" ما كان ليصدّقها حين اختلط النواح بصوت أذان الفجر.

اعتادت "نوال" حينها أن تنساب كل يوم من خلف الباب، على حين غفلة من حنين؛ كي تسترق الدمع لا السمع، وهي تكاد تشي بذاك البكاء المقدس. ما كان لها أن تعي أسباب حزن والدتها آنذاك، لكنها أرادت فقط أن تشاهد السعادة وهي تُنحر فوق سجادة صلاة!

تلك الأم الناهضة من بعد ركعات الفجر، كانت تصب قهوتها الصباحية المعطّرة بالقرفة من إبريق أنيق، ثم تلامس طراوة الفنجان بشفتيها الناعستين؛ حتى تستفيق على رائحة البن الأليفة. كانت وكما يبدو أنها تكنس كل التراكمات في ذهنها بقطعة سكر وكوب قهوة. تعتصر ما تبقى من لذة النوم، وتقصف بداخلها أكاليل الحزن، رشفة رشفة، حتى يرتعد الكوب الفارغ بين يديها.

وما أن تهم والدتها بالولوج في الفصل الأخير من طقسها الصباحي، حتى تستفيق على صوت ابنتها وهي تذكّرها بموعد الدواء. عيُن على المنبّه، وروحُ على الصباح، تستجمع والدتها ما تبقى من جسد؛ ك تلتقط من أمامها تفاحة الروح. تقضمها بقوة، وهي تستشعر مرّ الحياة بجل حواسها. تبتلع قرصي الدواء على عجل، يغافلها النعاس مجدداً، فتبلّل شفتيها بشفّة كوب قهوة آخر. وما أن يتوغل البن في أوردتها، حتى تستيقظ على ضجيج أبنائها، لتدرك أن الفائدة، كل الفائدة، تكمن في عدم إزعاج اليقظة!

وبغض النظر عن كل تلك التحولات، لم تنل "نوال" من إرث والدتها أي حزن أو رنين. جل إرثها كان خوفاً من أن لا يستقيم حُلمها الأوحد. منذ نعومة أظافرها، اعتادت "نوال" أن تبني كوخاً داخل حجرتها، وأن ترسم دائرة داخل الكوخ؛ كي تحصر فيه أحلامها. كانت تحاول فقط أن تبتكر طريقة للإنعزال روحياً عن المجتمع التقليدي، وعن الشوارع الضيقة، وعن أسقف الأمنيات المنخفضة. إنها وفي حقيقة الأمر كانت تحاول فقط أن تبحث في مخيلتها عن رجلٍ يقوده عماه إليها. كانت تبحث عن رجل يطوي كل الديار لأجلها،

ويختزن كل الأزمنة في قبلة مؤجّلة.

اعتادت "نوال" منذ صغرها أن تسافر بمخيّلتها كثيراً، حتى نبتت لها أجنحة. زارت كل الأمكنة حالمة في الوصول إلى أرض النزوح. رحلت إلى الغمام، استحضرت الغيث، وصعدت إلى الشمس على مهل، لكنها في آخر المطاف استيقظت من تلك الأحلام؛ كي تدرك استحالة التحليق بعيداً عن السرب. كان عليها أن تعلن الهدنة، أن ترفع الراية البيضاء، وأن تستسلم لزواج تقليدي محفوف بالمنحنيات والمنعطفات. كان عليها، ومثل غالبية النسوة في مجتمعها السعودي، أن تسلّم جسدها وما تبقى من أحلامها إلى رجلٍ لا تعرف عنه سوى اسمه الثلاثي.

ربما كانت "نوال" قد شاهدت زوجها ذات مرة على عجل قبل عقد قرانهما بشهرين أو أكثر. رأته لما جاء متقدماً لخطبتها، لكنها تكاد أن تجزم بأنه لم يكن حُلمها الأبيض أو شيئاً يشبهه. لم يكن حينها "سعد" قبيح الخلقة، لكنه بدا بديناً بعض الشيء، وبدت ساعة الـ "بولغاري" في يده آنذاك مجرد إضافة عصرية للغترة الفاخرة والحذاء ذي اللمعة الآخذة.

الزوج الذي جاء محمّلًا بالصمت، لم يكن سادي الأداء بل كان أدبه شديداً وهو ينحني للسلام عليه قبل أن يقرأ عليها مصيرها المحتوم. انتابها الشك حينذاك بأنه كان يخفي أصوله البدوية في محافل الوجهاء، أو أنه كان ينسب لأجداده عبارات الفخر والاعتزاز. لكن مما لا شك فيه هو أنه قد خلب لبـيّ والدها وأخيها، فأصبح رفضه أمراً شبه مستحيل.

ولأنها لم تنشأ أن تتبنى العصيان، رضخت "نوال" لواقعها على مضض، وشرعت بالبحث عن ما تبقى من أمنياتها داخل زوجها البدين، ذي الشارب واللحية. حملت حقيبتها وأحلامها تحت عباءتها السوداء ثم اقتفت بكل الخيبة ظلّ زوجها. كغيمة طرحها الله في ربوع الأرض، سارت محمّلة بمباركة والدها وأخيها إلى مصير لا تنبؤ له.

- أوه، كم أنا مثيرة للشفقة حقاً !

هتفت بها "نوال" وهي تحاول أن تتوقف عن استرجاع ماضيها. أعادت النظر مجدداً إلى عقارب الساعة التي راحت تتراقص على مرأى منها كبهلوان، قبل أن تتعجب من رجل كزوجها، يتركها هكذا وحيدة في قارعة الليل. أين غدت كلمات العشق وقصائد الحنين؟ كيف للحب أن يموت بداخله بعد كل هذه السنين؟ كان حرياً به أن يقدم لها تنويهاً مسبقاً قبل أن يدعها تسير بقدميها إلى هذا الكمين. حتماً، إنه ليس من الإنصاف أن يئد الرجال مشاعرهم هكذا في غمضة عين.

وضعت المرأة كفاً على راحة خدها، ثم راحت تستعيد حادثة انتقالها وزوجها إلى الولايات المتحدة؛ لإتمام دراستهما الجامعية. الزوجان اللذان حملا حقائبهما سريعاً، ما كان لهما أن يتذوقا طعم الغربة مبكراً، فتجربة الاستيطان تلك كانت مليئة بالتصدعات. قبل الهجرة اعتادا أن يلتصق كلاهما بالآخر على الدوام، أن يرددا الأغنية ذاتها، وأن يرقصا على ذات الأنغام. يدلّلها، تدلله، فينسى الاثنان أن بداية تلك الزيجة كانت مخيبة للآمال. ولكن لما جاء مخاض الهجرة شمّرا عن سواعد رغبتهما وحفرا في جبين الأرض

فجوة؛ كي يعبر منها إلى أرض "العم سام". كانت الفجوة ضيقة ولا تتسع إلا لعبارة واحدة وحزينة. قال الزوج "هذا القبر لي" وقالت الزوجة "أريد أن أنام هنا". كلٌ منهما كان يريد أن يفدي الآخر بروحه، إلا أنه لما حانت لحظة الحقيقة دفع الزوج زوجته بحجة المزاح، فماتت في قبر التعاسة وحيدة، وظل هو على قيد الحياة.

تكاثفت السنون حيناً، عَبَرتهما كأحزاب الطير، فحل موسم عودتهما بلا ميعاد. وعلى إثر وصولهما إلى أرض الوطن، تساءلت "نوال" بنهم، لماذا تعود الهاربة إلى مجتمع ذكوري وهي لم تعد تملك منه سوى جواز سفر يتيم؟ من التي سوف تحنّ إلى صراع الطبقات، وقبلية التحزبات، والرجال اللاهثين خلف القُبلات؟

لقد كان عليها أن تعود بعد أن حصلت على التقدير والثناء؛ كي تفي بما تعهدت به من بقاء، وكي تنال نصيبها أيضاً من موجة التغيير ومآل الغسق. كان عليها أن تعود بسعفة في الوراء، وترتيلة في الخفاء؛ كي تفصل النزاعات، وكي تقاضي الناس والحياة على إفكها أيضاً، فهي الآن، سيدة مجتمع مرموقة، وقاضية في المحكمة العامة بمدينة "الرياض".

منذ وقت ليس بالبعيد، لم يكن على النساء السعوديات مثلها أن يحلمن بمنصب رفيع كهذا في وطن يزخر بهن. كان عليهن أن ينصتن فقط إلى صوت الرجال، وأن يضعن أيديهنّ في أيدي أزواجهن لإنجاب الأولاد. في حقيقة الأمر، النساء في المجتمع السعودي، كنّ رموزاً لا تعبّر عنها الأرقام، لسن أعداداً أو حتى أصفاراً، بل علامات لا تصلح للجمع والطرح والحساب.

منذ وقت ليس بالبعيد، ما كان لهنّ أن يحلمن بتخطي حدود يسهل اجتيازها، غير أنهنّ قد تجاوزن الكثير مثلها. لقد استلزمهن الأمر عقوداً مريرة؛ كي يقدّمن أنفسهن كوريثات لمحافل الاستقلال وينلن حقهن في قيادة المركبات على جسور تتنفس فوق المياه. عقودٌ مريرة مضت حتى أصبح بإمكانهن أن يسبحن خارج المياه الراكدة في عمر المنازل؛ وحتى يتحررن من سُلطة الرجال.

تبسمت "نوال" وهي تحاول بائسةً أن تتوقف عن استحضار ما مضى من بؤس، وبداخلها زخم من الأسئلة يتدفق على مهل؛ كي يزيد من تفتّق جراحها:

- من أنا؟ ما الذي مسّني؟ فتاة صغيرة كنت ألهو عند مفترق الريح، وأعدو خلف رفوف الحمام!

أشاحت بوجهها عنوة؛ كي تكبح جماح دمعة أخرى أوشكت أن تغدر بها، ثم ألقت نظرة أخيرة على ساعة الحائط. الثانية ما بعد منتصف الحنين، امرأة أطفأت أضواء حجرتها وانزلقت بهدوء تحت غطاء سريرها المخملي. الثانية ما بعد منتصف الحنين، امرأة أجمرت جسدها وتراً، واستسلمت لشريعة النوم، فلعلّ في الحلم متسعٌ لها.

الفصل الثاني: والقانطون على الدرب استقاموا

- كل شيء سيكون على ما يرام!

همست بها "نوال" وهي تستجمع المتناثر من جسدها على السرير؛ كي تخوض معركة الاستيقاظ مجدداً. إنها ليست بحاجة إلى المنبه لتنهض، والقلق بداخلها مثل الفضة يلمع. جل ما عليها فعله كل صباح هو أن تهز قلبها عنوةً، وأن تستعيد الذكريات المشوّهة بداخلها؛ كي يستفيق بها الوجع، وتستفيق هي أيضاً.

أخفت "نوال" امتعاضها على عجل، نهضت بتثاقل، ثم سارت نحو حوض استحمام باذخ؛ كي تغتسل فيه من أعبائها. ملأت الحوض بماء الطُهر الدافئ، قبل أن تنغمس فيه كقطعة سكر، وتغمس فيه الوهن المتراكم على روحها المُسمرّة. ترسّب جسدها السريع الذوبان في القاع بعيداً، وسقط منها حزن المساء كجنود غادروا الثكنات للتو، فأصبحت ثقوب قلبها خالية. خيّل لها حينها وكأي صباح آخر، أنها ستخوض غزوة كبرى. لذا، شرعت في الاستعداد للموت.

وما أن أتمت المرأة انغماسها، حتى تخلت عن حوض الماء، وعبأت ثقوب قلبها بصدى الحَزم مجدداً. جفّفت جسدها ورفات أحزانها ثم سارت بحزم نحو خزانة ملابسها؛ لتنتقي رداءاً أبيض تحنّط به ما لم يتخثر من جراحها.

أدركت "نوال" وهي تضع اللمسات الأخيرة من أحمر الشفاه، أنه يلزمها الكثير من الوقت كل صباح؛ كي تكون "نوال"، وكي تتصرف كما هو متوقع من "نوال". كم هو شاق أن نرتدي الملامح ذاتها كل يوم كي لا تنكسر الأرواح في دواخلنا، وكأننا معصومون عن التغيير!

استجمعت جل طاقتها، ارتدت غرورها، ثم استقبلت الصباح بامتعاض، وهي التي كانت على يقين تام بأن التبسّم للصباح هو تملصٌ من الواقع، فالجهلاء وحدهم هم الذين يستقبلون الصباح بابتسامة. إنه لـ الصعب جداً أن نحتفي باليوم الجديد، ونحن مدركون بأن اليوم لا يمكن أن نصفه بالآن. بل إنما هو غد الأمس الذي تحقق!

بذات الحزم خطت "نوال" خارج فوهة حجرتها سالكة الطريق المؤدية إلى حجرة الطعام. مزدانة بخشب الماهوغني الفاخر، استقبلتها المائدة بأطباق إفطار متعددة، كانت قد أعدتها الخادمة المنزلية المنتصبة بالجوار. فتاة في مطلع عقدها الثاني، كانت الخادمة ذات شعر داكن وعينين واسعتين. "فرح"، ابنة فقيرة لا انتماءات لها، فقدت والديها في مقتبل العمر، فما كان لها إلا أن تتجه للعمل كمدبرة منزلية في منازل الأثرياء. وبالرغم من تناغم البهاء في ملامحها، إلا أنها كانت باعثة على التعجب بطريقة مربكة، فكل شيء بها كان مدعاة للسؤال، اسمها الذي لا يعبّر عن أي فصل من فصول شقائها، جملة القرارات التي اتخذتها طيلة حياتها، وتفاصيل البؤس المنحوتة على جبينها. كل ما بها كان علامة جلية تستدعي الاستغراب. كيف لا، وهي التي تخلت عن كبريائها وامتهنت وظيفة تستنكرها غالبية النساء السعوديات.

سارت "نوال" بهدوء صوب الطاولة. ولأنها لم تشأ أن تحرّض صحوتها على الانهيار فوق الخشب، التقطت كوب قهوتها الصباحي عن الطاولة، ارتشفت منه بعضاً من الكافيين، ثم سارت به بعيداً، وكأنها أرادت أن تختلي به على مهل.

اقتربت المرأة من النافذة قليلًا حتى تشاهد الشمس الكسولة وهي تتسلل بخبث من خلف بضع سحابات؛ فبدت لها حديقة القصر بارعة كقطعة من الفردوس، وفي منتصفها بركة ماء مزدانة بالأضواء الخافتة، كانت البركة ساكنة وحزينة، مثل أمسية يغشاها ضوء الصباح. أما ما تيسّر من الإتساع، فقد كان متناسقاً ومكسواً بالكثير من الاخضرار.

هي الأرض، لقد حكت لها أشجار الياسمين حكاية قديمة قبل أن تكبر الحديقة، وقبل أن تتطاول الأحزان وحدها على بهاء المكان. تداعب "نوال" دفء كوبها؛ لتتذكر أن في كل زاوية من زوايا هذه الحديقة مخبأ للحزن أو مصيدة للأفراح. في كل زاوية انكسار، أو هزيمة، أو كومة من الجراح. نعم، في كل زاوية من هذه الحديقة قبرٌ، لا بل لحدٌ باذخ جداً للأرواح!

أدارت "نوال" ظهرها عنوة ثم توجهت نحو طاولة الطعام. رشفة أخيرة سرقتها من كوبها قبل أن تضعه بهدوء، وقبل أن تغادر الحجرة بكل استعجال. وما أن أصبحت المرأة خارج نطاق تأملاتها حتى تذكرت بأنها قد تركت على الطاولة بعضاً من صدى حزنها، وتركت كذلك كوباً مليئاً بالفراغ، فلعل بمقدور الخادمة المنزلية أن تكنسهما جميعاً.

ربما كانت "نوال" قد غادرت منزلها، وربما كانت قد التقطت حقيبة يدها، وربما كانت قد أطفأت كذلك مصابيح حجرتها، لكن وقع أقدامها كان متردداً في أنحاء المنزل، كما لو أنها ما زالت تتدافع على الدرج.

في ساحة المنزل الخارجية، كانت بانتظار "نوال" سيارة الـ "رولز رويس" السوداء. بصبغة إنجليزية متميزة، تجلّت أمامها المركبة وعلى ناصيتها "روح النشوة"، وهو تمثال مصغّر لامرأة تميل إلى الأمام وقطعة قماش تُغطي ذراعيها الممدودتين للخلف. "إيميلي"، وكما تُسمى في كثير من الأحيان، كانت تقف في مقدمة المركبة بأجنحة ممشوقة وبأربعة وعشرين قيراطاً من الذهب الأبيض لتذكّر الناظرين بحقيقة انتماء "نوال" للطبقة الأرستقراطية، ولتذكرهم أيضاً بالمعنى الحقيقي للبهاء.

هناك حيث اتجهت "نوال"، كانت السيارة رابضة بلمعة آخذة فوق العشب الأخضر وهي تزأر بصوت خفيف، وإلى جانبها حارس القصر "عُمران" الذي بدا متأهباً كفارس روّض مُهرته الثائرة للتو. ما كان للرجل أن ينظر نحو سيدة القصر وهي تقطع الطريق صوبه، فأحنى رأسه بخجل ممزوج بالرهبة، ولكنها حين اقتربت منه وثب بمرونة عالية؛ كي يفتح لها الباب على عجل.

جلست "نوال" خلف المقود، فاستقبلها ذاك الكرسي الوثير. احتضنها بدفء قبل أن يسمح لجسدها أن ينغمس فيه أكثر فأكثر. أغلق "عُمران" باب المركبة بهدوء من خلفها، فَعَلا صوت الموسيقى تلقائياً، وكأنه أراد أن يهنئها بقدوم الصباح. فيروزية تلك الأغنية التي استقبلتها للتو، فيروزية حين جرحت ذاكرتها، وهي المرأة التي بلا ذاكرة تقريباً:

- تزكر شو كنت تئلي.. مهما يصير.. انتظريني وضلّك صلّي.. الله كبير!

مياه قديمة هادئة تحركها الآن قدمان حافيتان على خشبة. كل قوس يمر يهز وتراً مشدوداً داخل "نوال"، وكل نفخ يهب في مزمار يبعث بداخلها سيلًا من الذكريات. وحين يعلو صوت المغنية يعلو معه الألم شدو "فيروز" الذي انبعث هو ما أذكى اللهب في الكلمات وزاد من حدة الموسيقى بداخلها. وعلى الرغم من الحزن الوليد منه، هذا الصوت هو وحده ما جعل زهرة تنمو على دفة قلبها، وهو وحده ما بعث بداخلها نفحات الحياة:

- فيه أمل.. إيه في أمل!

هتفت بها المغنية حتى تدفع "نوال" لتتساءل: "يا ترى كيف كانت ستكون صباحاتنا لو لم تكن فيروز؟". انسابت الموسيقى بكل دفء وهي تعين المركبة على اختراق طرقات الحي الفاخر، وعلى اتخاذ الدرب نحو المدينة التي تضخمت. "نوال"، وهي بهذه المركبة العزلاء والأكثر سلمية ووداعة، تواجه ضالتها داخل المدينة. تستطيع أن تقهر غول المسافات، وأن تمدد كيانها بداخل المدينة إلى أوسع مدى.

"الرياض"، كأنها هي، ولكنها تبدو اليوم مشيّدة بأنامل من صُلب، ومكسوة بالزجاج. ها هنا ناطحات سحاب، ومبان تقتل مبان أخرى من غير ندم أو عتاب. سرداب وراء سرداب، لا نافذة ولا باب. يا ترى، ماذا يفعل البناؤون في هذه البلاد؟

توقفت "نوال" بسيارتها عند إشارة ضوئية، واستوقفها منظر الشاب الذي يقود سيارة الأجرة بجوارها. فيما مضى، كان سائقو الأجرة السعوديون من ذوي الأعمار المتقدمة. رجالٌ كانوا قد سلّموا أجسادهم وما تبقى في دواخلها من أرواح بعد أن تخلوا عن حياتهم المضطربة، والزيجات، والعلاقات الملتبسة بالنساء؛ كي يخلدوا إلى حياة شبه مستقرة. أما اليوم، فهاهم الفتية من شتى الأعمار، يكافحون من خلف المقود بلا استحياء. ربما قد وجد هؤلاء الفتية أنفسهم في هذه المهنة بالصدفة، ولكن تكاد أن تجزم "نوال" بأن جميعهم يريدون الخروج منها فوراً إن أمكنهم الفرار.

بهدوء متقنٍ اختلست المرأة النظر إلى الشاب، فكان بريق الحسن في ملامحه جلياً، وهو الذي راح يداعب شفته السفلية بسبابة يده اليمنى. تلك العفوية في ملامسة الثغر كانت كفيلة بأن تثير انتباه "نوال"، بأن تُذكي لهيب الإغواء بها، وبأن تجعلها تستدير صوبه بكامل طوعها.

التفتت "نوال" قليلًا؛ كي تتذوق من كافيين إغوائه، وكأن كوب قهوتها الصباحي لم يكن كفيلًا بإيقاظها فجاءها بهاؤه كامل الدسم حينها. لربما كانت قد أرادت أن تشيح بنظرها عنه، ولكنها فضلت أن تتركه يداعب أيضاً بتلك السبابة شفتيّ صباحها. أرادت له أن يزور بأصابعه النحيلة الكثير من الأمنيات وأن يطلق كذلك سراح التنهيدة الضائعة بها.

ولما أن أطالت "نوال" النظر إليه، استدار بدوره صوبها، فكان في بداية عقده الثاني، ذا بشرة قمحية لا تشوبها أي شائبة، نقية للحد الذي جعلها غير مناسبة لشابٍ يُمضي غالبية نهاره تحت الشمس الحارقة. ربما كان هندامه مرتبكاً بعض الشيء، ولكن من التي ستكترث للرداء في حضرة تلك العينين الواسعتين،

وفي حضرة خصلات الشعر المتناسقة.

انقضت الثواني سريعاً قبل أن ينطفئ ضوء الإشارة الأحمر معلناً نهاية ذاك الفصل من مسرحية الإغواء، فانسحب الفتى بكل رفاهية من أمامها. مضى قُدماً بعربته وهو الذي قد خَلَّف من بعده امرأة شبه منبهرة!

عاودت "نوال" السير ثلاثين دقيقة أو أكثر، حتى اقتربت من مقر عملها في منطقة قصر الحكم في قلب مدينة "الرياض". كقلادة الصخر التائهة في صحراء، برز لها مبنى المحكمة العامة بأربعة عشر طابقاً، وكأنه كان يتباهى بكتلته الرأسية الضخمة وكسوته المصممة من الحجر الطبيعي.

هاهنا، حيث لا يحصى من المرافعات والنزاعات، ساحة كبيرة قطعتها المركبة قبل أن تبادر بالتوقف في موقف مجاور. وما أن شرعت "نوال" بالنزول، حتى تقدم نحوها رجل كان يقطع المسافات بعجل. امتدت يده لفتح الباب، وغترته التي ترفرف كانت قد أخفت معظم وجهه، وأخفت لحية شرسة توحي تماماً بما يفكر به شخص مثله.

ابتسمت "نوال" للعم "إبراهيم" وهي تتعجب من دعواته الهزيلة التي باطنها سخط وازدراء. في حقيقة الأمر، لقد اعتادت القادمة على هذا التلوّن، فكسائر الرجال من حولها، إن موجة التغيير التي دفعت بالمرأة عنوة في قلب المجتمع السعودي لم ترق له مطلقاً، فهو رجلٌ شرقيٌ قد نشأ في مجتمع ذكوري لا يؤمن بالمساواة بين الجنسين. العم "إبراهيم"، ومثل سائر رجال المدينة، كان فقط تحت تأثير الأعراف والتقاليد المحلية التي تفتقر إلى المساواة بين الجنسين بناءاً على الجدارة والكفاءة. هي الأعراف ذاتها التي تُقيّد المرأة السعودية بل وتصنّف أي مطالبة بالمساواة انتقاصاً لحقوق الرجال وانحيازاً صريحاً لجنس النساء.

سبقت ضجة كعب "نوال" الذي يضرب الأرض خطواتها الواسعة وهي تهرول صوب باب جانبي، مرتدية عباءة سوداء ووشاحاً رمادياً يحجب بعضاً من شعرها. مصعد حملها للأعلى ثم منعطفات بعضها لليمين وأخرى لليسار سلكتها قبل أن تصل إلى بهو كبير.

وحيث ممرات الرخام، تابعت "نوال" السير في بهو طويل، حتى وصلت إلى مكتبها. بهدوء شبه معتاد استقبلتها "مها"، فتاة عشرينية ذات ملامح باردة. بدا من ذلك الانكسار على وجهها أنها قد ذاقت من وعثاء الهزيمة ما يكفي لاغتيال الأنثى بها. هُنا حزنٌ عميق تحت عينيها! وذاك أثر جرح قديم على وجنتيها، يا ترى، من ذا الذي سرق التوت من شفتيها؟

هبّت الفتاة كي تعين "نوال" على إزالة عباءتها، فلامست بيدها اليمنى قطعة الحرير السوداء المشبعة بالعطر، وتحسست بالشمال جسدها الملتف بلحاء من قيء حداد السنين، فما كان لها إلا أن ترتعد من شدة الإجحاف في مقارنتها. وحتى لا تكون انتفاضتها جلية، سارعت "مها" بالسير بالعباءة نحو حجرة جانبية، وأبدلتها بمعطف أسود معلّق، ثم خطت مسرعة خارج الحجرة لتلفه برفق حول "نوال" التي شرعت في إزاحة وشاح رأسها. راقبتها "مها" وهي تسير بقامتها المشوقة صوب مكتبها، فهرعت من خلفها وهي

تلتقط بضعة أوراق مرتصة بإهمالٍ عالِ الأناقة:

- هنا قائمة الدعاوى لهذا اليوم.

قالتها "مها" بصوت مرتبك وهي تمرر لائحة غير مكتظة أمام "نوال"، فالتقطتها الأخيرة على عجل. كانت القائمة التي أعدها كاتب الضبط مرصّعة بحفنة من الدعاوى المختصة بالعقار. ما من جديد على صدر هذه الورقة سوى تذكير بالنـزاعات التي تشهدها "نوال" كل يوم. داعبت القاضية طرف الورقة بسبابتها، قبل أن تلتفت للفتاة المتسمرة أماها وتسألها:

- هل فُرزت جميع هذه القضايا حسب الوقت المعيّن لنظرها؟

- نعم!

أجابتها "مها" بصوت شبه مبحوح وهي تحاول بتلك الإجابة المنزُوعة أن تغضّ النظر عن شفت "نوال" المتقلّبتين:

- يا ترى ماذا يدور بخلدها؟

تساءلت "مها" في داخلها وهي التي لم تكن ذات يوم جيدة في قراءة الآخرين. إنها، ويا للحسرة، لم تكن جيدة في القراءة عموماً. لقد كان عليها أن تلتحق بإحدى الكليات الإدارية على غرار إتمامها للتعليم الثانوي؛ كي تدرك أنها ما خُلقت كي َتقرأ الآخرين وإنما خُلقت لتُقرأ.

تلك القاضية الجالسة أمامها على كرسي وثير، إنها ليست تهديداً صريحاً للرجال فقط بل للنساء أيضاً. إنها ندبة على جبين كل الفتيات اللواتي لم يحالفهن الحظ، لا بل جرح غائر في أحلامهن، ونصل سكين يغوص في أمنياتهن. "نوال"، تجلس أمامها على مسافة بضعة أمتار؛ كي تعيد تحريك أجراس الحسرة في رأسها كل صباح، وكي تذكّرها بأبعاد دائرة الخيبة التي لن تستطيع الفرار منها.

يعود صوت "نوال" الهادئ ليوقظها من غفوة الحسرة:

- بإمكانكِ تعليقها على باب القاعة.

ناولتها "نوال" القائمة ذاتها وهي ترقب انكسارها الشديد:

- تباً للنساء الضعيفات جميعاً!

تمتمت بها "نوال" وهي ترقب "مها" التي شرعت في مغادرة الحجرة، حاملة معها من الخضوع ما يكفي لإثقال كاهل النساء جميعاً. لم تكن "نوال" ذات مرة متحاملة ضد النسوة اللواتي لا يتمتعن بمكانة اجتماعية مرموقة، ولكنها كانت متحاملة تماماً ضد كل امرأة تتبنى شريعة الانكسار. بلا مبررات، إنها تمقتهن جميعاً. ربما لأن في كل انكسار تذكير بلحظات الخضوع التي مرت بها.

وما أن يختفي آخر امتداد لظل معاونتها، حتى تمعن "نوال" النظر فيما كان أمامها، تلٌ من حججِ الاستحكام مسبقة الفرز، إنه يتباهى بارتفاعه على شفا لحظة من نهارها. وبصفتها رئيساً للجنة المختصة بالنظر في الحجج التي يتقدم بها بعض من سكان المدينة بغرض رغبتهم في تملّك أراضٍ مجهولة الهوية تقوم "نوال" في مطلع كل أسبوع بالإطلاع على جملة من تلك الحجج، ثم تدوّن توصيتها بالمنح أو الرفض

بعد معاينة الإثباتات المرفقة.

امتدت يد "نوال" لتتناول مجلداً، ولكن قبل أن تبادر في تصفحه، فاجئها أزيز هاتفها المتقطع. مررت "نوال" سبابتها على شاشته الملساء، فانسدلت بنهم رسالة قصيرة كان محتواها:

"سيبدأ المعرض التشكيلي في تمام الساعة الثامنة.. أراكِ الليلة"

تذكرت "نوال" حينها أن عليها الذهاب إلى المعرض التشكيلي الذي ستقيمه "عبير"، صديقة طفولتها، والأثر الوحيد الغير مشوّه من ماضيها. وبرغم انهماك "عبير" في الفنون التشكيلية، إلا أنها كانت تخصص الكثير من وقتها كي تحافظ على عهد الصداقة بينهما. بمرح الطفولة ذاته، تجمع لها على الدوام باقات السعادة كلها، وتعيد ترتيب الحياة والألوان لأجلها؛ كي تُبقيها في وجه الحياة صامدة، لا تتغيّر.

امرأة في الثامنة والثلاثين، "عبير" هي سيدة الحرية. إنها، وبكل بساطة، امرأة تسير على الدروب بدلال، وتجوب الطرقات بذوق عال، وتهدي قبلتها لمن يشتهيها. "عبير"، ما من قيد يكبّل معصميها، ما من أقدام على الأرض تبقيها، ولو أن "فريديريك بارتولدي" عاصرها، لكانت تمثالًا آخر للحرية. تلك السيدة لا يليق بها سوى التحليق بكبرياء لا حدود له، فهي تأبى إلا أن تحوم عالياً في السماء. في عنقها بياض كالطوق، وبين يديها فيض من البلور، إنها امرأة ذات جمال يجعل قلوب الرجال شغوفة بها. وبالرغم من حسنها المتقن، إلا أن "عبير" قد اختارت أن لا تطأ شِرك الحياة الزوجية بقدميها. فما من رجل برأيها جدير بأن تَنحر لأجله هذه الحرية!

- ليتني حذوت حذوها!

بندم لا ثمن له، قالتها "نوال" وهي تعيد وضع هاتفها المحمول في حقيبة يدها. أعادت لمّ شمل حزمها المعتاد، التقطت مجلداً داكن اللون من أمامها، ثم سارعت بمغادرة مكتبها.

الفصل الثالث: ثمة من دخلوا الحياة بأقدامهم اليسرى

في قاعة لا تتسع إلا للهيبة، تجمّع حشد يليق بخصوم في محكمة من الدرجة الأولى. رهط من المتنازعين، نساء ورجال، جلسوا بصمت في الصفوف المتعددة يرافقهم محاموهم. هنا حيث الجدران المكسوة بحجر الرخام، والمقاعد ذات الظهور المرتفعة، والمر الذي يقسم الحشد نصفين، كان السكون أكثر الحضور تميّزاً، وأكثرهم قدرة على الإنتشار في أرجاء المكان. أما اللتان تدثرتا بالأسود، فكانتا امرأتين، إحداهن متشبثّة بمعصم زوجها، والأخرى بانتظار أن يحين الأوان.

مضت دقيقة واحدة أو ربما دقيقتان، فدلفت "نوال" بمعطفها الأسود يتبعها كاتب الضبط، شابٌ في عقده الثاني يحمل إلى صدره حاسباً لوحياً وبضعة مجلدات. بقليل من الخطوات اعتلت القاضية المنصة، أزاحت كرسياً وثيراً، ثم انهمرت عليه جالسةً؛ فكانت كل الأنظار باتجاهها. أما أنظارها فكانت باتجاه الكاتب الذي توزعت يداه على لوحة المفاتيح. رائحة هاجس انهمرت على "نوال" لوهلة حين أعادتها أنامل الشاب الذي بجوارها إلى مشهد الإشارة الضوئية، والسبابة التي تداعب الشفاه، وصوت فيروز الذي أفاق بعمقه غفوة الصباح.

كل الأنظار عليها، أما أنظارها فكانت على ذاك الذي بجوارها. تأملته بدقة، قرأته بوضوح، فتجلت لها جاذبية اتساع عينيه. ولكن ثمة شيء آخر كان أكثر فتنة به، لعلها رقة انحناء حاجبيه، أو الانعقاد المباغت لشفتيه. وحتى تقطع القاضية الشك باليقين، أشعلت مصباح حيرتها اليدوي في وجهه، فوجدته يانعاً على شجرة الحياة مثل فاكهة محرّمة. هتفت في داخلها بسخط:

- ليتني أستطيع قضمه!

التقط الشاب كوب ماء مجاور، استقطب الشفافية من قلبه، فاستشعرت "نوال" صلة القرب تلك، واستشعرت الحميمية أثناء معانقته للزجاج. ثمة ماء اندفع بانسيابية مفرطة، وثمة برودة سرت في الأطراف، حتماً، ما أجمل الشفاه عندما تُقبّل ما وراء الارتواء. وما أن اندلق البلل في امتداد حلقه، حتى أصبح الجفاف أمراً منسياً، واستنكرت المرأة بسخط تلك النهاية السريعة للحمة الاستسقاء.

كل الأنظار عليها، وأنظارها مازالت في نفس الاتجاه. هزلي أم جديّ، ذاك الافتتان بالشاب الذي ورد ذكره مراراً في معجم صباحها؟ واقعيٌ أم خيالي، أن تتخلى المرأة عن كل مهامها حتى تمعن النظر في معاونها؟ حيث المعاني المتشابهة، بحثت "نوال" عن المرادف الحقيقي لذاك الإغواء، فعادت محاولات بحثها خائبة، فما من كلمة تصف امرأةً مقيّدةً بأخطاء الحواس!

نظرتين أخيرتين خطفتهما "نوال" على عجل قبل أن ينهرها كبرياؤها، وقبل أن يهبّ الشاب لمناداة أول الخصوم. وبمجرد أن انقضت طقوس النداء، تهادت من الضفة اليسرى تلك المرأة الوحيدة حاملةً معها ما تيسّر من أطراف عباءتها. سارت بميل ينم عن انكسار، وهي التي مع السير كانت تحتمي بدعوات تُعينها على المُضي نحو مآلها. تخبطّت كثيراً، تاهت حيناً، ثم اهتدت أخيراً إلى المقعد المخصص لها، فتبوأته

بتثاقل يليق بسيدة قد تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر.

أما من الضفة اليمنى، فتقدم محامي الإدعاء بثقة لا متناهية، حاملًا معه يقيناً، وحاسباً لوحياً، ومجلدا يعلوه شعار "رابطة اللبلاب". وبالرغم من أن عينيه كانتا تنمان عن المكر والخديعة، وبالرغم من أن حاجبيه كانا مقترنين بطريقة مريبة، إلا أنه ما من شيء بدا أشد استفزازاً من ثوبه الذي بدا فضفاضاً جداً للحد الذي جعله غير متناسق مع الغترة البيضاء. سار المحامي نحو القاضية مُرحّباً بعبارات لا تقل اصطناعاً عن ابتسامته العريضة، فامتعضت الروح بداخلها، وأمرته أن يجلس في المكان المخصص للإدعاء.

- شتان ما بين هذا وذاك!

همست بها "نوال" قبل أن تستعيد تركيزها، وقبل أن تصب كامل انتباهها على شاشة الحاسوب التي أمامها. شرعت في القراءة بعناية، مضى الوقت بجوارها بلا هرولة، فوجدت نفسها قد أتمت تصفح صحيفة الدعوى في أقصر فترة ممكنة:

- هنا دعوى لإقصائك من منـزلك المستأجر. يبدو أنكِ قد تخاذلتِ مؤخراً في دفع مستحقات الإيجار.

قالتها "نوال" بلغة شديدة اللهجة حين التفت نحو العجوز التي كانت تتحسس خطوط كفها، فأجابتها الأخيرة دون أن تتخلى عن قراءة التعرجات:

- إنني بحاجة إلى بعض الوقت كي أفي بالنصاب!

- ولكن صيغة العقد لا تحتمل أي مهلة إضافية. يتوجب عليكِ الآن إخلاء مسكنك والانتقال للعيش في مكان آخر بمدينة "الرياض".

رفعت المرأة رأسها أخيراً، ودمع منحسر سقط من عينيها. لاذت بالصمت قليلًا، تأنت في انتقاء العبارات، ثم أطلقت سراح كلماتها:

- العيش في "الرياض"؟ نحن يا سيدتي لا نعيش في هذه المدينة بل نختبئ فقط بها. المباني الشاهقة تغمرنا برهبتها، قصور الأثرياء تحجب رؤيتنا، والمنشآت العامة تعزلنا عن كل ما هو حولنا.

اعتدلت العجوز في جلستها ثم أكملت حديثها:

- نحن يا سيدتي نعيش في منازل مشيدة للأقزام، جحور في الصخر، لا بل معاقل أشبه ببيوت الفئران. ولأننا ألفنا الحياة في هذه المغارات الضيقة، ما عادت أجسامنا الضئيلة تنمو، وما عادت أحلامنا تزداد حجماً عمّا كان. إن أطلنا التأمل في الأمنيات، أجبرتنا الأسقف المنخفضة على أن نقلّص ارتفاعها، وإن أردنا أن ندّعي سعادتنا، عادت الحياة لتذكّرنا بأننا نتقاسم قوت بؤسنا مع سائر الجيران. نحن يا سيدتي لا نعيش في هذه المدينة ولا ننتمي لها، كل ما في الأمر هو أننا نعبر فقط شوارعها!

بطرف عباءتها القصير، جففت المرأة ماء عينيها ثم تساءلت:

- إن أخليت منـزلي، فإلى أي الاتجاهات سأمضي؟ توفي زوجي مؤخراً وتركني وأطفالي على قارعة الحياة. هنا أو هناك شيء أقرب من الانتظار، شيء أقرب من الموت، إننا وبلا ريب لم يعد بيدنا سوى الانتحار.

عادت المتحدثة لقراءة خطوط كفها، أما "نوال"، فقد استدارت صوب محامي الإدعاء لتسأله باهتمام:

- ما المانع في منحها بعضاً من الوقت؟

- لقد منحناها شهرين وعشرة أيام للسداد، وحسب اتفاقية العقد، يتوجب على المستأجر دفع قيمة الإيجار السنوي كاملًا في مدة أقصاها ثلاثين يوماً من بداية العام.
- حتى وإن أخلت منـزلها المستأجر، فإنه سوف لن يكون بمقدورها أن تتكفل بتكلفة إقامتها لمدة شهرين وعشرة أيام. إنها سوف تُنفق جل مدخراتها في سبيل تأمين مسكن آخر.
- السجن هو الخيار الوحيد لمن ثبت إعسارهم!

وعزته "نوال" في الخطاب قائلة:

- السجن سوف لن يعيد المال لموكلك، فما الذي سيستفيده من وجودها خلف القضبان؟

ساد القاعة صمت مريب بينما شرعت "نوال" في تصفّح المستندات المرفقة مع صحيفة الدعوى. حلّقت بأنظارها بعيداً عن الشاشة التي أمامها قبل أن يسترعي انتباهها شعار "رابطة اللبلاب"، نبتة متسلقة بثماني ورقات تمثل ثماني من أعرق الجامعات الأمريكية. ثوان معدودات انصرمت سريعاً، فأتبعتها "نوال" بسؤال موجّه للرجل:

- "هارفارد"؟
- "ييل"!

ابتسمت "نوال" وهي التي أدركت مسبقاً أن هذه الضراوة تليق جيداً بمحامٍ أتم تعليمته في أحد الجامعات الواقعة في الجزء الشمال الشرقي من تلك البلاد. هذه الثقة المفرطة، وهذا الإحساس المخادع بالفخر كانا كافيين لجعلها ناقمة على المساحة المنحسرة بين ولايتيّ "ميين" و"كونيتيكت"، وعلى كل ما هو واقعٌ فيما في المنطقة المسمى بـ "إنجلترا الجديدة". عادت إليه "نوال" لتطرح عليه سؤالًا آخر:

- ما هي قيمة الإيجار السنوي؟

فأجابها سريعاً بعد أن نظر إلى حاسوبه:

- أربعة وعشرون ألفاً وتسع مئة وخمسة وأربعون ريالًا، أي بمعدل ألفان وثمانية وسبعون ريالًا شهرياً.
- ولكنني لا أجد بين هذه المستندات صورة لأمر الإخلاء. هل قام موكلك بتبليغ المدعى عليها بطلب الإخلاء؟
- نعم، لقد تم الإبلاغ شفهياً.
- وفقاً للأنظمة المتبعة، ينبغي على المالك أن يقدم خطاباً تحذيرياً للمستأجر قبل خمسة أيام على الأقل من مطالبته بالإخلاء. كما يجب على المالك أن يحصل على توقيع المستأجر كدليل على تلقي البلاغ.

صمتٌ مقتضب أتبعته "نوال" بقولها:

حتى وإن قام المالك بالتبليغ، فهو لم يلجأ للقضاء إلا بعد أن منح المستأجرة شهراً وعشرة أيام إضافية، مما يعني أنه كان راغباً في إعطائها المزيد من الوقت للسداد. هذه المهلة بمثابة تعديل على العقد الأساسي المبرم بين الطرفين، ولا أجد بين المستندات ما يناقش هذا التغيير.

وقبل أن يوافيها الرجل بالرد، ارتفعت يدها اليمنى بوقار؛ كي تنهره عن الحديث. أعادت النظر في حفنة الورق مجدداً، ثم استدارت صوب المرأة لتسألها:

- ما هو مقدار دخلك الشهري؟

- أحصل على معونة شهرية تقدر بثلاثة آلاف ريال من الضمان الاجتماعي.
- ثلاثة آلاف ريال للفرد الواحد؟
- لا بل لنا جميعنا.
- وما هي مصادر دخلك الأخرى؟
- هذا هو مصدر دخلي الوحيد.

مبلّلة بالدهشة، هزت "نوال" رأسها وهي تتمعن في الأرقام جيداً. استدعت كل الخيارات والحلول الممكنة قبل أن توجّه إليها سيلًا آخر من الأسئلة:

- كم من الوقت يلزمكِ لسداد المبلغ؟
- في الحقيقة لا أعلم.
- هل حصلتِ على استشارة قانونية قبل مجيئك إلى هنا؟
- لا!
- يبدو أنكِ غير ملمة بالخيارات المتاحة لديكِ ولستِ على إطلاع كاف بما يدور الآن. باستطاعة المحكمة أن توفر لكِ مستشاراً قانونياً على نفقتها الخاصة؛ حتى تتمكني من اتخاذ القرار السليم، فالقانون يكفل لكِ حق الحصول على محاكمة عادلة حتى لو لم تتمكني من التكفّل بنفقات المرافعة.

التفتت "نوال" صوب كاتب الضبط وكأنها لم تمنح المرأة خياراً، ثم قالت له:

- سيتم تأجيل النظر في القضية حتى شهر من الآن. وستكون هذه الفترة بمثابة مهلة كافية للمدعى عليها حتى تحصل على الاستشارة القانونية اللازمة.

تخلت المرأة المسنة عن قراءة كفها أخيراً، رفعت رأسها للأعلى، ثم تنهدت بحرارة، وهي التي لم تتوقع أن ينتهي يومها على هذا الحال. حامت ببصرها كثيراً في سقف القاعة وكأنها كانت تستدعي جُل ما تعرفه من أدعية الشكر، ثم تركت على محضر القضية توقيعاً، وسارعت بالمغادرة حاملةً معها عباءتها المطرزة بالدمع.

أما على الضفة الأخرى، فقد انتصب محامي الإدعاء بكثير من الخذلان. وبالرغم من أن ملامح وجهه القاسية كانت صعبة القراءة، إلا أنه قد بدا مستاءً، لا بل حانقاً وعلى شفا حفرة من انفجار. لقد كان بإمكان "نوال" أن تلحظ فعلًا ذاك السقم الوليد به، فالخربشة التي راح يرسمها على حاسبه اللوحي لم تكن سوى غيظ مكبوت في هيئة كتابات.

- "بيل"!

همست بها "نوال" هازئة وهي ترقب انسحاب الرجل المباغت وتجرّعه لرماد الثورة على مضض. كان، وبعد أن ترك من بعده توقيعاً، قد سارع بقطع المسافة المؤدية إلى البوابة الرئيسية، فإنه لو تأخر في السير دقيقة واحدة، لأفلتت منه صرخة يسمعها القاصي والدان!

الفصل الرابع: والذوات في دواخلنا أيضاً ملونة

على أعتاب إضاءة خافتة، وقفت "نوال" بجسد ممشوق لتعقد صلحاً مع مجموعة الألوان المتشابكة في لوحة. لوهلة بدت لها كل الأطياف متشابهة وهي تنظر إلى فتاة كانت تَعقُد شعرها بالندم. أنيقة المظهر، مترفة الحزن ربما، كانت الفتاة تسير بقدمين ضاحكتين على حبل الوفاة، وهي ببعض الاتزان تملأ فراغ المساحة.

تلك اللوحة التي رسمتها "عبير" كانت فخاً متوقعاً جداً، فالتضاد بها قد جعل "نوال" تنجح في الصمت مثل الآخرين تماماً. لم تعلم الأخيرة حينها إن كان عليها أن تستنتج البهجة من ابتسامة الفتاة، أم أن تُدرك الحزن! ولكن جلّ ما وعته آنذاك هو تذكير بالرجل الذي وضعها في مأزق، وجعلها في الحير خرساء. كيف لا، وكل طريق يؤدي إلى رجل هو بحد ذاته مأزق!

في حقيقة الأمر، لم يكن "فارس" سيئاً إلى هذا الحد. كل ما في الأمر هو أنه لم يحسن مطلقاً اختيار الوقت. لقد جاءها على حين غفلة من حنين، وتأملها بعينين عسليتين، فما كان لها أن تغلق في وجهه بابها. ولعل المرأة قد حاولت وحاولت فعلًا أن تنجو من القصف، وأن تحتمي من صوته البعيد عن الوصف، لكنها ل تفلح في العثور على ملجأ، ولم تنجح حتى في الاعتذار منه بلطف.

- تباً للفنانين جميعاً!

هتفت بها "نوال" بصوت منخفض حين ولّت وجهها صوب لوحة ضخمة لمدينة الرياض. هناك في ذاك الفراغ الكبير، احتلت اللوحة مساحة شاسعة من الجدار المقابل لمدخل المعرض. لطالما أحبّت "نوال" هذه المدينة وأخلصت لها، غير أنها لم توفّر لها رجلًا مثالياً ترضاه ويرضاها. وحتى عندما وقعت المرأة في فخ الزواج، لم توفر لها المدينة مخرجاً يليق به بالرغم من شوارعها المثخنة بالتكهنات، وبالرغم من اليقين الممتد على الطرقات:

- هذه المدينة ظالمة!

قالتها "نوال" بثورة لا شهود لها وهي تحصر امتعاضها في ابتسامة. وقبل أن تشرع في الهجرة صوب لوحة أخرى، أتاها صوت أنثوي من الخلف يفيض بالبهجة:

- نعم تلك أنا التي تقف لتترصد الفتيان!

استدارت "نوال" إلى الخلف بلهفة، فكانت "عبير" وراءها مشيرة إلى لوحة على الجدار. بلهفة دَنت منها صديقتها لتحييها، ثم أشارت لها إلى تلك الواقفة بين أربعة أضلاع. امرأة في عقدها الثالث تتكئ على باب أزرق وهي تحمل سلة خبز ممتلئة بالأقراص. تتمايل المرأة بدلال؛ كي تُبدي مفاتنها، وأيهما يا ترى أشد حسناً، تبسّمها أم بشرتها السمراء؟ لا شيء أكثر إغراءً ربما من ربطة شعرها الحمراء.

اقتربت الصديقتان من اللوحة فبدت لهما تضاريس البهاء أكثر إثارة عن قرب. لربما كان اللون الأحمر قاتلًا، ولكنه كان حتماً يفيض بالجاذبية. هتفت "نوال" بدهشة:

- إنها فاتنة!
- لقد حاولت هنا أن أزرع البسمة حيث كانت اللعنات.
- حذار من تلاوة القصة بالقوة، فجمال هذه الفتاة جارح حد الدهشة.

أعادت "نوال" النظر في سلة الخبز فبدت لها تلك الخدوش على بشرة الرغيف مألوفة وهي تذكّرها بجرح قديم، ربما لأن تجاويف الدقيق كانت أشبه بالفجوات المتروكة على قلبها، وربما لأن انبعاجات الرغيف كانت مماثلة لِتَمايُل حظها. انغمست "نوال" في تفاصيل الألم بجرأة الشهداء، ثم تفحصت السلة التي عذّبتها، نظرة تلو النظرة حتى كاد الوجع أن يقتلها. وقبل أن تعلن المرأة خبر وفاتها، قاطعها صوت "عبير" مجدداً، ولكن بنبرة ساخرة هذه المرة:

- نصفك الآخر هنا!

قالتها بخبث، وهي تشير إلى رجل دلف للتو من فوهة المعرض. اخترقت لهفة "نوال" الضوء الأبيض، فارتبكت من أجل رجل راح يسير نحوها حاملًا راية السلام. ما أربكها فعلًا ليس حسنه المتقن، وإنما تجاهله التام لكل القطع الفنية التي بالجوار. من حوله نساء بعباءات الحسن ملتحفات، فكيف لرجل مثله أن يغض النظر عن كل تلك المغريات؟ كيف له أن يغلق عينيه بكامل إرادته، وأن يختارها من بين الجميع سيدةً للجميلات؟

- ألست محظوظة أنا؟

قالتها "نوال" بثغر باسم وهي تشيح بنظرها عن صديقتها. أعادت تركيزها على ذاك الذي كان يهاجر نحوها بجسد نحيل لا يشبه جسد زوجها، فكانت قامته ممشوقة للحد الذي يحرض على الشهيق من أجلها. ثوبه الأبيض فضفاض، وهي المغرر بها. يتقدم صوبها، مزيج من الخجل يعتريها، وما من حدث آخر ليغريها.

جاهدة، أعادت "نوال" ترتيب توازنها، ثم سارت بخطوات يملؤها الخوف من ترقّب النساء اللواتي كنّ حولها. هنّ الغواني الجميلات، نساء لَعينات في مقتبل أعمارهن، ينظرن مثلها إليه. يرقبن الانحناءات وهي تبدو أكثر وضوحاً كلما لامس الثوب جسده الناضج، ويميّزن حقيقة حضوره بالرغم من مزيج الأضواء الهائج.

إعصار بداخل قلبها لا ينعس ولا ينام، تكون "نوال" شديدة القرب من ذاك المتقدم للأمام، ومن منهما يا ترى سوف يبدأ بالسلام؟ يقترب "فارس" منها بلهفة دفينة ليحرس عرش قلبه الأوحد، فتكون من دونه امرأة ترقب السقوط على صدره. منزّهة عن الحياء، تمد كفها نحوه، تصافحه بيد الخجل، فيسري في كيانها مائتان وعشرون فولتاً من الذكورة، وترتعد من أجله أنوثتها:

- كلهن زهرات الشمس، إلاكِ فأنتِ زهرتي الوحيدة!

قالها "فارس" وهو ينظر بعمق في هاوية عينيها. وبالرغم من تلك الخطوات القصيرة بينهما، بدت لها المسافة شاسعة بين قلبه وشفتيها. غازلها، اقترب منها أكثر، فصار حياؤها جلياً. ولما أشاحت المرأة بنظرها

إلى اليسار قليلًا، كانت تجربتها في الهروب شديدة الفشل، وكانت محاولات إنكارها شبه متأخرة، فكل الحاضرين قد رأوها، كل الحاضرين قد تمادوا في الحديث عنها.

ولأنه لم يشأ أن يتخلى عن أناملها، قادها الشاب بهدوء بعيداً عن الحشد واضعاً كل الإغواء بين يديها. سار بها نحو حجرة في منتصف المعرض على هيئة مكعب أسود، فاستقبلتهما الحجرة المظلمة بجدران سوداء وبسبع لوحات معلّقة. غازل الضوء المنهمر من السقف بقع الألوان المثبّتة على الحائط، فأفاق الزائران على منظر البجعة المتكرر في كل اللوحات. بالظلام الحالك، وبصوت الموسيقى الجذاب، كان المكان ملائماً لسبع بجعاتٍ كي يطلقن سراح أجنحتهن بِخيْلاء، ويحلّقن في سماء الليل:

- أي ندم أتى بك إلى هنا؟

تساءلت "نوال" معاتبة بانتظار إجابة من فارسها، إلا أنه اقترب كثيراً من إحدى اللوحات دون أن يجيبها. ازداد اتساع المسافة بينهما، فازدادت "نوال" قرباً منه، ثم همست له بدورها:

- إنه لمن الممل حقاً أن ترسم "عبير" اللوحة ذاتها أكثر من مرة!
- كل لوحة هنا أشبه بطفلة خُلقت في رحم مختلف. أنظري إليها جميعاً! لحظات الخلق متفاوتة، تموجات الألوان مختلفة، والحالات المزاجية التي قادتها للرسم متنوعة.
- ربما، ولكنني لا أرى مبرراً للتكرار.
- التكرار هو سبيلنا الوحيد لإعادة خلق الذكريات بشكل أفضل.

استدار نحوها وبصيص من الضوء ينسدل بمهل على شفتيها الناضجتين. مرر سبابته على تلك التضاريس كي يتحسس أحمر الشفاه ثم أردف:

- أغمضي عينيك، فأنا أريد أن أنعم عليك الآن بقبلة!

قالها ثم وضع كل اللهفة التي بداخله على شفتيها. للحظة بدت موازين الرغبة ثقيلة وهو يسدل الإغواء على ثغرها. ربما كانت قد أرادت فعلًا أن تفلت من قبضة اشتهائه تلك، ولكنها فضلت أن تحصل على تعويض لصبرها على هيئة قبلة!

مسبقة الدفع، كانت تلك القبلة باذخة جداً للحد الذي جعلها تفقد الإحساس تماماً بشفتيها! استشعرت "نوال" أنفاسه الدافئة وهو يبتعد عنها تدريجياً، وتمنت لو كان بمقدورها أن تراه جيداً، فتلك الظلماء قد جعلته حاضراً وغائباً عنها. وقبل أن تفصح له برغباتها، جذبها "فارس" نحو أشد البقاع ظلمة، ثم اقترب منها أكثر؛ حتى يضع همسه الدافئ في أذنها اليمنى:

- كل الشوق أتى بـي إلى هنا.

وأخيراً، حصلت "نوال" على إجابة للسؤال الذي حيّرها تماماً. أرادت بدورها أن تشي بالسعادة حين استمعت لها، فتحفّظت على ما شعرت به، إلا أن ابتسامة الخجل كانت كفيلة بفضح سذاجتها. وما أن تبنّت "نوال" لحظات من الصمت، حتى عاود الشاب تلاوة القبلات على شفتيها؛ أملًا في أن يتذوق مجدداً طعم الحنين الممزوج بأحمر شفتيها. ضاقت المسافة بين قبلته وثغرها، فتأكد ظنها بأنه حين طال الاحتضان

اختفى صوت الموسيقى من حولها.

رغم الظلام والضجيج، رغم الخجل وشذا الأريج، أصبح كل شيء راغباً في الرحيل عنها، حتى تلك البجعات الأنيقات حلقنّ بعيداً في السواد المخادع لها. وحدها نبضات قلبها بدت حاضرة ما أن اقترب من قلبها الشاب دون أن يلامس صدرها.

- أنا ممتّن للصدفة التي جمعتنا يوماً.

قالها "فارس" لحظة أن ادرك قربه الشديد منها. وبالرغم من عدم اكتفائها، قررت "نوال" أن تطلق سراح شفتيه، وأن تتراجع إلى الخلف قليلًا، حتى تستعيد ما تبقّى من اتزانها. يعود صوت الموسيقى مجدداً، تهبط البجعات من سقف السماء، فتدرك "نوال" أخيراً أن المعنى الحقيقي للتكرار يكمن في محاولة الوصول إلى التعبير الفني الأكثر دقة، وتدرك أيضاً أن القبلة التي تتكرر في حجرة مظلمة هي كفيلة بأن تمحي كل الذي مضى من قُبلات.

- سوف أهاتفكِ لاحقاً.

همس"فارس" بتلك العبارة وهو ينتشل "نوال" من تأملها، ثم اقترب منها ليطبع على وجنتها قبلة النهاية. بهذه البساطة ودّعها، تخلّى بمهل عن كفها، ثم سارع بمغادرة الحجرة المظلمة، تاركاً خلفه امرأة مبللة باللهفة والحيرة معاً.

الفصل الخامس: الشاهد واحدٌ.. والقبر جماعي

ليس بالغريب جداً على امرأة مثل "نوال" أن تعشق رجلًا يصغرها بعشرة أعوام. فهي لم تعي ذات يوم معنى أن تكون بين يديّ شاب يريدها عنوة! علاقتها المباغتة بزوجها كانت ناضجة أكثر مما ينبغي، للحد الذي لم يسمح لها أن تكون ساذجة ولو لمرة. إنها ولطالما أرادت أن تتصرف كفتاة طائشة، أن تخطئ في اتخاذ القرارات المناسبة، وأن ترتكب من الهفوات ما هو كفيل بأن تتباهى به أمام صديقاتها. إنها أرادت ولمرة واحدة فقط، أن تتمرد على الحياة أكثر، وأن تعي تماماً معنى أن تكون متهورة!

لا، ليس بالغريب أبداً على امرأة مثل "نوال" أن تعشق شاباً لا يعتد بالصعوبات، ولا يأبه حقاً إلا بقلبها. إكسير الحياة الذي أعاد لها شبابها، "فارس"، ليس غريباً أن يكون لها أو أن تتنصل لأجله من واقعها، فهو الذي أخبرها ذات مرة، بأنه سيعيد اكتشاف الحب من أجلها.

فارسها كان الليلة أكثر فتنة وإصراراً مما مضى. إنه ومنذ أن رأته قبل عام أو يزيد وهو الفاتن بتفاصيله التي لا يمكن حصرها في جملة واحدة. رأته في مأدبة عشاء لأكثر الشخصيات نفوذاً في مدينة "الرياض"، فقدّم لها نفسه كمعاون مستجد لصديقها الدكتور "أحمد"، أحد أكثر المستشارين ضراوة. تذكر جيداً كيف أنه كان كفتنة المساء، شابٌ أعانها على أن تكتشف أن الجمال الذي لا تكلّف فيه هو الإغواء الأشد خطورة. جسدٌ ناحلٌ غير مفخخ بالعضلات، وملامح شرقية لا تشوبها أية تشوهات، فهل كان لها أن تُفتن به لو أبقت قلبها مغمضاً ولو للحظات؟

نسوةٌ وبضعُ رجالٍ كانوا يحيطون بمائدة عشاء فاخر آنذاك، وكانت "نوال" من بينهم تتجاذب أطراف الحوار. تجلس في محيط الحلقة، لتحاول وصف تواجدها، فيكون الشاب في الجهة المقابلة منها، صامتاً، وثمة ضوء خافت انهمر عليه بكثرة. يفسح الضوء لها مجالًا حتى تقرأ ملامحه جيداً، فيكون مثل كتاب يثير الدهشة، كل صفحاته بالنضج مفعمة!

"نوال"، وحتى لا تفقد اتزانها في تلك الأثناء، كانت ترفع كوب الماء إلى شفتيها. ترتشف بعضاً من محتواه، وهي من بين الزجاج ترقب النبض في عروقه. لم يبد "فارس" حينها محيطاً بها، ولكنها كانت تجزم بأنه كان يستشعر لهفتها. ذاك المساء، حاولت فعلًا أن تتجنّب عينيه، أن لا تمعن النظر إلى حركة يديه، ولكن كلما غابت أنظارها عنه، أعادها إلى ذات الفخ انعقاد شفتيه!

- تباً لشفتيه.

هذا ما قالته "نوال" حين كانت تنظر إلى إصبعه الذي راح يحوم حول فوهة كوب الماء. بحركة دائرية. كانت تلك السبابة تقتفي انبعاج الكوب وكأنها تغازل روحها. "فارس"، ابن الطبقة المتوسطة ذاك، لم ينوي حينها بالحب أن يباغتها، ولكن تردّده على مكتبها كان كفيلًا بأن يذيب أقفال قلبها، فهو يتردد على مكتبها مرة في كل شهر، كبدرٍ يعرج إلى القلب السماء، وكان يصعد مراراً إلى جنة أحلامها؛ حتى تمكّن من أن يقيّدها بنظرات لا حرية لها فيها.

ربما كان عليها أن تفتح مظلتها قبل أن يسقط عليها الإغواء من علو، ربما كان عليها أن تلتفت إلى الجهة الأخرى أو أن تمارس السمو، ولكنه اقترب منها كثيراً وكثيراً، حتى تمادى اغواؤه في النمو. خاطب الأنثى النافرة في داخلها بلغة لا تفهمها امرأة سواها، وأغدقها بحفنة كلمات يتساقط العطر من نداها. فما كان لها إلا أن تمدّ إليه كفها؛ كي يأخذها إلى عالم أبعد من مداها.

انقطع حبل أفكار "نوال" على حين غرة وهي تهم بالعبور بسيارة الـ "رولز رويس" الفاخرة داخل بوابة القصر. كان التوقيت حينها ملائماً تماماً لإيداع تلك الأفكار خارج أسوار منـزلها، فامرأة سعودية كمثلها لا تحتمل أن تصطحب إلى دارها ظلًا لا يشبه ظل زوجها. تحركت مركبتها بين مروج خضراء، فهبت إضاء الحديقة الخافتة لاستقبالها. إنها وكلما قطعت شوطاً، كانت أعمدة الإنارة تضيء دربها.

عبرت المركبة سياج الصمت بضجة لا صوت لها، ثم استقرت تماماً بجوار المدخل الرئيسي. البوابة الخشبية ذاتها، تلك التي تُفضي دوماً إلى زنـزانة الروح، توقف كل شيء أمامها. وما أن همت "نوال" بالنـزول، حتى هرع "عمران" نحوها مطلقاً سراح الباب. حياها بنظرة الخضوع المعتادة وهو يحني رأسه؛ فعبرت المرأة من خلفه، ودلفت إلى القصر بروح لا يبدو عليها أي وهنٍ رغم الإعياء.

"إيف سان لوران" وخمس إنشات كعبها العال، هبطن بها إلى الأسفل جميعاً، تاركة لها المجال كي تخلع مع حذائها تلك اللهفة التي أصابتها الليلة. وبجفاف ناجى هطولها، انسكبت المرأة على أريكة جلدية مجاورة؛ كي تزيل ما تبقى من عباءتها السوداء.

صوت محرّك بالخارج دوى عالياً للحد الذي لم يسمح لها بإعادة التفكير في مجريات الليلة. ثمة مركبة أخرى لهثت فوق المروج الخضراء، تبعت إثرها، وربضت بجوار البوابة الخشبية ذاتها. توقف الزئير فجأة وكأن المارد بالخارج قد اغتيل للتو، فعاد الصمت الباهت ليسود المكان. بضعة ثوان مضت، ثم فُتحت البوابة الخشبية بهدوء لا يشبه الضجيج العابر للتو، فكان زوجها قادماً من الفراغ.

من رحلة عمل قصيرة أتاها "سعد" محمّلًا بالبدانة، رجلٌ في مقتبل الأربعين من العمر، تطغى على ملامح الثراء. صارم الملامح، منتصب القامة، وبالرغم من الوضوح الشديد في عينيه، إلا أنه بدا غامضاً على الدوام. كم من مرة تمنت "نوال" لو أمكنها الغوص في أعماقه؛ كي تكتشف أسراره الدفينة، ولكنها في نهاية الأمر فضّلت أن تطفو على السطح؛ حتى لا يخدش عنفوان السر فضولها.

على ذات الأريكة انسدل "سعد" بجوارها مطلقاً سراح سلسلة من تأوهات الإعياء، فتأملته "نوال" وهي تتأمل مع الإعياء تجاعيداً أخفتها ابتسامته الباهتة ثم قالت:

- تبدو مرهقاً!

قالتها "نوال" بنبرة تعبّر عن قلق ثم راحت تلمس وجنته؛ كي تُبدي شيئاً من عطفها. كانت لمساتها حانية كثيراً للحد الذي جعله يغمض عينيه جيداً، وللحد الذي جعله يزيح بعضاً من وهنه واعيائه. أعاد الزوج فتح عينيه مجدداً عندما ابتعدت أصابع يدها، ثم قال:

- افتقدتكِ كثيراً.

اكتفت "نوال" بابتسامة قبل أن تقف على ساقيها بغتة، وتخاطبه بلهجة طغى عليها بعضُ من الحزم:

- حسناً، أنت بحاجة إلى قسط من الراحة. ولتصعد للأعلى فوراً!

بادلها "سعد" التبسّم قبل أن يسير بتثاقل صوب السلالم. راقبته "نوال" وهو يخطو خطواته بهدوء صوب الدرج، رجلٌ يرتقي سلالم الإعياء، ويصعد إلى الطابق العلوي؛ حتى يترك من بعده امرأة، وعباءة وحذاءين.

وقبل أن تطول وحدة الزوجة، جاء صوت هرولة الخادمة "فرح" من بعيد، حين راحت تهبط السلالم على عجل؛ كي تلتقط ما تركته سيدة القصر بجوارها. برشاقة التين جاءت "فرح" كثمرة تشق الطريق بسقوطها للأسفل. سارت صوب الأريكة الجلدية، توقفت بجوار "نوال"، فراحت الأخيرة تتأمل تفاصيل وجهها. قليلٌ من حمرة يصبغ شفتيها، بعضُ من الحزن يقطن في عينيها، وشعرٌ أسود كثيف ينسدل على كتفيها. فتاة بها الحُسن كيف لها أن تقبل بالعمل كخادمة منزلية؟

نظرت "نوال" إليها وكأنها كانت ترقب روحاً هائمةً في البؤس. من على بعد خمسة أقدام، إنها بلا أدنى شك يمكنها أن تستشعر شقاء خادمتها. وبالرغم من إعيائها، استقامت "نوال" في موضعها ثم أسندت كتفيها إلى الأريكة جيداً قبل أن تسأل "فرح" بنبرة اهتمام:

- أعلم جيداً إنكِ قد زاولتِ هذه المهنة مسبقاً، ولكن هل زاولتِ مهناً أخرى غيرها؟
- نعم يا سيدتي! من بين مهنٍ كثيرة زاولتها في حياتي، عملت كحاملة مظلات.
- حاملة مظلات؟
- أجل! كنت أقف إلى جانب بوابة إحدى المتاجر النسائية الفاخرة في موسم المطر، وما أن تأتي امرأة، حتى أهرع نحوها فاتحة مظلتي. كانت المسافة القصيرة المفروشة بين الرصيف وبوابة المتجر هي مساحة عملي! بها أتبلل جداً، وبها أجفف روحي.
- كُنتِ تصونين جفاف الآخرين؟
- أجل يا سيدتي.
- وما الذي دفعكِ لتغيير هذه المهنة؟
- لم أستطع فعلًا أن أحصر تفاصيل يومي في مسافة يمكن لإحداهن أن تقطعها في خمسة ثواني. إنني وفي كل خطوة كنت أستشعر أنه لا أهمية لي، وأنني مجرد إضافة غير ضرورية لمجتمع بالكاد يراني!

قالتها "فرح" بنبرة انهزامية وهي تتابع:

- إحداهن ارتطمت بـي ذات يومٍ ولم تعتذر. يبدو أنها قد ظنت أنني كُنت مجرد إضافة فنية لمدخل المكان. ولولا أن تهاويت أمامها، لما كان لها أن تلحظ وجودي.

سكون مباغت ساد المكان قبل أن تستطرد "فرح" حديثها:

- بعد ذاك الموقف، قررتُ أن أمتهن مهنة أخرى حتى يلحظ الآخرون وجودي! صنعت قائمة قصيرة لكل مهاراتي، وأضفتُ كذلك كل المهارات التي اكتسبتها من أفراد أسرتي، فوجدتني أمام ورقة فارغة، وأمام حقيقة بؤسي. ولما كنتُ أجيد معاونة الآخرين على السير قُدماً نحو غاياتهم، قررتُ أن أصبح مدبرة منزلية، وقررتُ أن

أهتم بشؤون غيري.

تبتسم "فرح" حتى لا يبدو حديثها مأساوياً، فيكون ذلك التهكم الصريح في نبرتها مجرد محاولة فاشلة لإخفاء الخدوش في روحها. تعيد الخادمة ترميم جراحها ثم تستطرد في عجالة:

- إنني وفي كل الأحوال ممتنة جداً لتواجدي هنا.

بهدوء لا مثيل له، وبابتسامة أقل بروداً، أجابتها "نوال":

- مرحباً بكِ هنا.

توقف انهمار الحديث فجأة. ساد المكان صمت عميق. ما من صوت، ما من أصداء، كل ما يمكن العثور عليه هنا هو فقط ضجيج النظرات.

الفصل السادس: الإحتباس العاطفي سببه ثقب في الذاكرة

الذين ناموا مبكراً بثياب الخيبة استيقظت أجسادهم قلقة! مثل سائر النسوة على أسرة الحيرة، استفاقت "نوال" بجوار الرجل الخاطئ تماماً. نصبت رجاءها في حقوله النائية، وهي تمرر يدها بهدوء على صدره المنكشف. امرأة تلاحقها لعنات أحزانها، هي المتمددة بجوار رجلٍ لا تنتمي له حقاً. تتحسس مع نبضة قلبهِ والأخرى بعضاً من الخسائر وكثيراً من الهزائم المسبقة الدمع. تموت كل يومٍ في أحضانه ولا يأخذها صدرٌ إليه. هي المنتحرة، تدعّي النوم بجواره على ترف السرير، وتستيقظ كلما قرعت أجراس الندم أبواب ذكرياتها.

قدماها تلك صالحتان للرحيل، وتلك يداها قادرتان على التلويح، ولكنها امرأة لا يمكنها المغادرة بهذه البساطة. إنها لا تستطيع أن تترك خلفها قلباً محطّماً دون أن تؤنبها عشرة أعوامٍ من زواج! تستيقظ كل صباح كي تشاهد الجسر المؤدي إلى بر الأمان. إنه معبرٌ يحتمل خطوات الإنعتاق الموجعة، ولكن لو عَبَرته، من ذا الذي سيستقبلها في الضفة الأخرى؟

تخلت في هذا الصباح عن لهجتها ولكنتها، وهي التي قد تخلت أيضاً ببلاغة مطلقة عن زوجها. اقتبست جسدها من على السرير، وسارت صوب حوض الاستحمام الباذخ الذي ينتظرها مثل كل نهار. عشرون خطوة إلى الأمام قطعتها "نوال" متجاوزةً باباً خشبياً أنيقاً. حقاً، هي لم تكن لترغب في استعادة الأحزان مع مطلع الشمس، ولكنها أرادت أن تؤنب الريح في مستهل صباحاتها.

أغلقت الباب من خلفها، اتكأت على حافة الحوض، أدارت دفة الماء، انزلقت في راحة الدفء، ثم حملت رأسها على كتفيها، وهي التي لا وجه لها كي تبلل حيرتها! بهدوء مباغت أغمضت عينيها قليلًا ثم همست:

- أيني الآن عني؟

ما من أحدٍ هنا كي يجيبها، حتى أن روحها في حالة سبات عميق. رددت عبارتها كثيراً في السكون المخادع، ثم انزوت في ذاك الحوض مجدداً، وهي تحاول من خلال الفقاعات أن تعثر على طيف يشبه أحلامها.

ما ابتغت "نوال" ذات مرة أن تغيّر حظها، أو أن تستبدله، بل كانت تتمنى فقط أن تقوّمه. فانحراف السعادة ذاك لم يكن من شأنه أن يصيب امرأة مثلها، ولكن من منا يعرف للسعادة مساراً؟

- تباً!

قالتها المرأة بحنق وهي تحاول إخفاء واقعها المرير جيداً في قاع الحوض. انزلقت في قلبه قليلًا، وهددت الصمت باستقالة الفراغ، ثم عاودت النهوض بجسدٍ عارٍ لا تشوبه أي ذكريات.

إنها الآن والآن فقط خالية تماماً من أي وهن! بأقدام شبه مبللة، قطعت المرأة المسافة صوب حجرتها، وقطعة من الحرير تجفف بللها وبعضاً من عُريها. استوقفها المشهد الروتيني لزوجها وهو يسير إلى خزانة الملابس. عاري الصدر، راحت تتمعن فيه جيداً وهو ينتقي من بين البياض ثوباً يرتديه. يبحث بين نقاء

الأردية، وهو بين الفينة والأخرى يستدير نحوها كي يُنعم عليها بابتسامة.

على هامش المسافة بينهما، ثمة نظرات رمتها "نوال" ببلل شديد وهي تسترخي على كرسي مجاور. شرعت في التمعن بالنظر في انتقاءات زوجها ويُمناه تحوم حول زجاجات العطر المرتصة على طاولة الزينة:

- "كلايف كريستيان".. أم دهن العود؟

قالها "سعد" بصوت منخفض تهادى إلى مسامع "نوال" التي اعتادت على مثل هذه التساؤلات. فهو ومع استفاقة كل نهار، كان يلجأ إلى نسمات الفجر الأولى؛ حتى تعينه على صنع القرارات المناسبة. كان يحوم كثيراً حول العديد من الخيارات، يستعرض الاحتمالات على مهلٍ، ثم يقف مباشرةً أمام روتين الانتقاء نفسه:

- "كلايف كريستيان" كي أبدو عصرياً.
- "كلايف كريستيان" كي أبدو عصرياً.

بنبرة اليقين، نطق الزوجان بالعبارة ذاتها سوية. كلٌ ناجى روحه في اللحظة ذاتها، فالإجابة قد بدت واضحة أكثر مما ينبغي. كيف لا، وذات السؤال يطرحه "سعد" على نفسه في كل صباح؟ حمل الزوج قنينةً سوداء في راحة يده ثم استدار صوب خزانة الملابس مجدداً. مرصعة بالاحتمالات، استقبلته الخزانة بجُملة أخرى من الخيارات:

- غترة.. أم شماغ؟

ذات الحيرة نبضت في قلب السؤال قبل أن يجيب الزوجان سوية في الوقت ذاته:

- غترة !
- غترة !

قرارٌ روتيني آخر بالنسبة لرجل يريد أن يستعيد شبابه. بنهم مفرط راح يفتش بين أقمشة البيضاء على ما يلائمه قبل أن يستفتي نفسه:

- "فالنتينو" أم "بيير كاردان"؟

ومثل كافة الأسئلة كان الجواب واحداً:

- "فالنتينو" !
- "فالنتينو" !

تناول "سعد" غترته على مهل قبل أن يلتقط ثوباً فاخراً أيضاً. وبيدين شبه ممتلئتين صب حمولته كاملة على صفحة السرير. ابتسامة أخيرة ألقى بها من خلف ظهره قبل أن يغادر متجهاً صوب حوض الاستحمام. رمقته "نوال" بابتسامة كسولة وهي تنهض من على متكئ. تأملته وهو يغلق الباب من خلفه قبل أن تدير دفة أفكارها صوب حجرتها التي راحت تغرق في الصمت الباهت مجدداً.

بدا لها وكأنه لم يمض سوى القليل من الوقت منذ أن رأت زوجها للمرة الأولى وهو يسير أمامها بصدره العاري. كان "سعد" حينها أقل بدانة وأكثر خجلًا. شابٌ في منتصف عقده الثاني، يجهل لغة الحب ولكن

يتحدث الفرنسية بطلاقة!

نعم، لقد بدت لها السنون قليلة منذ أن سارت في حقل الألغام وحدها، مهتدية بشعلة الصبر، متشبثة بأسلاك شائكة، ومحاولة في ذاك المرور أن تنجو بروحها. كانت تسير حافية القدمين، تتحاشى الشظايا المخفية عن العين، ولا تستعين بسواها في الاهتداء إلى النجدين. وعلى الرغم من أنها قد استطاعت بجدارة أن تتفادى كل تلك الأزمات، إلا أنها لم تنسى ذات يوم أن الحياة قد أسقطتها في هذا الفخ عنوة.

وكما فرضت عليها الحياة أن تنتمي لرجل لا تريده، فرضت عليها أيضاً أن لا تهنأ بأمومتها. فمن هذه العلاقة المرتبكة لم تخرج "نوال" بأي أطفال! نهضت المرأة بهدوء من مضجعها وهي تتذكر تماماً لحظة أن أدركت حقيقة عقم زوجها. "إيثاكا-نيويورك"، منزل في وسط منطقة "الهيرتيج بارك"، وزوجان قد جلسا في الشرفة المطلة على بحيرة "كايوغا". دلف الزوجان، غزلا الحب، نكثا الغزل، فأخذا الوعد للطبيب. يومان، تلاهما مظروف، لا بل ورقة مثنية باهتمام، وبالداخل كانت تلك الفاجعة تنام.

"زوجكِ.. والأطفال.. معادلة غير قابلة للاتزان"

بدا حينها الخبر صادماً للحد الذي جعلهما يبادران في تلاوة الحسرة. تذكرت "نوال" جيداً لحظة أن وضعت كفها على ثغرها؛ كي تستر صرخة، وتذكرت أيضاً لحظة أن التقط زوجها شهقته؛ كي يتجاسر على تلك الصدمة. "إيثاكا-نيويورك"، صمت في حجرة نوم، وزوجان يجلسان على طرف السرير، كلٌ يردد في السر خسارته.

أغلقت "نوال" أدراج الماضي مُحكِمة قبضتها على مزلاج النحاس كما لو كانت بارعة في القسوة، وضعت في قُفل الذاكرة مفتاح النسيان، ثم أدارته يمنة ويسرة، وهي التي مع الدوران كانت تنفض غبار السنين. نفضته كثيراً حتى فاءت كل أفكارها كما الهباء، لا بل توفيت جميعها مثل قصائد صامتة وممنوعة:

- آه، كم كانت تلك التأملات مفزعة للعواطف!

تمتمت السيدة بالعبارة على عجالة قبل أن تجلس خلف طاولة الزينة. كانت "نوال" عصرية للغاية، وهي تصفف شعرها القصير، ترتب خصلاته بلا استعجال، تمرر الفرشاة بأناقة، ثم تضع أحمر الشفاه، وكأنه لا شيء آخر في هذا الصباح يعنيها. وما أن انتهت من زينتها، حتى سارت بثقة صوب خزانة الملابس.

وعلى النقيض من زوجها، لم تكن خيارات السيدة في هذا الصباح تقليدية قطعاً. تلك المُتيّمة بالحرير، لقد انتقت رداءً قُرمزياً حتى تُخفي تفاصيل عُريها. في واقع الأمر كان الرداء مائلًا قليلًا للأحمر الكاردينالي، ولكن قلادة "كارتيّيه" الملتفة حول عنقها جعلت ذاك اللون أكثر كثافة ودفئاً. تدلت الحلة على صدرها بثمانية عشر قيراطاً من الذهب الأبيض مثل عنقود الحياة، فانسكب ثمة بريق من على ذلك اللمعان:

- ولننسى أننا كنا هناك ذات يومٍ.. ولنتذكر أننا هنا الآن!

قالتها "نوال" وهي تضع آخر لمسة من مستحضرات التجميل. ثم قررت أن ترسم ابتسامة غير روتينية على محياها. الآن وبخلاف كل الأحيان، أرادت المرأة لروتينها اليومي أن يطلق ساقيه للريح، فهي وبرغم حاجتها الملحة للتكرار، إلا أن الوقت كان مناسباً لها كي تخلع الصورة الكربونية، وكي تقفز حواجز الأيام!

استفاقت، ثم أبصرت واستدارت، فكان ذاك الباب الخشبي ينفتح على حين غفلة. وقبل أن يدلف الظل إلى الحجرة، تدلى بخار الماء كثيفاً من ثغر المسافة. كان زوجها قد أتم استحمامه، وهو مع الضباب يمضي برصانة نحوها. تمنت "نوال" حينها لو كان بمقدورها أن تضع ذاك المشهد قليلًا تحت طائلة الانتظار، وأن يتوقف انهمار الوقت لثوان معدودات. تمنت لو كان بإمكانها أن تستبدل جسد زوجها المكتظ بالترهل بجسد "فارس" الذي لا تشوبه أي هضاب أو مرتفعات. أوووه، كم تمنت حينها أن تتحسس البلل الممتد على جسد لا يخضع لقوانين السمنة، وأن تنـزلق أناملها على استقامة صدر لا يعرف أي تكتلات!

تمنت، تأملت، ثم أخذت نفساً قصيراً، وتنهدت، فكان زوجها يقف بجوارها. يد آثمة امتدت كي تجذبها نحو قبلة رطبة، فكان حينذاك نصيبها من البلل والجفاف. أشاحت المرأة بوجهها قليلًا، وتخلصت من ذاك الإسفاف. فتلك القبلة كانت في غير موضعها. تلك القبلة صورة من صور الإسراف.

وقبل أن يبالغ "سعد" في تقبيلها، ودّعته بابتسامة تليق بلهفته قبل أن تحمل حقيبة يدها، وتتجه بها خارج محيط الحجرة:

- يتوجب علي المغادرة.. فليس بوسعي أن أتأخر.

هكذا قالتها "نوال" ثم سارت بهدوء صوب حجرة الطعام. وكالمعتاد، استقبلتها الخادمة التي راحت ترتب أطباق الفوضى واحدة تلو الأخرى على جبين الطاولة. وقفت "نوال" مطولًا أمام أصناف المذاق فسوّلت لها نفسها أن تتناول كوب قهوة.

وكبطلة في فيلم هوليودي يُعاد بثه كل يوم، حملت "نوال" كوبها وسارت به صوب الشرفة. شعرت بالدفء المزيّف وهي ترقب امتداد النهار أمامها. راحت تراقب الشروق وما تبعه من قرارات كونية، فراودها إحساس بأن النافذة مفتوحة، وهل كانت مفتوحة حقاً؟ ما من نسائم تسربت منها، ما من سعادة تسللت منها، وحده سيل السكون هو من حلّق عبرها، فما الذي يحرّك الستائر الهائجة إذاً؟ "نوال"، يد على قلبها، ويد أخرى على روحها، بأي يد ستغلق نافذة مطبخها؟

رشفة، رشفتان، ثلاث رشفات، ثم كوبُ من الكافيين وضعته المرأة على الطاولة بثبات. رائحة هاجس انهمرت للحظات، وخادمة حامت بصمتها في شتى المدارات، أما "نوال" فكانت تنظر إلى النافذة، وهي غير قادرة على العثور على سبب مقنع لتركها مشرّعة على شتى الاحتمالات. سارت بحزم صوب الزجاج، أرادت بملء جوارحها أن تغلق الفجوة، ولكنها سرعان ما فرت من تلك الحجرة، قبل أن تقع أصابعها على المزلاج.

تبادر "نوال" بمغادرة دارها، فيكون "عمران" في الحديقة بجوار مركبتها السوداء. قيل أنه قد أغلق الباب من خلفها، قيل أنها قد جلست على مقعدها، وقيل أيضاً أنها قد اختبأت خلف مقودها. ولكن ما لم يتم ذكره هو أنها قد غادرت بكل الإصرار منـزلها.

فراء غيم سادر تحت جفن السماء، والشمس مختبئة بكسل خلف بضع سحابات. تنظر "نوال" بتأن شديد كي ترقب الحياة خارج أسوار معتقلها. هنا ضجيج على جانبي الطريق، هناك مركبات تجرح خد المسافات، والجميع مسافرٌ إلى جهة أو أخرى. قطعت "نوال" المسافات بسيارتها الفارهة؛ كي تقف في

منتصف الزحام الباهت وفي منتصف الطريق المؤدية أيضاً للحياة. تداعب عقلها وثمة بيضة في حضن أفكارها قد تفقس في لحظة إسراء. تصقلها جيداً، تكسرها، فيخرج ما بِقاعها. حسناً، لقد أنجب عقلها جنيناً على حين غرة من انتظار:

- أنا بحاجة إليه!

قالتها بصوت لم يبدو مألوفاً لروحها قبل أن تلتقط هاتفها المحمول وقبل أن تنثر أناملها الغانية على الشاشة الصغيرة تأهباً لرسم الحلم بالأحرف:

- كم من الرجاء يلزمنا كي نتقابل مجدداً؟!

رسالة نصية بعثت بها المرأة على عجل إلى ذنبها الأوحد، "فارس"، فكانت آمالها تائهة في أفق الرغبة، بين اللعلعة والكلمات. مذهولة بالخدر أخذت تستحضر ما تسنى لها من الأمنيات. أبواق تلتها أصوات، فاستفاقت من بعض التخيلات.

تعاود المركبات السير، ببطء السلاحف لا الخنافس، فتتيبس مفاصل المركبة مجدداً أمام الكثير من الزحام. أرصفة موبوءة بالإلتواء، وأشجار لا تكافح من أجل البقاء، هذه "الرياض" جنة للأشقياء.

فيما مضى، قيل أن أحدهم كان مهاجراً بجواز سفر لا يصلح للصعود إلى السماء؛ منبوذاً تحت سقف الليل، وباحثاً عن أرض لا تُخبئ فيها السعادة تحت نعش البسطاء. ناجى حيرته، استفتى معوله، فبنا له وطناً في منتصف الصحراء. ربما كانت المساحة فاتنة حينها، وربما كانت تحتوي على بعض المسطحات الخضراء، لذلك أسماها بالرياض. لكنها اليوم خالية من كل شيء، لا نبض بها، لا نهر يسكنها، ولا ماء! فما الذي يجعلنا ننعتها بما لا تتصف به من أسماء؟

فجأة، تصير الطريق أقل ازدحاما، فتسير المركبة وغايتها أن تضم المسافات. فجأة، تغدو الجسور معابراً للخواء، فتطل المباني الشاهقة بعنجهية من بعيد. حسناً، هنا "الرياض".. أو كما يسمونها "حجر اليمامة".. حسناً، هنا عاصمة التغيير!

الفصل السابع: نحن نحن بما نفقد.. لا بما نملك

تركوها لما تتمناه، خلف طاولة وكرسي، جلست "نوال" بمعطف أسود؛ لتقرأ عاموداً في صحيفة يومية. تنتظر الظهيرة أن تغادر، وأناملها تقبض بحزم على الورق. تُغبط إذا ما اقترب الحرف من الأبعد، وتتأمل خبراً عن سجين تخيّل أن القضبان ليست سوى أصابعه العشرة. نام ذات يوم في الحظيرة مع خرفانه الملوّنة بأحلام الثراء، فاستيقظ قلقاً على صوت مأمأة الشقاء. أعاد ترتيب الفوضى، استعاد أمنياته، ثم خرج من رحم المعاناة بزيه الوطني، ولكن لا أحد اكترث لنضاله، ولا أحد في الخارج رآه. عاد السجين للسجن بمفرده، عاد ليألف ظلم الحياة مجدداً، وليألف ثغاء الخراف. ولأنه ضاق ذرعاً بممارسات الحياة، قرر أن ينحر خرافه وأن ينتحر معها!

تلك السيدة تركوها خلف الطاولة، ولكن ما أدراها هي عن الفقر؟ ما أدراها عن الظلم وعن الوعثاء؟ تنام متدثرة بالراحة كل مساء، ومن حولها أُناسُ لا مأوى لهم سوى العناء. إنها لا تراهم، فهم يرتدون ثياب الفاقة، أو كما يسميها البعض "ثياب الإخفاء". منفيون في أركان المدينة، مبللة أرواحهم، وماذا سيبلّلها سوى الجفاف؟ ذكرت إذاعة محلية أن الودق ما عاد يهطل عليهم، فالسحاب قد كف عن الإرتحال فوق معاقل الفقراء!

وبالرغم من أن قراءة المطبوعات الورقية أصبحت عادة قديمة جداً، إلا أن "نوال" كانت مصرّة على عدم التخلي عنها. لطالما أحبت ملامسة الصحف اليومية براحة يدها لأسباب بالكاد تعرفها، ولطالما أحبت أن تداعب نعومتها، وأن تُلامس نقوش الحبر على ورقها. وبالرغم من أن الصحف كانت تجرحها أحياناً بأطرافها الحادة، وكانت تستفزها بحشرجتها عندما تتكوّم، إلا أن "نوال" لم تكن لتجرؤ على أن تعتزل قراءتها أو أن تتخلى عنها.

تتشبث السيدة بصحيفتها الورقية، تستعرض القضايا المستهلكة ذاتها، المساكن لا تكفي، الوظائف لا تكفي، الرواتب لا تكفي، والزوجة الواحدة لا تكفي، فيبدو كل شيء بالنسبة لها مكرراً، كل شيء ولا سيما تصريحات المسئولين، ونواح العاطلين، وقضايا غلاء أسعار الطحين...

يراود "نوال" الضجر، فتقرر التمعن في الكاريكاتير اليومي. تلٌ من المال مُخبأ خلف ظهر رجلٌ بدين وجيبه يشكو من ضراوة الفراغ اللعين. يقذف الرجل عملة معدنية بيده، فتُحلّق العُملة عالياً، وتسقط في كف مندوب مصلحة الزكاة بلا أي صوت أو رنين!

- أنا لم أفهم المغزى!

قالتها المرأة وهي تعرض بوجهها عن الأطروحة التي لا يفقهها الأثرياء. وما أن أتمت "نوال" إطلاعها، حتى قاطعها صوت طرقة دائخة احتدت بالباب. إنها الشابة "مها" دلفت الحجرة طالبةً الاستئذان:

- عذراً، ولكن الدكتور "أحمد" بالخارج و..

قاطعتها "نوال" على عجل وهي تُسقط الصحيفة على صدر الطاولة التي أمامها ثم قالت:

- دعيه يدخل فوراً.

أعادت "نوال" ترتيب وشاحها الذي غطى جزءاً من شعرها واستدارت ناحية الباب لترحب بزائرها. رجل في مقتبل عقده الخامس تقدّم نحوها، وبكل ثقة مد يده نحوها، فما كان لها إلا أن تصافحه بحزمها. حيّته بتقدير مفرط وهو المسكون بهيبة أبدية تتناسب تماماً مع رجل كمثله، محامٍ مخضرم ومستشار قانوني ذائع الصيت.

جلس أمامها بعينين داكنتين، وصوت عميق، وابتسامة تليق بشاربه الذي طغى عليه بعض من بياض. كان وكما يبدو أنه على عجالة من أمره حين شرع في استحضار حقيبته الجلدية. سبر عمقها، خبر محتوياتها، ثم استوحى منها حزمة من الورق. ربما كانت الأوراق التي أخرجها مزدحمةً بالحبر الأزرق وصعبة القراءة حينها، ولكن وجهه كان كصفحة بيضاء، يتأملها الأعمى بالهاجس لا باللمس.

التفت نحوها ثم خاطبها قائلًا:

- أعتذر على قدومي المفاجئ دون سابق ميعاد.

- كان بإمكانك تقديم الطلب إلكترونياً ومن ثم موافاتي برقمه عوضاً عن تحمل مشقة المجيء إلى هنا. في كل الأحوال مجيئك هنا شرف كبير لنا.

ناولها مجموعة الأوراق وهو يتابع:

- وكما أخبرتك آنفاً، هذا هو طلب حجة الاستحكام المختص بالأرض الواقعة شرق المدينة. إنه مدعم بكل المستندات المطلوبة.

- جيد جداً.

- ما هو رأيك بخصوص الطلب؟

التقطت "نوال" الورق بنهم وراحت تتفحص بيانات المالك، والعقار، والمكتب الهندسي القائم بالرفع المساحي أيضاً. أرض باتساع الفضاء ذات مساحة شاسعة، يحدها من كل الزوايا فراغ بحجم السماء. استدارت نحوه وقالت:

- حسناً، يبدو الطلب سليماً ولكنني لم أتمكن من العثور على لائحة الشهود المصدّقة!

غاصت يُمناه في قاع الحقيبة الجلدية مجدداً كي تستخرج مجموعة أخرى من الورق. مررها بهدوء قبل أن يُردف:

- ها هي اللائحة.

تناولتها "نوال"، وقبل أن تتمكن من التمعن بها قاطعها أزيز متقطع. على منضدة الخشب الفاخرة، كان هاتفها يتمايل بغُنج لا مثيل له، فاعتذرت السيدة بابتسامة وهي التي منذ الصباح كانت تنتظر رغبة لتسقط عليها من السماء. ماء كما المزن تساقط عليها جلياً، ماء هطل ليسقي رجاءها، فكانت رسالة نصية قادمة من فارسها. بلهفة، استعرضت المرأة ما جاءها بقلبها لا بعينها:

- هل تمنيتي أن أكون الآن في الجهة المقابلة من الطاولة أُقدم لكِ قبلة حارة على هيئة حجة استحكام؟

ازداد حجم ابتسامتها كثيراً وهي تبعث له رداً يليق باهتمامه:

- ربما
- ولنلتقي في غضون نصف ساعة، فأنا أدين لكِ بموعد!
- "بيرناندينو كافيه"؟
- "ساڤيني"، فنحن بحاجة إلى بعض من عزلة!
- حسناً.
- أراكِ قريباً

أتمت "نوال" محادثتها الإلكترونية قبل أن تلتفت صوب الرجل الذي راح يتأمل الكثير من المستندات المتراكمة بين يديه. بدورها التقطت مجلداً أسود اللون من رف جانبـي ووضعت به كُل الأوراق التي قدّمها الدكتور لها. وما أن أودعت الأمانة مظروف السر، حتى وضعت على جبين المظروف ملصقاً أبيضاً كتبت عليه بوضوح "سري ومهم جداً". التفتت "نوال" إثر ذلك صوب الرجل باسمة ثم قالت له:

- في المرة القادمة أبعث معاونك الخاصة بديلًا عنك.
- "فارس"؟
- أجل، فرجل كمثلكَ لا ينبغي له أن يتكبد عناء هذا القدوم مجدداً.
- سأفعل ذلك حتماً.
- تلعثم الرجل كثيراً قبل أن تتدافع الكلمات من ثغره في هيئة سؤال:
- 950؟
- أجل.
- شكراً بحجم السماء.

قالها الرجل بسعادة جليّة قبل أن يقف على قدميه تماماً ليصافحها مودّعاً. ثوان معدودات لزمته كي يسلك المسار المؤدي خارجاً، وثوان أخريات لزمته كي يسدل الستار خلف الكثير الكثير جداً من التجاوزات الغير قانونية. أما "نوال" فقد لزمها الأمر ثانية واحدة فقط؛ لتتناسى تماماً كل الأحداث الواقعة بين السابعة صباحاً والآن. بكل سهولة أعادت تثبيت نظارتها الشمسية، حملت هاتفها وحقيبتها اليدوية، ثم غادرت مكتبها بلا استئذان.

قليل من الوقت مضى حتى هبطت "نوال" إلى المرآب الخاص بالمبنى واستقلت سيارتها الفاخرة متجهة إلى مكان اللقاء. حيث الزاوية الغير بعيدة عن مقر عملها، شدت امرأة الظهيرة رحالها، وغادرت بصحبة لهفتها لتلتقي ذاك الذي ابتعد كثيراً ليقترب منها.

"كافيه ساڤيني".. إنها تذكر جيداً كيف أن المطاف انتهى بها للمرة الأولى في هذا المقهى الفاخر، وتَذكُر جيداً كيف اصطحبها "فارس" إليه كي يثبت لها أن في الهواء حياة كاملة. أخذ بيدها ذات مساء، سار برفقتها حيث النساء تتأمل النسمات، وحيث الرجال يركضون بمخيلتهم في مستهل الريح، ثم أيقظها من سباتها العاطفي فجأة.

إنها تذكر تماماً تلك الطاولة بينهما، وتلك القهوة التي اختبأت بين يديها. تذكر لحظة أن حمل "فارس"

إليها ثمة كوب، ولحظة أن استشعرت دفئه، ولحظة أن طبعت على أطرافه أحمر شفاهها. ولكن أكثر اللحظات تردداً في ذاكرتها، هي تلك التي أرادت فيها أن تمرر أصابعها على أثر شفاهها المطبوع لتزيله، فالتقط الفتى كفها بكامل حنانه كي يطبع عليه قبلة. هي اللحظة التي تدفّق بها ذاك القدر الهائل من الأدرينالين، واللحظة التي طرق فيها النبض أبواب صدرها، واللحظة التي هطل فيها صوت "لوتشانو باڤاروتي" ليذكّرها، بأنه "ما من أحد يجب عليه النوم"، وما من عاشقة يمكنها العيش بلا فارسها !

جسر كإسورة تلتف حول معصم الرمال، سلكته السيارة قبل أن تسلك معبراً أو معبرين آخرين. يمّمت "نوال" وجهها، مضت، إنها فقط مضت نحو مستهل سعادتها. سارت بمركبتها كثيراً حتى توقفت مباشرة أمام الباب الزجاجي لمكان اللقاء، فهرع صوبها شابٌ آسيوي برداء أنيق وربطة عنق سوداء؛ ليفتح لها بابها. خصلات شعره السوداء بدت لامعة تحت اتساع ضوء الشمس، وثمة عبارات ترحيبية سقطت من بين شفتيه بإيطالية مُتقنة:

- مرحبا بكِ في "ساڤيني".

حملتَ "نوال" غرورها وحقيبة يدها أيضاً، ثم سارت باتجاه المدخل المؤدي إلى موعدها. وما أن همت بالدخول، حتى اقترب منها شاب آسيوي آخر ليقودها إلى الطاولة الوحيدة، وإلى مقعدها. بجوار الكثير من الفراغ، جلس "فارس" بهدوء؛ حتى يرقبها من خلف الزجاج وهي تثب بأنوثة صارخة، قاطعةً المسافة بين الباب وقلبه. اقتربت منه، فنهض لملاقاتها. إنه ربما أراد أن يعانق الهواء ليُضرم في جسدها حباً، ولكنه اكتفى فقط بمصافحتها، فهو لم يشأ أن يضع امرأة مثلها في مأزق العناق الطويل، ومأزق السقوط في عميق خجلها.

هنا للهواء نبض، هنا للقدوم غيم، هنا جلس العاشقان سوية يتقاسمان الحب على مهل. يمر عليهما النادل، يستفتيهما، فيجيب كلاهما:

- "رستريتو إسبريسو" !

يغيب النادل، يغدو العاشقان وحيدين مجدداً، فيهتف الفارس مازحاً:

- ذاكرتي الماكرة لا تحفظ سوى قبلتك الأخيرة!

ولأنه ما من مفر من تلك الشفاه، أسقطت "نوال" كفها عمداً في فخ يديه الناحلتين. فتأرجحت حشوة صمتها في غمد الموسيقى التي عَمّت المكان، وأغدق الفارس قُبلة على كفها:

- حقاً، أصدق القُبلات تلك التي تأتينا مع صوت الموسيقى.

هتف بها العاشق وهو يرقبها تهنأ بالقبلة الموشومة أبدياً على ظهر كفها. وقبل أن تهم هي بالانسحاب من مصيدة القبلات، رسم على كفها وشماً آخر، وزيّنه بكلمات الغزل، فأصبحت الموسيقى وحدها شاهدةً على فصول لقائهما.

عاد النادل مجدداً ليقف هذه المرة في المساحة الفاصلة بين النافذة والطاولة. بقامة ممشوقة وضع كوبيّ قهوة ثم غادر على عجالة؛ كي يُفسح المجال للشمس أن تُعاود عبور الطريق المجاورة بكعبها العالي،

وأن تلقي بظلها مرة أخرى من بين الزجاج.

تخلى "فارس" فجأة عن يد نواله فحامت أناملها بضياعٍ غير مبرر حول كوب قهوتها. وقبل أن تُدرك "نوال" سر تلك الحركة الدائرية، لجأت يدها إلى علبة زجاجية مليئة بمغلفات السكر لتنتقي مغلفاً أبيضاً، فباغتها "فارس" بسؤالٍ وهو يلتقط مغلفاً أيضاً:

- من بين كل الألوان، اخترتِ الأبيض. هل يعني لكِ هذا اللون شيئاً؟

- إنه رمز النقاء والحرية والسلام.. ترتديه العروس في يوم زفافها لتشير إلى العُذرية التي ستُسلب منها، وتستخدمه الفتيات الساذجات لوصف الأحلام التي سوف لن تتحقق. الأبيض، إنه لون الخداع، لون الحنين، لون اللقاء، ولون الوداع كذلك.

تُفرغ "نوال" جُل محتويات المغلف في كوبها ثم تتابع بذات النبرة:

- إنه اللون الذي تتصف به الحياة، ولون الكفن الذي تُلف به الروح حين تغادر الجسد أيضاً.

تتذوق القليل من المشروب المخبأ في الكوب، فتكتشف متأخرة أنها كانت بحاجة إلى المزيد من السكر. تلتقط مظروفاً أبيضاً آخر، تفرغ محتويات في الكوب كذلك، ثم تقول بإصرار عجيب:

- شخصياً، أنا لا أؤمن بفرضية الألوان، ولكن اللون الأبيض يذكرني كثيراً بأمنية سُلبت مني ذات حين، وها أنا الآن قد استعدتها!

ارتسمت على شفتي الشاب ابتسامة وهو يُمعن النظر في المغلف الأحمر الذي بين يديه. قَلّبه جيداً بين يديه، أفرغ محتوياته في الكوب الذي أمامه ثم سألها:

- وماذا عن اللون الأحمر؟

- اللون الأحمر يرمز كثيراً للحب، للعاطفة، للرغبة، للنشوة وللاشتهاء أيضاً.. هل يعني لكَ اللون أحمر شيئاً؟

امتدت يده اليمنى ليقطع المسافة الفاصلة بينهما، وليرفع بهدوء كوب قهوتها. أداره بحركة دائرية، فتَجلّت آثار أحمر الشفاه المطبوع على حافة. اقتفى آثار شفتيها بعينيه ثم قرر أخيراً أن يُجيبها وهو يرتشف بعضاً من قهوتها:

- اللون الأحمر.. إنه يعني لي المرأة التي اختارها قلبي بعناية كي تكون لي كل الألوان. إنه اللون الذي يصف المرأة التي أجدها في قش ظلي إبرةً من نور، والمرأة التي عيناها كفتي ميزان تُطفّفان بوجودي!

- أنا لا أفهم جيداً كيف لقلبك أن يصطفيها من بين النساء، فشابٌ بمثل بهائك وحيويتك يملك الكثير من الخيارات.

وضع "فارس" شفتيه على أثر شفاهها تماماً، وتذوّق الكثير من القهوة في محاولة منه لإعادة ارتكاب جريمة الصمت. بدا في ذاك الحين وكأنه كان يبحث عن إجابة يسرقها من الواقع المحيط به. استدار ليلقي نظرة من خلال الزجاج على ما كان يعبر من السيارات، ثم التفتَ صوبها ليهديها إجابة مقنعة:

- بعض النسوة سيارة رياضية ذات باب واحد، باهظة الثمن، وتمشي مختالة بين النساء. أحمر الشفاه سيارة "فيراري"، تسريحة الشعر مموّجة ببهاء، والمزاج قابل للتبدّل بسرعة مئة كيلومتر في الثانية. ضيّقة المساحة،

لا تتسع لأمتعة الحياة، وبالرغم من أنكِ قد تُنفقين من أجلها الكثير من المال إلا أنكِ تعلمين جيداً أنها ما خُلقت لتهنئي بها طويلًا.

وثمة نسوة كسيارة الـ "بـي إم دبليو"، مقاعد جلدية عريضة، وعينين براقتين يصعب مقاومتهما. غطاء المحرك فمٌ مزدانٌ بأسنان لبنية مرتصة، والجبين زجاجة أمامية تكشف كل بهائها. تتمادى في المسافات بصوت هادئ، لا تصدر صوتاً ولا تتبنى شريعة الضوضاء. صامتة في معظم الأحيان ولكنها إن تحدثت أسمعت حياً. قد تبدو خياراً منطقياً حين التعاطي معها للمرة الأولى، ولكنها في حقيقة الأمر أكثر تعقيداً مما ينبغي. وقد يتطلّب منكِ الأمر أن تقومي بقراءة كُتيب الإرشادات أكثر من مرة كي تُحسني التعامل معها.

وبعض النسوة سيارات "تويوتا" زهيدة قد خرجت للتو من ورشة الإصلاح. على جانبيها كثير من الطلاء ليستر ما بها من صدمات. وعلى جبينها قليلٌ من الغبار الذي يصف ما مرت بهِ من معاناة. ربما قد ينتقيها البعض لكونها عمليّة ولا تتطلب قدراً مُفرطاً من المال للعناية بها، إلا أنكِ وكلما وقفتِ أمامها تذكرتِ أن سقف أحلامكِ منخفض للغاية!

تذوّق الشاب قليلًا من السواد المخبأ في الكوب ثم تابع:

- وطيفٌ من النساء مثل سيارات الإعلانات المتنقلة، تجوب الطرقات لتُشيع الأخبار. بكل الثرثرة تقطع المسافات، تشي بما يتناقله الجميع من آخر الأحداث، وكأنه لا شأن لها إلا ما يتداوله الناس. عويل محركها لا ينبض سوى بآخر الأنباء، شائعات كانت أم أكاذيب.

وثمة طيف آخر منهن مثل سيارات الـ "هَمَر"، مدرّعة لا بل مفخّخة بالحديث ومزوّدة بمدفع رشاش. إن استفاقت، هطل من ثغرها سيل الشتائم وأبشع الكلمات. ضوضاؤها يتهادى لمسامعك من على بعد كيلومترات، ومتانتها المهابة تحذير لكل من حولها بأنها قادرة على شن حرب في لحظات.

وهناك من النسوة من لا عتب عليهنّ ولا عتاب. شاحنة عملاقة لا بل قاطرة تجّرُ خلفها مقطورات. بدينة بطيئة، تسير لتحمل معها أطناناً من الهمهمة والضجيج والإزعاج. تعمل من دون تبريد، وتسير بكل أصناف المحروقات؛ حتى تؤذي الأعين والقلوب والأسماع، فارعة الطول، وحجمها يناهز اتساع الفضاء. يخافها العابرون، يهابها السائقون، ومكتوبٌ على ظهرها "قابلة للإشتعال فاحذر الاقتراب".

تغرق "نوال" في قهقهة مطولة بينما يشرع "فارس" في ارتشاف الكثير من القهوة. تهرب عيناه مجدداً باتجاه الزجاج المجاور، تقعان على سيارة الـ "رولز رويس" الفاخرة، فيكمل حديثه وهو يمعن النظر خارجاً:

- أنا أبحث عن امرأة ما، فاخرة لا تشبهها أي امرأة أخرى. تسير في الشارع، يتعقبها الجميع بأنظارهم، يتمنّونها، وما من أحد ليحصل عليها سواي. باهظة الجمال، فاتنة حد الدهشة، وإن قطعت المسافة بين نقطتين تبعتها كُل عبارات التمني. امرأة لا تشيخ، ولا تكبر، بل إنها في كل ثانية تنضج. إنني أبحث عن تلك التي إن وقفتُ أمامها، استدار نحوها كل شي بـي، وإن ولّت وجهها صوب الرحيل، تيمَّمَت باتجاهها كل خلية في جسدي.

يستدير "فارس" صوبها كي يُملي عليها غايته وهو الذي مع الحديث راح يتأملها:

- أنا أبحث عن امرأة لا يرتهن قرارها لدوران الأرض حول الشمس، ولا لدوران الأرض حول نفسها. يومها

نصفه عشق والنصف الآخر نهار لا غروب له. صيفها بارد، شتاؤها دافئ، امرأة لا تسقط في الخريف، ولا يتبرأ منها الربيع أبداً.

ازداد "فارس" قرباً من الطاولة ثم التقط كفيّ "نوال"، وكأنه كان يريدها أن تعي جيداً ما ينوي قوله:

- أنا أبحث عنكِ.. أنا أريدكِ أن تكوني لي!
- ربما حين نلتقي في زمان آخر أو في مكان لا يسكنه غرباء يعرفوننا.. ربما سيمكنني حينها أن أكون لك.

تجمّد الشاب أمامها بلا أية ملامح بالرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي يستمع فيها إلى جوابها هذا. تجمّد الشاب على الجهة المقابلة من الطاولة وقلبه مثل مالك الحزين، يقف على الخيبة بساق واحدة. تَمسّك بكلتا يديها جيداً، مثل طفل يحكم القبض على طائرته الورقية خشية أن تأخذها الريح منه، ثم أعاد النظر في عينيها؛ حتى لا يقصدها بحديثه، بل يقصد تلك المرأة التي تسكن بداخلها، فلعلها تكون أكثر تفهّماً منها:

- أنا لم أعد قادراً على تحمل المزيد من اللقاءات القصيرة ولحظات الوداع. أنا أريدكِ أن تبقي معي وبجواري سنوات وسنوات!
- من منا لا يريد أن يبقى بجوار الآخر، ولكني مقيّدة بتفاصيل الحياة تماماً، ولا أعرف كيف سأتنصل من هذه الأصفاد؟
- أخبرتكِ مسبقاً بأنه يمكننا أن نترك كل شيء خلفنا، أن نتخلى عن هذه المدينة سوية، وأن نتخلى أيضاً عن هذه البلاد؟
- كيف لي أن أترك زوجاً وعائلة وأصدقاء؟
- هل تقصدين زوجك الغائب، وعائلتك المختبئة، وأصدقاءك الذين سرقتهم المسافات؟
- إنهم سوف يعودون جميعاً ذات يوم.
- كلهم هناكِ إلا نحن.. أنتِ أنايَ وأنا أناكِ.. فأيننا؟

أعاد التعلّق بها جيداً، ثم قال:

- يا زهرتي لا تعتني بجذوركِ كي يمكنك البقاء حرة.

تعلم "نوال" جيداً أن لا شائبة تشوب حديثه، ولكن، أي امرأة هي تلك التي ستقوى على الهروب هكذا دون أية مقدمات؟ إنها وبرغم توفّر كافة مقومات الرحيل لديها، إلا أنها لا تملك تلك الجرأة اللازمة لحزم حقائبها، ولا تملك الجرأة اللازمة لمواجهة العقبات. وحتى لو تحلّت بهذه القدرة العجيبة على التمرد، كيف لها أن تسلك درباً لا يحتمل للعودة أي خطوات؟

نفضت "نوال" غبار الأفكار من رأسها، سحبت كفيها بهدوء من راحة يديه، ثم همست:

- أنا لا تسكنني هذه الشجاعة.. أنا لا أجيد الهرولة في المسافات!

بالرغم من أن تلك الإجابة قد جاءت مخيبة للآمال، إلا أنها كانت متوقعة للغاية، فلم تكن تلك هي المرة الأولى التي يبدي فيها "فارس" رغبته في الرحيل معها صوب الكثير من الأحلام، ولم تكن تلك أيضاً المرة الأولى التي يتلقى فيها ذاك الاعتذار. لذا، لم يستلزمه الأمر كثيراً من الوقت؛ كي يستعيد توازنه ويستفيق

على صوت الحقيقة.

بحذر تناولت "نوال" حقيبتها اليدوية، وكأنها لم تكن تنوي أن تجرحه برغبتها في الرحيل. التقطت من يده كوب قهوتها، ارتشفت ما تبقى به سريعاً، ثم نهضت من بين المقاعد قائلة:

- يتوجب عليّ أن أرحل الآن.

فجأة أصابها زهو لّما تعلقت يده بمعصمها وكأنه أراد لها أن تبقى ولو قليلًا. نظرت إليه "نوال" لترقب ابتسامة حانية وهي التي دخلت طقس الشغف منتشيةً:

- سنلتقي فيما بعد.. يتوجب عليكَ المغادرة أيضاً، ولكن احذر الشمس فقد تقضمُ ظلك!

قالتها وهي تُهديه قُبلة السبابة على الجبين. امرأةٌ من قارة مجهولة أتته ذات ظهيرة؛ كي تشاركه كأس القهوة المخلوط بالريبة، وكي تبادله الأعذار الممزوجة بالتحية الدافئة. تآمرت مع الوقت عليه، فغادرته سريعاً دون أن تستدير للخلف ولو لثانية. غادرته وهي تعلم جيداً ما يفعله الرحيل المفاجئ بشاب لا يعرف من النساء سواها.

بذات القامة المشوقة التي جاءت بها، سلكت "نوال" طريق الوداع. غابت في منتصف الظهيرة، ولم يبق من بعدها سوى ذاك الكوب الذي تركته للتذكار. لربما أرادت أن تلتقي فارسها في زاوية الحنين مرة أخرى، عندما تشير ساعة اللهفة إلى الواحدة عشقاً، ولكن إن فعلت ذلك، فهل سترحل عنه بذات السرعة حينها؟

الفصل الثامن: وعندما تموت الأجوبة.. من منا لا يؤجله السؤال؟

- أنتِ لم تحبيه يوماً، بل أحببتِ فكرة البقاء بجوار شابٍ يعينكِ على زيارة السعادة كلما دعت الحاجة!

قالتها "عبير" وهي تتمدد بدلال على أريكة المساء، فكانت "نوال" بجوارها كامنة في شعاع الصمت، وهي تحتسي بعضاً من مذاق الشاي. وبالرغم من أن الأخيرة قد بدت منهمكة في ما راحت تحتسيه، إلا أنها كانت منصتة لما كان موجّهاً لها:

- تشعرين بالإغواء في فمك كقطعة سكر، وأنتِ المرأة التي لم تعرف طعماً كهذا من قبل. ذلك الفارس، إنه لذيذٌ جداً كلما وَضعَ قبلة على شفتيّك، لذيذٌ جداً كلما ترك عليهما علامة، ومن منا لا تريد أن يستقبلها رجل بهذه الحفاوة؟!

تتلعثم "عبير" قبل أن تشرع في بعثرة المزيد من الكلمات:

- أنتِ لم تريديه ذات يوم.. صدّقيني.. بل أردتِ استعادة لحظات السعادة التي نهبها زوجكِ منكِ. أرد شاباً يستعرض لكِ كل المشاهد الممكنة في مسرحية الحياة؛ حتى تنتقي منها مشهداً أو ربما مشهدين، فتكونين له البطلة، ويكون لك المتفرج. تتقمصين دور العاشقة، تُمثّلين عليه العاطفة، فيقف من أجلكِ في النهاية ليصفّق.

- الذنب ليس ذنبي إن أراد بطوعه أن يجلس في الصف الأمامي أو أن يشاهد.

- ولكن الذنب ذنبكِ لا إن أداءكِ كان استبداديا. امرأة كأنتِ تملك القدرة على رسم نهاية سعيدة لمسرحية الشقاء تلك، ولكنكِ اخترت أن تكون خاتمة كل مشهد بداية أخرى. يا ترى كم من الوقت يلزمكِ حتى تُدركي أن ثمة الكثير من المسرحيات التي يمكن لشاب مثله أن يشاهدها؟ مسرحيات بعضها غنائي، وبعضها غزلي، وبعضها فكاهي، وبعضها أيضاً مجاني، فما الذي سيمنعه من مشاهدتها كلها؟

غاب السؤال كثيراً في حلق المتحدثة التي حملت بين يديها كُراساً من ورق الـ "كونسون"، ثم أخذت ترسم بالرصاص كل التقلبات الجوية في ملامح صديقتها. لقد اعتادت "عبير" في كل زياراتها، أن تأتي محمّلة بما يعينها على إعادة تصوّر الكون من حولها. أقلام رصاص، أحبار سرية، وصفحات بيضاء، هو كل ما كان يلزمها حتى تستنتج، وفي كل لقاء، أن الوجود لا يمكن التعبير عنه إلا بالرسومات، وأن المرأة التي تجلس أمامها لم تكن مطلقاً موفّقة في اتخاذ القرارات:

- ما الذي يمنعكِ من أن تختاري العيش بجوار رجل يريدكِ فعلًا؟

سألتها "عبير" بجسارة دون أن تُبعد عينيها عن الورق، فجاء الجواب سريعاً على غير المعتاد:

- زيجة مرتبكة!

- تخلّصي منها.

- ولكن ماذا عن الذين من حولي؟

- خمسة وثلاثون عاماً من التضحيات كفيلة بإرضائهم جميعاً. لأجلهم تقمصتِ دور الابنة المطيعة، ودور الأخت الساذجة، ودور الزوجة المثالية، ودور المرأة التي تسير في ظلال رجالٍ حتى لا تتبع رغباتها.

- وماذا عن القيود الاجتماعية؟

- المجتمع يا عزيزتي أشد جُبناً من أن يفرض سطوته على امرأة مثلك، سيدة تتبوأ منصباً رفيعاً، وتملك

الوفير من المال.

تبنّت "عبير" شريعة الصمت لثوانٍ معدودات، وكأنها كانت تجسّ نبض الحيرة في عيني صديقتها، ث أردفت:

- تملكين من المال والعلاقات الاجتماعية ما هو كفيل بطي صفحة حياتك الحالية وصنع حياة جديدة. فما المانع في أن تخلعي زوجكِ ماضياً لا تعتدّ به الأيام؟ ما المانع في أن تضعي ما مضى من حياتكِ في زجاجة، وأ تلقي بها في عباب النسيان؟

- أنا لست جريئة بالشكل الكافي!

- ما من عائلة ممتدة لتقف حجرة عاثرة في طريقك، ما من أقرباء، وما من أطفال كي تخشين عليهم من تبعات الانفصال. عزيزتي، أنتِ المرشحة المثالية لمنصب مطلّقة العام.

ابتسامة خافتة طغت على شفتيّ "عبير" حين راحت ترسم صديقتها بلا ألوان. خاطبتها، تحدثت إليها، سامرتها، ثم طفقت تقتبس ملامحها بكل إتقان. تلك التي اجتبتها الحياة، إنها صديقة مقربة، أسندت موهبتها على جبين الكراس لتنسخ وجودها. وذاك الذي نـزف على الورق، إنه لونٌ رماديٌ، استشهد بكل التدرجات ليُبرّأ ذمتها. دقائق تمضي، صمت يسري، وقلم رصاص يجري، فمن ذا الذي كان يطاردهم ذات مساء؟

لوهلة بدا كل ما في الحجرة متحركاً، إلا "نوال"، وحدها كانت ثابتة بخلاف ما حولها. ولأن جمودها لم يكن متوافقاً مع الأجواء المحيطة، اقتربت بدهاء، وأخذت تنظر إلى انعكاسها المطبوع في مساحة بيضاء. انـزوت بلهفة، انسدلت بخفة، فلمحت امرأة تتمدد بعذوبة الماء، ولمحت أيضاً شفتيها المبللتين بالانحناء:

- هل أبدو في الواقع حزينة هكذا؟

سألت "نوال" صديقتها التي تمايلت يدها بحركة مقوّسة لتُحيك دمعة أشبه بندبة على الخد الأيسر، لا بل لتحيك جرحاً غائراً يصقل الألم المقدس. وما أن انتهت "عبير" من إضافة ظلٍ لتلك الدمعة، حتى أجابت بهدوء:

- في شرايينك تسري كل أصناف الحزن، كريات من الدم بعضها حمراء، وبعضها بيضاء، وبعضها سوداء. قفي أمام المرآة، انـزعي عنكِ كل الحلي والجواهر، وسوف تشاهدين نفسكِ بجلاء، أنثى بين الأرض والسماء معلّقة، أنثى لا يليق بها سوى الشقاء.

تصمت "عبير" قليلًا قبل أن تتابع:

- أعتقد أنكِ ستموتين مبكراً.
- أنا؟
- بائسة، يائسة، أجل سوف تموتين مبكراً.
- ولكن لماذا؟
- لأنكِ تتناولين كل يومٍ أطباقاً من الحزن الكثير الدسم. لذا، سوف تموتين بجلطة الحزن لا بجلطة القلب!

غرقت "نوال" في ضحكة طويلة باطنها شفقة على حالها، بينما واصلت "عبير" حديثها:

- أنتِ نحيلة جداً، ولكنكِ يا عزيزتي بحاجة إلى حمية عاطفية، وبحاجة إلى حرق الكثير من دهون الأحزان.
- أفضل أن أعيش في هذا الشَجو بدينة، فلو انتقص وزن أحزاني، ستتغير ملامحي كثيراً، وستبدو سعادتي شديدة الضمور.
- إني أخشى عليكِ من السُعرات الحرارية الزائدة.
- حتى ولو تخلصت منها، من ذا الذي سيتعرّف عليّ في مجاعة الفرح؟ من ذا الذي سيميّزني حين أكون نحيلة المسرّات؟
- ومن ذا الذي يميّزكِ الآن في ترهّل الكُرُبات؟

تتخلى "عبير" عما في يدها، تنتقل للجلوس بجوار صديقتها، فتتكوّم الإثنتان جنباً إلى جنب. تسند أُولاهن رأسها على كتف الأخرى، وتقول الأخيرة بصوت يطغى عليه الثبات:

- ها هي السعادة تطرق أبواب قلبكِ. ثمة رجلٍ في الجهة المقابلة. افتحي له الباب، اقطفي منه معانقة حارة، دعيه يحمل عنكِ حقائب الهجرة، وحين تسيرين معه على ضوء الليل، احتمي به في ظلمة النهار، فما من شيء أشد جمالًا من أن تستنفذي مدخراتكِ من العمر مع ذاك الذي يريدكِ بالجوار.

لا ترى "نوال" بعد أمواج التوبيخ تلك سوى رغبة بالغرق في بحيرة الصمت. تُمعن النظر في شبيهتها المتمددة باللون الأسود، ثم تطهو تأملاتها في إناء الحيرة. الشعر القصير ذاته، الأنف المرتفع ذاته، وشامة الحب ذاتها، أي بارعة هي تلك التي نجحت في أن تستنسخ نواتها؟ ورغم التجانس في الصفات، لم تكن الصورة مطابقة للأصل. شيء ما كان أقل حضوراً، شيء ما كان غائباً عن تلك النسخة الكربونية:

- هذه المرأة لا تشبهني!
- لم لا؟
- إنها تفتقر إلى ذاك الشيء الذي لا أستطيع وصفه.
- أي شيء؟

استقامت "نوال" في موضعها، ثم سارعت بأخذ يد صديقتها وهي تهتف:

- تعالي معي لتشاهديه بنفسك.

حملت "نوال" يد صديقتها وسارت بها مسرعة صوب الطابق العلوي. بعيداً عن حجرة القهوة والشاي، نسوة تسلقن الدرج خفافاً، وكأنهن فتيات لاهيات في مرابع العيد. صعدن، ثم هرولن، وربما لبضعة ثوانٍ ركضن، ولكنهن في نهاية المطاف بداخل حجرة للملابس توقفن.

وبخلاف خزائن الملابس، تستخدم "نوال" وزوجها هذه الحجرة البيضاوية الشكل لتخزين حقائب السفر الباهظة الثمن، ولحفظ الملابس التي قلما يرتدينها. هذه الحجرة، وفي واقع الأمر، إنها مجرد مساحة شاسعة من الرفوف الخشبية المزدانة بقطع الحرير الفاخرة، والثياب الملونة، والأحذية المرصوصة باهتمام هال.

حيث بهاء النجفة التي تدلت في منتصف الحجرة، وحيث الطاولة المستديرة التي حملت زهور الزنبق، انتهت رحلة السيدتان:

- ها هي!

هتفت بها "نوال"، وهي تستخرج حقيبة مستندات مخبأة بعناية. "لوي فيتون"، وخمسة عشر إنشاً من الجلد الأسود المقسم كرقعة الشطرنج، راحت يد المرأة تحوم كثيراً في تجاويفها قبل أن تستخرج مظروفاً كبير الحجم. حملته "نوال" بعناية، نثرت محتوياته على سطح الطاولة المستديرة، فانسدل كمُ هائل من المناديل الورقية. تفحصت "نوال" إحداهن قبل أن تقدمها لصديقتها وهي تقول:

- في كل مرة يغادرني "سعد" يعود إليّ محملًا بالمزيد من هذه المناديل.
- أوه!
- لقد عثرت عليها مصادفة قبل عامين أو يزيد.

مررت "عبير" سبابتها على أثر أحمر الشفاه المطبوع على جبين النسيج، وكأنها كانت تنوي أن تتحسس آثار الابتسامة. طافت أصابعها حول الأركان الأربعة للمنديل، تحسست حدتها، فاصابتها رعشة كانت كفيلة بأن تجعلها تسارع بوضع القطعة على طاولة الخشب. ورغم ظاهرية ذاك الشيء الذي سرى بها، ناولتها "نوال" ذات القطعة مجدداً، قرّبتها من أنفها ثم قالت:

- "شانيل نمبر فايف".. استنشقي الرائحة!

تنفست "عبير" تلك القطعة بحاسة القلق لا بحاسة الشم، فكان العطر في قسوته قوي المفعول. وما أن هامت بالاكتفاء، حتى ناولتها "نوال" قطعة أخرى وثالثة ورابعة:

- "توم فورد بلاك أوركيد".. "بولغاري جازمين نوير".. "كوكو شانيل" !

تحسست "عبير" الخيانات المعطرة قبل أن تعيدها إلى صديقتها التي بجوارها، فكانت "نوال" تخبئ بكبرياء الجرح آثام زوجها دون أن تكف عن سرد معاناتها:

- أنا لست مستاءة من خياناته المتكررة، ولست مستاءة لأنني أعلم تفاصيلها، أو أين يخبئها، أو بأي رائحة يشتهيها. ما يؤلمني فقط هو أنه قد سرق مني روائحي المفضلة وأهداها في الخفاء لغيري. إنه كسرني وكسرني كثيراً، فمن سيعيد لي الآن شذا كبريائي؟

ربما قد نجحت "نوال" فعلًا في أن تخفي دمعتها حين أشاحت بوجهها صوب الجهة الأخرى، ولكنه فشلت تماماً في إخفاء نبرة الهزيمة التي اجتاحت صوتها. كافحت كثيراً من أجل أن لا تخدش غرورها، راحت تعيد المظروف إلى مكانه، ثم استطردت بجرأة مطلقة:

- قبل عامين كان في المظروف إثنا عشر منديلًا، وبعدها بعام ازدادوا ضعفين أو ربما ثلاثة أضعاف. أما الآن، فما عُدت قادرة على حصرها. ما عاد يمكنني أن أحصيها، فقلبي لا يقوى المواظبة على عد الخيانات بهذه السرعة الفائقة.

استدارت "نوال" كي تخبئ الحقيبة الجلدية في موضعها بين تلك الرفوف دون أن تتوقف عن الحديث:

- أعتقد أن علاقتي بـ "فارس" هي ليست مجرد مشاهد مطوّلة في مسرحية قصيرة، بل إنها ردة فعل منطقية لهذا الكم الهائل من القبلات المنهوبة، ومحاولة يائسة لاستعادة ما سُرق مني على حين غفلة. إنني أملك بداخلي رغبة في الفرار فعلًا، ولكنني لا أعرف كيف يمكنني أن أكون معه هاربة.

- إذاً أنتِ لا تملكين الإعتذار ولا الفرار!
- أنا امرأة هشة لا تجرؤ على الرحيل أو الانسحاب. لا المناديل المعطرة ولا القبلات الضائعة قادرة على دفعي لعبور البوابة المؤدية إلى الإنعتاق.

تقهقه "نوال" هازئة من خيبتها، ثم تخاطب نفسها بكل مفردات اللوم:

- أنا لم أتمنى يوماً أن أكون بجوار زوجي.. فما الذي يجعلني غير قادرة على تركه الآن؟

التقطت "عبير" صديقتها التي انهارت على صدرها. عانقتها جيداً حين ضجت الأدمع، وحين حام الشهيق، فكان صهيل البكاء خافتاً أو غير مسموع. "نوال"، التقطتها صديقتها حيناً، والتقطت معها امرأةً لم تعتد أن تحني رأسها:

- تباً لغيره من الرجال.

تنهدت "نوال" بحرقة، حاولت التعبير عما بداخلها، لكنها أدركت شح الكلمات، فسارعت بلملمة دمعها، وسارعت بجمع أطراف سقوطها. أما "عبير" فقد تخلت عن صديقتها ثم التفّت حول نفسها، وكأنها كانت تبحث عن شيء ما. تأملت حقائب السفر المتعددة، انتقت منها واحدة، ثم بسطتها على الأرض قبل أن تحوم في تلك الحجرة بشكل دائري لتلتقط من على الرفوف كماً من الأحذية والثياب.

وما أن أتمت "عبير" مهمة الانتقاء تلك، حتى أحكمت إغلاق الحقيبة ثم أعادتها إلى مكانها وهي تخاطب صديقتها بلهجة حازمة:

- فتشي جيداً عن مبرر للرحيل. وحين تعثرين عليه، احملي تلك الحقيبة التي خبأتها لكِ وغادري. فما من شيء هنا يستحق لأجله البقاء!

الفصل التاسع: السعادة.. لا يمكن تحديد مكانها بدقة

في صباح شبه جاف، وقف رجل مطوّلًا أمام صف الانتظار حتى حان دوره للاطلاع على قائمة للدعاوى. هناك خلف الحشد، راح يرتب رجاءه، أغلق كل الأمكنة في ذاكرته، ثم قرر البحث في اللائحة المكتظة بالأسماء. بحرص واهتمام، راح يمرر سبابته على صدر الورقة، تحسس نقش الحبر، فعثر على اسمه في أعلى القائمة.

بكثير من المخاوف عبر البوابة يميناً، وبقليل من اليقين كان الرجل رهيناً. سار بتردد مفرط، قطع المسافة القصيرة، واشتكى انحدار الأرض التي لم تكن له معيناً. ولأن جبين قلقه تبلل فجأة، حاول أن يجففه كي يبدو رصيناً، ولكن ورغم المحاولة، كل من في القاعة رأوه، كل من في القاعة قرؤوه كتاباً مبيناً.

تبوأ الرجل مقعده، وحاول أن يفك طلاسم الصمت حين زجت به الحياة في قاعة للمختصمين، فما كان بمقدوره سوى أن يتجمد في موضعه لبرهة، وأن ينصت للنداءات التي لم يكن لها أي رنين. ولما كانت إحدى النداءات تخص قضيته، تخلى الرجل عن مضجعه، ثم عبر الجمع المحتشد بين شك ويقين.

يعتصم الرجل بالصمت والدعاء، فيعينانه على العبور نحو منصة اعتلتها "نوال". ثمة جسور لم تقطعها سوى نظراته الحائرة، كان يرمق المرأة الغارقة في كومة ورق، وكانت بدورها ترمق تفاصيل قضيته الشائكة. يتابع المسيرة، يتوقف أمام المنصة مباشرة، فتشير له "نوال" بيدها حتى يجلس على المقعد المخصص للإدعاء. بجواره كرسي فارغ، بأطراف الأنامل يتحسسه، فيبدو الأمر وكأنه كان يحرسه، لربما هو بانتظار القادم الذي سيعينه. تتعلق أنظاره بذات البوابة التي دلف منها، فيكون الخشب مغلقاً، ويكون المقعد شاغراً، وتكون الأمنيات معلقة.

وحتى لا يطول اللقاء، جاء صوت "نوال" فجأة؛ ليوقظه من تلك التأملات:

- هنا دعوى مقامة من قبلكَ ضد الشركة المشغّلة لمشروع صيانة شبكات الصرف الصحي بالحي الذي تقطن فيه.

- نعم يا سيدتي القاضية. لقد تسبب إهمال الشركة في وفاة ابنتي التي لم تتجاوز العاشرة.

غرقت "نوال" في الشاشة الإلكترونية أمامها لتتفحص مذكرة الدفاع التي قدمها موكّل الشركة المدعى عليها. وقبل أن تُتِم إطلاعها، انفرجت البوابة الخشبية لتنسل من خلفها امرأة تكتسي بالسواد وتغطي جزءاً من وجهها بخمار. سلكت المرأة الطريق صوب المنصة بتمايل مشهود وبخطوات مترددة أيضاً، فالتفت جميع من في القاعة نحوها. ولما بدا ظهورها مُربكاً، شرع الرجل في تبرير تواجدها:

- هذه زوجتي. لقد وُلدت كفيفة، ولكنها لم تتوكأ ولو لمرة على عصا، أو تتحسس طريقها بعكاز. إنها لا تستند حتى عليّ، فهي تكره التبعية والاتكال. ماتت والدتها في اليوم الذي وُلدت فيه، فسماها والدها "شهيدة". وبغض النظر عن عماها، إنها يا سيدتي لا تعرف أياً من مرادفات الأحزان، ولكنها تحيي كل عام ذكرى ميلادها في أجواء لطم وعزاء، أسوة بكل المتهمين بسرقة أعمار أمهاتهم المديدة.

تتابع المرأة اختراق الصفوف بينما يستطرد زوجها كلامه:

- ولأنها كانت ابنة والدها الوحيدة، دأب والدها على إدانتها باغتيال زوجته العزيزة. إنه كان أكثر الناس كُفراً بها، وبنعمة البنات، وهي التي كانت تذكره بالخسائر العديدة. لا تتعجبي مطلقاً يا سيدتي، فذاك الذي رعاها كان يخبرها على الدوام، بأنها أكثر الأجزاء قُبحاً في حياته، وبأنها شامة كُربته الشديدة.

تقترب زوجته منه كثيراً، فيمد لها يداً كي يلتقطها، ويعينها على الجلوس بجواره. يربّت الرجل بيده على ظهر كفها ثم يتابع:

- كانت وحدها تتولى شؤون أبنائه، تطعمهم، وتغسل لهم ملابسهم، بالرغم من أنها كانت ضريرة. في واقع الأمر لقد توجّب عليها أن تتخلى عن تعليمها أيضاً؛ كي تتفرغ لإدارة منـزله؛ وكي تلبـي رغبته في أن تعمل لديه كجارية. هي التي بلا أي تذمر، تخبّطت كثيراً في الظلماء، من أجل رعاية أعبائها الشقيقة. كانت بالنيابة عنه تعتني بالأبناء، تدللهم، وتحنو عليهم، ولكنهم وبعد كل ذلك، تفرقوا في الحياة؛ حتى يحملوا اسم والدهم، وألقابه العديدة!

تتشابك أصابع الزوج بانسيابية فائقة مع أصابع زوجته، يتعلق بها كطفل يتعلق بدمية قطنية، ثم يسترسل:

- لقد قامت "شهيدة" بواجباتها الزوجية على أكمل وجه قبل أن تتزوج بـي. ولأنني لم أشأ أن أجعلها تخوض معركة المعاناة مجدداً، توليت أنا مهمة العناية بابنتنا الوحيدة. توليت مهمة أن أدلّلهما سويةً؛ كي تكبر طفلتاي أمامي، وكي تكبر معهما أمنياتي المجيدة.

يزداد الرجل تشبّثاً بزوجته ثم يتابع:

- كنا سعيدين جداً في بيتنا الهش. نحيا على طرف المدينة الشرقي، ونتقاسم رغيف الحياة سوية. ما كان لنا أن ندرك آنذاك الحجم الحقيقي لبؤسنا، لولا أن أصابتنا فاجعة اغتيال ابنتنا تلك، وجعلتنا نستيقظ سريعاً من غفوتنا.

تنهّد الرجل بعمق شديد، وكأنه ما زال يستشعر مذاق الفاجعة على لسان حاله الذي قال:

- ذات ليلة، وبعد دعاء الاستسقاء، كدت أن أقول آمين، ولكنني تذكرت بيتي المتهالك وتلك الفجوة التي تكشف عُريه. تذكّرت الفقر الذي نعيشه، وتذكّرت أيضاً كل الأخطار المحتملة من حولنا. إننا ما كنا لنأبه بأي شيء قبل الحادثة تلك، فحتى الفجوة كانت صديقتنا اللطيفة. كنا نهواها. صادقناها، عاشرناها، وثقب السماء أسميناها. كانت بالنسبة لنا نافذة بريئة في السقف، نُشرّعها، نصلّي بجوارها، فيتسرب دعاؤنا إلى السماء منها. ولكننا الآن وبعد تلك الوفاة، ما عُدنا نألفها أو حتى نألف خصال دارنا الحميدة.

في ظل زوجها تكمن المرأة صامتة، تأبى الحديث لأنها إن أماطت اللثام عن سكونها فستتفوه بدمعة، ثم تتخلى عن كف زوجها حتى تتمكن من الامساك بأختيها الكبيرتين "لا" و"ليس". هي الزوجة العمياء، تمضي في بُحور حزنها العميق وتضحك، وحتماً، شر البلية هو ذاك الذي يُضحك.

تلجأ الزوجة لكتف زوجها، تستند عليه بكل ما تبقّى بها من عزاء، فتصيب الزوج عدوى الحُزن بغتة. لثانية أو ربما ثانيتين يتأنى الرجل في صمته قبل أن يسترسل في الحديث:

- كنا نعلم جيداً ومنذ أن اخترنا المعيشة في هذا الحي أنه متواضع جداً، وأنه يعاني كثيراً من تعطّل

المرافق العامة والطرقات. كنا نعلم جيداً أنه موطن للكثير من الشقاء، ولكننا ظننا أن التعاسة التي أصابتنا في مقتبل العمر ستعصمنا من أي شؤم لاحق. ظننا أن الماضي سيكون شفيعنا إلى الهناء.

تأوه الرجل بحرقة وهو يردد:

- آه.. كم كنا مخطئين!

تضيع التنهيدة في الهواء المحيط بالمكان فيستأنف الرجل حديثه:

- كنا نتقبل الضيم في ذاك الحي على مضض. نُداهنه، نلاطفه، نتملقه، وكأننا كنا نسعد به. لا العمالة السائبة، ولا متعاطو الحشيش، ولا لاعبو القمار، ولا المطلوبون أمنياً كان باستطاعتهم أن يحملوننا على كره الحي. آه، كم كنا نحتفي به مثل غالبية السكان الواقعين تحت وطأة القناعة المخادعة. نهنأ بكل تفاصيله ونفتتن بجداره الذي يفصل شرق المدينة عن غربها. ذاك الجدار الذي يتضرع عنده الصبية ليستمدوا طفولتهم، ولينحتوا عليه ذكرياتهم الخجولة. أولئك الصبية، إنهم أكثر سذاجة من أن يدركوا أن أمانة المدينة قد قامت قبل عام أو يزيد بإنشاء هذا الجدار لعزلهم عن سائر المدينة، وللحد من انحدار المفاسد التي يشتهر بها حيهم إلى الأحياء المجاورة. أما نحن الكبار، فقد كنا أكثر غباءاً من أن ندرك بأننا كنا خلف ذاك السور نعيش فصول التهميش واللامبالاة. ولكننا قد اكتشفنا مؤخراً تلك الحقيقة بعد أن فقدنا روحاً من أرواحنا.

يعيد الرجل جمع حزمه فيزداد صوته وضوحاً وهو الذي كان على مشارف البوح بما هو مهم:

- نحن يا سيدتي لا نريد تعويضاً مادياً لما أصابنا من ضرر، فما من أرقام تعوّضنا عن الطفلة التي سقطت سهواً في هاوية حيّنا. لقد عرض علينا موكل الشركة المنفّذة لأعمال الصيانة مبلغاً وفيراً من المال، ولكن ليس ذلك ما نريده.

تعتدل "نوال" في موضعها قبل أن تقاطعه بلطف:

- لم تمانع الشركة المسئولة في دفع الدية الشرعية نتيجة حادثة الوفاة، فما الذي ترجوانه أيضاً؟

يصمت الرجل كثيراً في حضرة السؤال فتجيب "نوال" على سؤالها بنفسها:

- لا أعتقد أن بوسعكما المطالبة باسترجاع الروح التي قد غادرت بلا استئذان، أو المطالبة باستعادة ما نُهب منكما من سعادة وأفراح. ولكنني أقترح عليكما اللجوء إلى الوساطة قبل البت في هذا النزاع، فالوساطة هي شكل بديل من أشكال تسوية النزاعات. إنها خدمة مجانية مقدّمة من المحكمة حيث يرتكز فيها دور الوسيط على مساعدة كلا الطرفين في القضية على التفاوض والوصول إلى نتيجة مرضية. سوف يسهّل عليكما من خلال جلسات الوساطة المطالبة بتعويضات عن الأضرار النفسية وعن تكاليف الترافع أمام المحكمة، كما سيمكنكما المطالبة أيضاً بإلزام الشركة بالقيام بحملات توعية عن خطر المرافق العامة الخاضعة لأعمال الصيانة.

أمواج عمياء سبح بها الزوجان، وثمة حشرجة لفها ضجيج البكاء. لحظات تمضي، يتشبث إحداهما بالآخر، فتغرق أمنياتهما في قاع اليأس وهما اللذان لا يجيدان السباحة. يعودان للطفو، فتنتشلهما "نوال" إلى ساحل الواقع المرير بقرارها الذي راحت تُمليه على كاتب الضبط بجوارها:

- سيتم إعادة النظر في القضية بعد شهر من الآن. وستكون هذه الفترة بمثابة مدة كافية لإتمام جلسات الوساطة. فإذا توصّل الطرفان إلى حل مرضٍ أُسقطت القضية، أو أعيد النظر فيها بناءً على المطالب والأسانيد الواردة في صحيفة الدعوى.

يضع الزوج توقيعه بارتجاف على لوح إلكتروني، ثم يتلقى زوجته؛ كي ينقعا الأيام سوية في صهيل اليأس. يعتذران بهدوء، يرتكز بها، تستند عليه، فيعبران معاً المسافة باتجاه بوابة الخروج. دهشة فاقت ملامح "نوال" حين اتكأت الزوجة على زوجها للمرة الأولى، لربما قد أدركت المراة العمياء في تلك اللحظة أن الحياة قادرة فعلًا على إخضاعنا لتبنّي شريعة التبعية والإتكال!

الفصل العاشر: ثمة تلاوة عُقدت في حنجرة الغرام

ما معنى أن تجلس امرأة وراء طاولة مقهى وحيدة إلا من وحدتها؟ ما معنى أن تحني جسدها للريح لتصفعها النسمات على وجهها؟ ما معنى أن يعبر من أمامها رجل غريب فيتأمل تفاصيل حسرتها؟ تباً للتساؤلات جميعاً، ولكن ما معنى أن يتمكّن الآخرون من قراءة لوعتنا؟

تحتمي المرأة من المشاة بصحيفة يومية، ترفعها للأعلى، فتنتزعها الريح من يدها. تُحلّق الصحيفة بأجنحة الورق بعيداً، تسقط على الأرض المجاورة، فيعيدها الرجل الغريب إليها. يمضي الغريب في دربه، ولا تمضي ذكرى شابٍ أعاد لها ذات مرة حياتها التي فقدتها.

لقد بدا لها مشهد الإنقاذ ذاك مشابهاً لتلك اللحظة التي دنا فيها أحدهم؛ كي يعيد لها ما نُهب من سعادتها. انتفض ماضيها بكسل من قيلولة الظهيرة؛ ليذكّرها بامرأة تلملم ببطء انزياحات انكسارها، وأصابع سمراء تزحف على مهل؛ لتعينها على رفع الساقط منها. تكون الأصابع مشابهة لأنامل شاب أدهشها في مأدبة عشاء فاخرة، تكون الأصابع عنيدة، فتنتشلها من مساحات السقوط عنوة، وتلتقطها من رواسب انهيارها. أجل، تكون الأصابع فاتنة، فتذكّرها بكوب الماء الذي رفعته ذات يومٍ؛ كي يعينها على الاحتماء من إغواء فارسها.

ولأن ماضيها قد قرع أجراس ذاكرتها، التقطت المرأة هاتفها المحمول كي تهاتف مُنقذها. لربما أرادت أن تُبدي له امتنانها هذه المرة، ولكنها قد قدمت له عبارات الشكر مسبقاً في هيئة قُبلات مُزمنة، فما الذي يمكنها أن تقوله الآن؟

تبحث المرأة عن اسمه بين جهات الاتصال، فتعثر على أيقونة قلب تائه وبجواره علامة تعجب وإعجاب. تتفقد الأيقونة بحرص شديد، تمرر سبابتها عليها، فتنشأ على الفور مكالمة عابرة:

- ألو..

ثمة صوت أتاها من الطرف الآخر لسماعة الهاتف. بدا مبحوحاً بعض الشيء، ولكنه كان مشابهاً للصوت الذي أيقظها من سبات عواطفها:

- أهاب هذا الفراغ من دونكِ.

عاد الصوت ليحيي رجاءها بتلك العبارة، فما كان لها إلا أن تجيبه:

- الفراغ لا يترك تحسّباً للنسيان.
- وكيف لي أن أنساكِ أو أن أنسى ما كان؟

يتنهد العاشقان سوية، فيكسر الرجل سلسلة التنهيدات بأمنية:

- تعالي كي نشّيد لنا بيتاً في الهواء، نؤثثه سوية، ونعيش فيه نحن الاثنان.
- ربما يتوجب عليك أن تتخلى عن هذا الحلم فهو مؤلم كحلم يمامة تبني عشاً من العيدان.
- سيسعدني أن أتحمّل لأجلك مشقة البناء، وأن أخلق لكِ عشاً وبستان.

- ولكن الريح ستعصف بنا، وستهدم سقف بيتنا والجدران.
- سنعيد بناءه سوية، وسنستعيد باسم الحب كل ما كان.

يختبئ صوت العاشقة في حنجرتها، فتنـزلق بحّة الرجل مجدداً:

- في كل مرة نلتقي نقرر أن نختبئ في فجوات الحب أكثر، نتبادل سيلًا دافئاً من القُبلات، ويكون الختام مجرد عناق.
- وما هي الخاتمة التي تليق بك؟
- أجمل الخواتيم تلك التي تنتهي بكِ زوجة تجيد التمدد على صدري.

عبارة الرجل الأخيرة كانت تستوجب التأني والتوقف لبرهة، فالكلمات المعسولة في هذه المدينة حيلة تنطلي على النساء الناضجات. لربما كان للمراهقات النصيب الأكبر من أوسمة الخديعة، إلا أن تدابير الرجال المُحكمة ومكائدهم المُتقنة كانت قادرة على الإيقاع أيضاً بالنساء اللبيبات.

تستعرض "نوال" بعناية تلك العبارة، وهي التي على دارية تامة بعزوف الكثير من الشباب في مجتمعها عن الزواج التقليدي المحفوف بالمخاطر، وتوجّههم للبحث عن الحب بطرق تتنافى مع الرائج. يتحايلون على غلاء المهور، وانخفاض الأجور، وضيق الصدور؛ ليتركوا مخلّفات عشقهم في محركات البحث الشهيرة، وتطبيقات الهواتف الذكية، وشبكات التواصل الاجتماعية.

عبارات الغزل في هذه المدينة ألغاز يصعب حلها، فهي ملوّثة بلهجات غريبة، وملطّخة برفات أحلام وردية، ومتخمة بوعود زواج وهمية. عبارات الغزل تقرأها النساء من اليمين لليسار، ويقرأها الرجال من اليسار لليمين، وما من أحد منهما ليجد لها حلولًا جذرية.

هذه المرأة وعاشقها، هما المحكومان بأحجية العشق العتيدة. تستغيث الأنثى بالذكر، يعين الذكر أنثاه، فيتوصلان للحل بعد جهود دامت دقائق عديدة، ويكون الحل حينها أن العلاقات التي لم تنشئ وفق أهواء المجتمع تنتهي تماماً كما تنتهي الأحلام تحت سماء "الرياض" الطريدة.

هذان الاثنان، ومثل سائر العشاق، كانت علاقتهما لا تحمل شريطاً لاصقاً، ولا عنواناً واضحاً، ولا تاريخاً لانتهاء الصلاحية. كل ما في الأمر أنها كانت علاقة يشوبها الكثير من الغموض واللايقين، لا بل مركب صيد تقطع عمام البحر بهزهزة الريح وهدهدة الصيادين:

- ألم تخطر ببالكِ فرضية زواجي بكِ يوماً؟

يداهمها صوت الشاب فجأة، فتتلعثم قبل أن تجيب:

- ينبغي على فرضية الانفصال عن زوجي أن تخطر ببالي أولًا قبل أن نناقش فرضية زواجنا.
- وما المانع في أن تنفصلي عن جلاد السعادة ذاك، وأن تتزوجي بـي.
- امرأة كأن لا تحتمل أن تقع ضحية للإحتمالات، فماذا لو لم يكن بمقدورك أن تتزوجني؟
- لا شيء سيمنعني من الزواج بك.
- ماذا عن عائلتك؟ ماذا عن الأصدقاء؟ ماذا عن مجتمعكَ ومجتمعي؟
- تقول أمي، "لا تعشق امرأة أحبّت غيرك في الماضي.. فإنها ستجعلك تندب حظك"، ويقول صديقي، "لا

تعشق امرأة تعرّت أمام غيرك.. فإنها ستقارنك دوماً بغيرك"، ويقول المجتمع "لا تعشق امرأة.. ولا تقتني قطة.. فالأفضل لك أن تموت وحيداً.. شأنك شأن غيرك". وأقول أنا "اعشق من تهواها.. كن سعيداً.. فلا أحد سيعيش حياتَكَ غيرك".

ضحكة خفيفة يمنّ بها الرجل عليها ليُهدّئ من وتيرة الحديث. يبدو أنه وبرغم صغر سنه كان أكثر منها مهارة في إدارة الحوار، وأكثر منها جرأة على مواجهة الحياة. لربما كان يصغرها بعشرة أعوامٍ ولكن رجاحته جعلته أكبر منها بأيام. تغيب ضحكته سريعاً فيخاطبها بجدية هذه المرة:

- لربما قد حان الأوان لكي تختاري بين سعادتكِ الشخصية وإرضاء الآخرين.

لم يكن الخيار صعباً آنذاك بالنسبة للمرأة، لكنها كانت بحاجة إلى جرعة أخرى من الكافيين المختبئ في كوب القهوة أمامها؛ كي تجيد التأمل في الخيارات المتاحة. أمسكت بالكوب من أذنه الصماء، رفعته عالياً نحوها، فأخذ يئن من الألم. ولكن ما ذنب الكوب إن كان قد أدمن شفتيها؟؟

يندلق البُن الأليف رويداً رويداً من قلب الكوب؛ ليروي ظمأ حيرتها، فتقرر العاشقة أن تكون أنانية ول لمرة، وأن تختار سعادتها على حساب مصلحتها الشخصية. ولأنها فضلت أن تُبقي هذا الخيار سراً، لم تفصح لمعشوقها سوى بتنهيدة ساخنة توجّع على إثرها كثيراً:

- صمتكِ هذا يجرحني.. أوه، كم أخشى أن أفارق الحياة متأثراً بجراحك.

كانت تلك العبارة كفيلة بأن تجعلها تُخفض كوب قهوتها فوراً، وأن تعاود التفكير مجدداً في الرجل الذي وأد آماله تحت أقدام ترددها. تمنت لو كان بمقدورها في تلك اللحظة أن تُربّت على كتفه؛ ولكن المسافة حالت بينهما. غاب الصوت في حلقها، فما كان للرجل إلا أن يعيد سرد رغبته:

- أنا في منزلي أتأمل ذكراكِ، فتعالي؛ كي نعقد سوية صفقة الحب دونما خجل. سأصف لكِ السعادة التي تنتظرنا، وستباركين أنتِ كل البنود بقبلة.
- ولكنني لست معتادة على الاختلاء برجل لا تربطني به وثيقة زواج.
- أعدكِ بأننا سوف لن نتخطى حاجز القبلة.

لم تراود "نوال" أية شكوك إزاء الرجل الذي كان يحادثها، فإنه ولطالما كان صريحاً ومهذباً معها. إنه ما كان ليجرؤ على تخطي الحواجز التي تفرضها، أو أن يباغتها بما قد يؤدي لخسارتها. بخلاف سائر الرجال، كان يمنحها حقها في أن تُشكّل حياتها وفقاً لأهوائها، وأن تتخذ من القرارات ما هو كفيل بضمان سعادتها.

- أنا أعرفك مجنوناً ولكنني لا أعلم إن كان بإمكاني أن أجاريك في كل شيء.

قالتها المرأة هازئة فأجابها:

- تعالي إلي؛ وسأتقاسم معكِ الجنون مناصفة.
- هل ستكون عادلًا؟
- لن أبخسكِ حقّكِ يوماً.

تغرق "نوال" في وحل من الأفكار ثم تسأله:

- إن كان زوجي غائباً، فمن ذا الذي سأطلب منهُ الأذن للذهاب إليك؟
- استأذني قلبكِ.
- حسناً.

تأملت المرأة الشارع المقابل لها بدقة. متاجر فاخرة، نسوة يتبضعن، وأطفال في الساحة المجاورة يلعبون. الكل بدا هائماً في السعادة، إلاها، تجلس في المقهى وحيدة إلا من وحدتها. وما أن وقعت أنظارها على لافتات المحلات، حتى حسمت أخيراً أمرها، وفي موسم التنزيلات ذاك، أبدت على الفور موافقتها. أما ما حصل بعد ذلك فقد كان ما يلي:

1- أغلقت "نوال" هاتفها.

2- حملت حقيبة يدها.

3- غادرت المقهى مسرعة.

4- لا يمكن وصف لهفتها.

الفصل الحادي عشر: العالم نصفان.. نصف أنت، والنصف الآخر ظلك

وأتته من أعالي النساء امرأة حرثت في عينيه كل البهاء. طرقت بالفتنة أبواب روحه المغلقة، ثم استباحت مدائناً لا يقطنها الغرباء. ناولته كفها الجائعة، طبع عليها قبلة، فتمايلت أمامه كغيمة تبحث عن سماء. سارت بدلالٍ صوب يقينها، وهي بخطواتها القصيرة تقطع المسافة المؤدية إلى حجرة اللقاء. حتماً إنها أرادت أن تستعمر دولة قلبه بحجة الإنتماء.

مرّر "فارس" أصابعه الحانية على كتفها؛ كي يعينها على خلع عباءتها، لكنها من ضراوة اللهفة سبقته إلى خلع السواد. تناولها منها وهو مع المناولة قد قرأ كفها بخمس لغات. قرأ رغبتها، قرأ نشوتها، قرأ شوقها، قرأ اشتياقها، وقرأ أيضاً أملها في الخلود بين ذراعيه لسنوات. حمل عنها عباءتها، قادها إلى حجرة المعيشة، وعلى مسافة الشمم تواطأ العاشقان. تركا الروائح تصنع أقدارهما، هي تمشي، وأنفه الحساس يتعقب أثرها.

تكدّس "فارس" على الأريكة التي تبعد عنها بضعة خطوات. ولما خُيّل له أن ثمة سطوع رافقها، أخبرته أنه الغروب قد تسلل من النافذة. أوه، ما أجمل أن يراها في لحظة المغيب تلك وكأنها تنتظر الشمس أن تتجرد من ثوب غيمة صيف طريدة. هناك حيث النافذة التي تستضيف الأفق، تكون عيناها تائهتين، بعيداً عنه تائهتين.

آه، كم تبدو أليفة من هذه الزاوية وهي تُمدد ذراعها اليسرى على كتف الأريكة بنقاء. يبحث "فارس" عنها بجواره، يتحسس اللاأحد، فتعود أصابعه مليئة بالفراغ. وماذا في الفراغ سوى تذكير بحاجتنا لأناس بجوارنا؟!

في شقة فاخرة شمال مدينة "الرياض"، جلس العاشقان، وجلست الشمس خلفهما. على وشم المغيب، ألقت عليهما التحية، ثم تأهبت لوداعهما من بعد لقاء. لربما قد فرت مسرعة حين فطنت لحاجتهما إلى الانـزواء. حملت حقائبها، وقطعت المسافة غرباً، لقد رحلت بعد أن أدركت متأخرة أنها ما كان عليها أن تُطيل البقاء.

"نوال"، إنها لا تعرف ما معنى أن يجلس "فارس" أمامها بسرواله الرمادي والقصير جداً، للحد الذي يجعل فخذه المنكشف ناضجاً. إنه وببشرته القمحية تلك كان يثير بداخلها الرغبة في احتضانه فجأة. يتمدد أمامها على الأريكة الجلدية السوداء مرتدياً قميصاً أسوداً يكشف كتفيه. ينظر إليها، يتأملها بصمت، وكأنه يعلم جيداً ما تفعله بها ساقاه العاريتان. يضع إحداهما على الأخرى، يتحسس صدره بلا أي تَكلّفُ ثم يمرر راحة يده اليمنى على جسده الناحل، فتعبر بداخلها رعشة الثورة التي لا حد لها. ترتعد "نوال" في مكانها، لا تحرّك ساكناً، وتتعجب لماذا ترتبك المرأة في حضرة رجل ملتحف بالصمت؟

هناك في الشقة الفاخرة، جلس العاشقان، وكل خطوط الإتصال مقطوعة بينهما، حتى الصمت. مذهل

جداً كيف كان العاشقان خجولين قبل الغروب، ولكن لما زارهما الليل قادهما إلى يقينهما.

هناك سيدة، وذاك الشاب كان يرنو لها. كان يقترب منها، يجلس بجوارها، ثم يرقبها وهي تصب في ظُلمة الصمت كلتا قدميها، وتوتر ملحوظ يعتريها. اقترب منها كثيراً؛ كي يراهن على الهواء الواقف بينهما، فما كان لها إلا أن تضع يدها على ثغرها. أما هو فقد تناول يدها كسُبحة، ثم راح يقلّب أصابعها.

"نوال"، ما كلّفت نفسها عناء التفكير في أي شيء مطلقاً، وأمامها شاب راح يُقبّل أصابعها واحداً تلو الآخر. يضع شفتيه على أناملها، ويرخي بداخله كل التساؤلات حول أسباب وجودها. فقبل أن تزوره، كان الشاب قلقاً للحد الذي جعله يتساءل إن كانت ستأتيه بنفسها أم سترسل عنها نسخة أخرى! وهل إن جاءت ستتذكّر شوقها أم ستأتيه بلا ذاكرة.

ينسدل الحياء من خلف ستائر عينيها نهراً فيتسلق فارسها شجرة جسدها، ويخبرها بأن لها شفتيْ يانعتيْن، فتجيبه بأنهما فاكهتان محرمتان. يقول لها وماذا عن العينين، فتقول له حذارٍ، فإنهما فخان.

"نوال"، كل شيء بها كان صعب المنال، وكل شيء بها بدا كثمار في بستان. توت العينين، كرز الشفتين، ووجنتان محمرّتان كفاكهة الرمان. ولما كانت معلّقة في دهشتها، قطفها "فارس" حتى تستلقي على صدره، خبأها فيه جيداً، ثم أكّد لها أنها بأمان.

انطبق ظله على ظلها، ارتعش لأجله قصبها، فوضع يديه حولها. شيء ما كان يجعلها بحاجة ملحة للدفء، ربما كان ذاك الهواء البارد وهو ينزلق من فتحات التكييف. كان يعصف بسكون المكان، فتتمايل لأجله ستائر النوافذ بغنج بليغ وهي تستفتي "نوال" عن سر تواجدها. هل كان حضورها إلى هذا المكان برغبتها؟ أم أن ريحاً باردة دفعت بها مثل الستائر التي تتراقص مع شيء لا تراه ويحرّكها؟ لا تعرف "نوال" إجابة لذاك السؤال، فتحيله ببساطة إلى فارسها:

- هل كان عليّ أن ألجأ إلى صدرك مبكراً؟
- لقد تأخرتِ قليلًا، ولكن هذا لا يهم. فأنت الآن هنا.
- أطيب الساعات حين أكون معكَ ولا أكون معي!

قالتها بجرأة تتنافى مع الخجل الذي تربّص بها مؤخراً، فرقص قلب الشاب لأجلها:

- أنا لا أريد ضمّكِ فقط، بل أريد تنوينك.
- ولكنني مجرّد كلمة في جملة الحياة، أنا نكرة.
- سأعيد صياغة الحياة لأجلك، وسأعرّفك بأل التعريف يا أجمل امرأة.
- (أل) التعريف وحدها غير كافية لتبديل حالي.
- سأكون مضافاً إليكِ إذاً.
- هكذا سيتبدل حتماً حالنا.

كان الشاب متمدداً بأناقة الحرف كنص في جبهة ورقة طالب نجيب. جسده متشكل بانحناءة مُتقنة مثل حرف الـ "فاء"، و"نوال" متكئة على صدره كنقطة هائمة في أبجدية حُبه. بدا "فارس" ودوداً حين راح

يمرر راحة يده، وحين تغلغلت أصابعه بين خصال شعرها، فسقطت المرأة على شفتيه مغشّياً عليها. ولما كان ذاك السقوط غير مبرّر، ارتفع حاجبا الشاب، وهبطت من بين ثغره قُبلة!

استشعرت "نوال" ذاك التيار من النشوة يسري من فوهة الفم ويشعل ضوء روحها، فانتفضت من شدة نشوتها. ولأنها أرادت أن تسترعي انتباهه، اعتدلت في جلستها واضعةً ساعدها الأيسر على صدره ثم همست:

- في الحب عند الهنود الحمر، كانت المبادلة هي العملة الرائجة. فقبلة الخد على سبيل المثال كانت تساوي عناقاً وثلاث سمكات. أما قبلة الشفتين فكانت تساوي ضمةً وسبع دجاجات.
- وماذا عن اللقاء؟
- خمسون قبلة بالإضافة إلى نصف المحصول الزراعي للعام.

هكذا وبلا أي تكلّف، يسند "فارس" ظهره على طرف الأريكة ثم يطبع على جبينها قُبلة دافئة قبل أن يسألها بخبث:

- ولكن ماذا عن أبدية التلاق؟
- كانوا يطلقون عليه مسمى الزواج!
- حسناً، أنا لا أملك محصولًا زراعياً. لذا، سوف أكتفي بخمسين قبلة فقط.

تتخلى "نوال" عن صدره بغنج، تقف بهدوء، ثم تسير نحو حائط مجاور؛ كي تتأمل لوحة لمغني الجاز الأمريكي "لويس آرمسترونغ". بالرغم من أنها لم تكن اللوحة الوحيدة المعلقة، إلا أنها وحدها كانت منفردة بسرقة الضوء المنسدل على الجدار. لم يكن السبب حجمها الكبير نسبياً، بل تفاصيلها التي لا تُعبّر عنها الكلمات. ممسكاً ببوقه، وقف المغني الأسمر في منتصف اللوحة كي يروي للمشاهد قصة الموسيقى التي نشأت في الشوارع المظلمة. بشرته الداكنة بدت بهية في حضرة اللون الذهبي بين يديه، وملامحه كانت صادقة لما شرع بالنفخ في البوق.

ولأنها أطالت التأمل، نهض "فارس" من الأريكة بدوره، وسار بخفة نحوها. ليحدثها:

- إنها أجمل اللوحات التي أمتلكها.

ولأنه لم يشر إلى أية لوحة، استدارت "نوال" صوبه لتسأله:

- وأي لوحة تلك؟

فأشار إليها ثم قال:

- أنتِ.

ابتسمت "نوال" وهي تلتفت إلى لوحة العازف مجدداً ثم قالت:

- "لويس آرمسترونغ"؟
- هل تستمعين إليه؟
- لا، ولكنني قمت بقراءة دراسة نقدية عنه في مادة "تاريخ موسيقى الجاز" أثناء دراستي في جامعة "كورنيل".

أمعنت "نوال" النظر في تجمّع الألوان البهي أمامها قبل أن تسأله:

- ما الذي يجعل شاباً سعودياً مهتماً بموسيقى الجاز؟
- رغبته في العثور على التآلف الذي تفتقر إليه أشكال الأغنيات الحديثة. هذه الموسيقى التي تغازل الروح قبل الأذن، إنها ملهمة الأسماع بشاعرية لحنها، وبدونها يصعب تخيّل الكثير من الألحان. موسيقى الجاز يا عزيزتي، هي مصدر الإلهام الرئيسي لأجمل الأعمال الموسيقية، ولعل من أهمها أعمال السيدة "فيروز"!
- ولكن الاستماع إلى هذا النوع من الموسيقى يتطلب إطلاعاً مكثّفاً على ثقافة غير مألوفة في مجتمعنا.
- ما المانع في أن نتخطى الحواجز المحيطة بنا كي نعيد اكتشاف أنفسنا؟

يبتعد عنها الشاب قليلًا، فيقترب منها لحنٌ دافئ. يبدو أن "فارس" قد دعاه للحضور ما أن اختلى بذاك الجهاز الصوتي. صوت مغنية إنجليزية يأتي من البعيد محمّلًا بأنوثة دافئة وهي تتحدث عن شخص أسمته بـ "فتى الطبيعة":

"كان هناك صبي

صبي غريب وخيالي

قالوا أنه اعتاد أن يرتحل بعيداً

بعيداً جداً

ما وراء البر والبحار

خجولٌ قليلًا.. عيناه حزينتان ربما.. ولكنه كان حكيماً

وفي يوم ما.. في يوم سحري أتى في طريقي

وبينما كنا نتحدث عن أمور كثيرة.. عن السُذَّج والملوك

أخبرني حينها

أعظم فرحة تعيشها هي عندما تُحب أحداً وعندما يُحبك أحدهم في المقابل"

تلاشى هدوء النغم فجأة، فتجلت للأسماع همهمة الآلات. وما أن أصبحت الموسيقى راقصة بعض الشيء، حتى تعلّقت "نوال" بفارسها، فتلقّفها، وبدأ في التمايل معها. يدٌ ممسكة بكفها، ويدٌ ملتفة حول جذعها، ذاك رجل حملها بهدوء وراح يتأرجح معها، لليمين تارة، ولليسار تارة أخرى. يسقط رأسها على كتفه، يلامس أنفها الجزء المقارب لعُنقه، فتستنشق وداً برائحة عطره العصرية.

فاتنة طقوس الرقص تلك حين كان العاشقان في مهب الريح واقفين، فاتنة حين تقاذفتهم الموسيقى كقوارب صيد تحطمت مجاديفها. كان يجذبها إليه، كانت تشده نحوها، وكلما لامسها جسده النحيل، شعرت بضيق المسافة الفاصلة بينهما. حسناً، من ذا الذي سيبعده الآن عنها؟

تعاود المغنية سرد التعريف الحقيقي للسعادة، فتقول مجدداً:

"أعظم فرحة تعيشها هي عندما تُحب أحداً وعندما يُحبك أحدهم في المقابل"

بحجم رقة الكلمات، بعُمق معانيها، وببذخ الموسيقى المصاحبة لها، كانت "نوال" هائمة في حب الشاب

الذي راح يحتضنها. هذا فتى يُحكم التشبث بميلان قامتها، يُبدي رغبته في أن يتملكها، يدلّلها، ويرقص أيضاً معها. إذاً، ما الذي يجعلها تتردد في التخلي عن العالم من أجله، ومن أجلها؟

تتوقف الموسيقى، فيجد العاشقان نفسيهما على ذات الأريكة مجدداً. ولأن الجهاز الصوتي يُجيد الثرثرة، راح يسترسل في تلاوة أغنية أخرى. كان الجهاز وكما يبدو لصاً يسرق الأغنيات من هاتف "فارس" المحمول. يبعث بإشارات رقمية، ويستقبل إشارات أخرى؛ حتى يسرد على العاشقين حكاية ألحانٍ لا تنتهي. هذه المرة جاء صوت "إديث بياف" ليتحدث عن الحياة الوردية. كان الصوت الشجي يصدح بفرنسية عذبة:

"العينان اللتان تنظران إليّ..

الابتسامة التي ضاعت من هاتين الشفتين..

هذا هو الوصف الدقيق للرجل الذي يملكني"

لقد كان حديث المغنية هذا ملائماً تماماً للحظة الراهنة لما التصق العاشقان ببعضهما البعض:

"عندما يضمني بين ذراعيه

ويهمس لي برقة

أرى الحياة بلونها الوردي

يتحدث إلي بكلمات الحب

كلماته اليومية..

فتلمسني"

يزاول "فارس" التمدد على أريكته الجلدية فتعاود "نوال" التمدد على صدره. صوت آخر يتدحرج من قنوات ذاكرتها بدون بصمات، إنه صوت أسئلتها. ترى هل نجح الزمن فعلًا في تهذيب الصورة التقليدية للرجل السعودي، أم أن الشاب الذي أمامها مجرد استثناء؟

لوهلة بدا لها "فارس" شخصية خيالية كتلك التي تحلم بها المراهقات السانجات، شخصية تجلّت من فنتازيا فتاة شرقية تبحث عن شاب تسمّيه فارس أحلامها. لوهلة بدا وكأنه قد تمخض من وهمها، وهي التي لم تألف رؤية شاب شديد الثقافة، بالغ الحنان، كثيف الحضور، ويجيد الإستماع لصوت قلبها قبل أن يُحدّثها.

ومن ذا الذي سيعاتبها إن لم تصدّق واقعها؟ فهي مثل النساء من حولها، ما اعتادت أن ترى شاباً يضع العالم بأسره في كفة، ويضعها في الكفة الأخرى. يهديها الحياة دون غيرها من بقية الناس، ويعدها بأن لا يغادرها أو أن يبتعد عنها.

ووفقاً لقاموس مجتمعها، إن هذا الرجل الذي يحتضنها الآن لا يمكن ذكر خواصه مطلقاً باستخدام التعريف الكلاسيكي للرجل السعودي، فهو لم يكن ذات يوم جباناً، يخشى التقاليد والعادات، ولم يكن خاضعاً للخوف الشديد من الأعراف. إنه ما كان استبدادياً، يُحِلُّ لنفسه شتى الممارسات التي لا يُبيحها

لغيره، ولم يكن انتهازياً، ينشدها علاقة عابرة كي يرضي أهواءه.

وبالرغم من أنها لم تتعايش معه كثيراً، إلا أنها كانت على يقين بأنه لم يكن ممن يفرضون قراراتهم على النساء ولو لمرة، ولم يكن ممن يتخذون القرارات المشتركة دون طلب المشورة والتماس الآراء. هو يعرف جيداً الخط الفاصل بين أن يكون مُنقاداً وأن يكون قائداً، ويعرف كيف يسير بجوارها، ظله قرب ظلها، ليقطعان المسافة نفسها، دون أن تتبعه أو أن يتبعها.

تسترسل المغنية الفرنسية في الشدو بلغة العشق، قبل أن تطلق سراح عبارتها الشهيرة:

"هو من أجلي.. وأنا من أجله.. مدى الحياة

إنه وعدني بذلك.. إنه عاهدني بهذا مدى الحياة"

تمضي على هذا اللقاء ساعتان، و"نوال" على ذاك الصدر متشبّثة، تريد أن تعي المعنى الحقيقي للأمان. لربما كان الوقت قد تأخر، فهل ستحمل حقيبة يدها؟ وهل ستغادر الآن؟ إنها تريد أن تبقى هنا بجوار فارسها، ولكن كم من الوقت يلزمها كي تنال كفايتها من هذا الحنان؟

ولأن الأسئلة كانت شائكة وكثيرة، أعادت النظر فيما راق لها من الإجابات:

أ- أنا هنا على قارة صدره السمراء.

ب- العالم لا ينتظرني.

ج- سحقاً لكل من بالخارج هناك.

د- جميع ما سبق.

وضعت "نوال" دائرة مؤكدها على الإجابة الأخيرة قبل أن تُسَلّم نموذج إجابتها إلى اليقين، وقبل أن تشتم جميع الاختبارات. وبمجرد أن توقف الجهاز الصوتي، وانتهى اللحن، بدأ موسم إلغاء الضجيج، فضمّ "فارس" محبوبته جيداً، أخبرها أنه يحبّها كثيراً، ثم نام! أما هي، فقد وضعت قلبها بين كفيه، تعلّقت بأستار صدره كثيراً، ولكنها لم تهنأ بلذة المنام.

الفصل الثاني عشر: الخجل أنثى.. والجرأة ذكر

استيقظت "نوال" لتجد نفسها مستلقية على أريكة جلدية في مكان بالكاد تعرفه. وسادة تحت رأسها، غطاء فوق روحها، وظلام حول وجودها، أي قدر هو ذاك الذي إلى هنا قد قادها؟

لسبب كانت تجهله، أو ربما لأن الوقت كان كعادته خَوَّاناً، غادرتها ليلة الأمس بلا استئذان، وجاءها يوم جديد على عجل. كان ضوء الشمس يكبر أمامها في الفجر فجأة عندما تحدثت النافذة وأخبرتها عن الشروق المتقاطر من بين الستائر. فهتفت "نوال" بحيرة:

- يا ترى كم من الوقت قد مضى؟

ذهب السؤال بعيداً، وعاد اللون الأسود إلى الجلد، فبدت لها الأريكة مألوفة. حسناً، لقد تذكرت للتو أنها قد أمضت ليلة البارحة في موضعها هذا، تتقاسم الحب مع أحدهم على خجل:

- ولكن أينه الآن عني؟

شرعت "نوال" في البحث عن شيء ما كانت قد أضاعته. ولأنها لم تعثر على غايتها، راحت تتأمل بقايا الوقت في الحائط. قرأت الساعة بعين شبه مغمضة، ثم حملت رأسها من السبات حتى تشاهد ميلاد صباح جديد، ولكنها حين استقامت في موضعها، صرخ رأسها بتوسل شديد:

- أعيديني الآن إلى سباتي!

وضعت "نوال" رأسها على الوسادة عنوة، فارتخى بها بعضُ من إعيائها، ثم شرعت في التواري خلف النوم قليلًا لتهرب من تواجدها، ولكن الأريكة لا اسم لها سوى الأريكة، والصباح لا اسم له غير الصباح فكيف كان بوسعها أن تهرب من وجودها؟

الساعة تشير إلى الخامسة والربع. تغمض "نوال" عينيها كثيراً، فيأبى النوم أن يزورها. يا ترى ماذا تفعل المستيقظة في شجرة نومها الميمونة؟ هل كانت تهز أغصان الحلم، أم كانت تستفتي الأوراق المسنونة؟

الساعة تشير إلى الخامسة والنصف. تعاود "نوال" النظر من حولها، وعندما تنجح في وقب عين اليقظة، كان "فارس" على الأريكة المقابلة متمدداً مثلها. تشهق "نوال" لتغيّر لون السماء، تشهق للضوء المتمرد وهو يتدرج من ثغر الزجاج، ثم تشهق مجدداً لتمدد الشروق على وجنة الشاب الذي أمامها. ما بال الألوان الغادرة تغازل حبيبها؟ ألم تسمع ذات مرة بغيرة النساء ولهيبها؟

الساعة تشير إلى الخامسة والنصف، الساعة لم تتحرك مطلقاً. من رحم المسافة، كان وجه الشاب جذلاً في ومضة فجر وليد، وهو النائم بعيداً هناك. خيل لـ "نوال" أنه كان مستمتعاً كثيراً بالسباحة في بحيرة التهجاع لما كان يتلوى في مكانه بملامحه البهية. رمقته من تحت الغطاء بعين الفخر وببهجة الحضور. رباه، عذب الملامح ذاك إنه وحتى في نومه كان جميلًا.

الساعة ما تزال ثابتة، و"نوال" ما تزال منتشية. تزخرف الآهات، تتلذذ بهندسة الذهول، وتدرك أنها قد أمضت عشرة أعوام بجوار الشخص الخطأ تماماً. تعاتب نصيبها، تندب حظها، ثم تشرع في استخراج

الفروق العشرة بين ذاك الشاب وزوجها. ولأن أصابعها لم تكن قادرة على إحصاء الفروق، تتخلى "نوال" عن العد، وتكتفي بتأمل فارسها.

الساعة تشير إلى السادسة إلا ربع. العاشقان متكومان على الأرائك فُراداً قبل البزوغ. نهضت "نوال" من مرقدها، وحتى لا تنتهك خطواتها حرمة الهدوء، سارت على أطراف أصابعها قاطعة المسافة المؤدية إلى عاشقها. وصلت إلى وجهتها، حطت الرحال بجواره، فاستقبلتها بكل رحب تفاصيله الفاتنة.

الساعة تشير إلى السادسة تماماً. تمرر "نوال" سبابتها على شفتيّه، تتحسس مخبأ قُبلاته الساخنة، فيستيقظ الشاب بجوارها. حدود الآفاق في عينيه، وابتسامة كسولة تتبرعم في شجرة يقظته، إنه يُشيع لها خبر استيقاظه بهسهسة قُبلة يطبعها على عقلة أصبعها.

هذان المتساويان في الشهيق والزفير يمر عليهما ثلاث دقائق كاملة ولم يتحدث أي منهما للآخر. يكون الشاب مرهقاً، فتضع "نوال" ظهر كفها على جبين قلبه، ليفاجئها اللهيب الكامن بين دفتيّ صدره. "فارس"، إنه بالفعل كان مصاباً بحمى عشقها.

يكون الشاب متعباً، متعباً تماماً من علاقة لا يعرف لها مصيراً، ولكنه يرفض أن يبوح لها بقلقه، فهو الذي يكابر كثيراً حتى يغالب وباءه. تبوح عيناه بحاجته لدواء يقيه من متلازمة التكهنات، ولكن شفتاه تظلان منطبقتين على بعضهما. لا تتسرب آهة الأوجاع، ولا يستقيم الشاب في موضعه، ولكنه يتحامل على إعيائه ثم يقول لها:

- سأستعين بكِ عليّ، فشدّي وثاق قلبـي!

يطلب عونها، تأخذ بيده، فينهض النهار معهما. ممشوقة الحس والقوام، تقف "نوال" لتعينه على الوقوف، فيجذبها نحوه؛ كي تسقط في أحضانه بغتة. حتماً، لقد خابت محاولتها في مساعدته على القيام من موضعه، ولكنها رغم الخيبة قد ربحت قبلة صباحها:

- أنا طفل يعشق الحلوى والنساء أيضاً، فأطعميني من سكر شفتيك، عسا أن تُعينني القبلات على إشباع رغباتي.

الساعة تشير إلى تمام السادسة، إنها متوقفة منذ أن التقى العاشقان، وهل توقفت الساعة فعلًا؟ قبلة، وقبلة، ثم قبلة.. أدرينالين، أدرينالين، والنبض يزداد حدة.. تتوقف عجلة الزمان، وهل توقف الزمان للحظة؟

أرادت "نوال" آنذاك أن تؤرخ صباحها، وأن تغلّف رتاج أغنية القبلات بإيقاعات البقاء، ولكنها لم تكن ماهرة أبداً في تلحين الرغبة، أو في كتابة الموسيقى. اكتفت بصُنع فجوة في الذاكرة، وضعت بها اللحظة، ثم تمنت أن تكون قادرة على استرجاعها كلما دعت الحاجة.

الساعة تشير إلى السابعة تماماً، وعقاربها تثب كبهلوان في سيرك، فهل قفزت الساعة ساعة أخرى؟ يقف الاثنان سوية، فيقودها "فارس" إلى بار في إحدى زوايا المكان. كان البار عبارة عن منصة خشبية أنيقة تعلوها منضدة عصرية من الرخام، وأمام المنضدة ترتص مقاعد دائرية لا ظهور لها. أما الجدار وراء المنضدة، فقد كان زاخراً برفوف تعلوها قوارير زجاجية لمشروبات روحية.

ثمة إضاءة بنفسجية خافتة انهمرت من السقف لتضيء القناني الغانيات ولتجعلهن أكثر وضوحاً. حملت نوال أحدها لتقرأ الملصق عليها:

- "ريمي مارتن - لويس الثالث عشر".

تنظر "نوال" إلى الزجاجة السوداء، تُقلّبها، فيتمادى "فارس" في التوضيح:

- إنها زجاجة فارغة. أنا لا أحتسي الكحول، ولكنني أهوى جمع الزجاجات الفاخرة.

اقترب منها بهدوء وهو يشير إلى الزجاجة:

- ما يميّز هذه الزجاجة ليس السعر الباهظ لمشروب "كونياك العنب" الذي تحتويه، وإنما كمية الوقت والجهد المطلوبة لصنعها.

تتحسس "نوال" النتوءات البارزة من السطح الزجاجي بأطراف أصابعها وهي تستمع لـ "فارس":

- يستغرق إنتاج كل قنينة مشابهة لهذه خمسة وسبعين يوماً، تتم فيها عملية الإنتاج على سبعة مراحل. في كل مرحلة تُصنع طبقة من الكريستال النقي بدرجة لون أشد كثافة من الطبقة التي تسبقها، ابتداء باللون الأبيض، وانتهاء باللون الرمادي الداكن. وما أن تُوضع الطبقات فوق بعضها البعض، حتى تكتسب القنينة هذا اللون الأسود.

تتأمل "نوال" القنينة باهتمام عال قبل أن تسأله:

- ولكن لماذا تحتفظ بهذا الكم من الزجاجات؟

- كل زجاجة هنا تمثل شريحة من شرائح المجتمع الذي نعيش فيه، وبالتالي هذه القناني تعينني على فهم الناس من حولي، واستيعاب الحياة أيضا.

استأنف "فارس" الحديث بعد لحظة صمت خاطفة:

- ينقسم المجتمع السعودي إلى ثلاث طبقات رئيسية، وكل رف من هذه الرفوف الثلاثة يمثل طبقة منها. فالرف العلوي يمثل الطبقة البرجوازية، والرف الأوسط يمثل الطبقة المخملية، أما الرف السفلي فهو يمثل الطبقة البروليتارية الكادحة.

تصغي "نوال" إلى حبيبها وهي تُعيد القنينة إلى مكانها في الرف العلوي وتحت الضوء البنفسجي تماماً:

- زجاجة "لويس الثالث عشر" تمثل صنّاع القرار وذوي النفوذ السياسي بملامحهم الصلبة، وتعابير وجوههم التي تصعب قراءتها. قد تظنين لوهلة أن بإمكانكِ سبر أغوارهم، ولكنكِ كلما توغّلتِ في طبقة الفه استقبلتكِ طبقة أخرى.

يشير "فارس" إلى قنينة زرقاء لامعة في الرف الأوسط فيقول:

- "بومباي سافاير"، إنه يمثل الشريحة العليا من الطبقة المخملية، كالأثرياء ورجال الأعمال. ببريق الياقوت الأزرق، إنهم امتداد للطبقة البرجوازية. لامعون، ومثيرون للإنتباه تماماً مثل هذه العبوة التي تستخدم لتخزين "الجِن"، وهو مشروب كحولي جاف وقوي يصنع من كحول البذور البيضاء والعنب. تُخلط محتويات هذه العبوة في كثير من الأحيان مع المشروبات الباهظة الثمن، فيكون الناتج من عملية المزج تلك طعم مميّز يحبه القليل ويخشاه الكثير. ولما اقترن وجود هذه القنينة مع وجود زجاجات الكحول الفاخرة، اكتسبت صفة التميّز التي تتباهى بها

الآن.

يسترسل "فارس" في الحديث وهو يشير إلى زجاجة أخرى في الرف الأوسط. كانت الزجاجة داكنة الُحمرة يعلوها شعار ضخم وبارز لرأس ظبي مصنوع من الفضة:

- إلى اليمين تماماً "دالمور"، وهي تمثل الشريحة الوسطى من الطبقة المخملية، وهم كبار الضباط ومنفّذو القرارات الصادرة عن الطبقة البرجوازية. شكلها المميّز يبعث الهيبة، ورأس الظبي الذي يعتليها هو ما يجعلها جديرة بالتقدير فعلًا. إنها تستخدم لتخزين مشروب "السكوتش" المصنوع من الشعير وحبوب الحنطيات، وهو مشروب قوي لا يتم خلطه عادة؛ كي لا يفقد خصائصه الفريدة.

أشارت "نوال" إلى زجاجة أخرى في الرف ذاته ثم قالت:

- وماذا عن تلك الزجاجة ذات الشريط الذهبي؟

- "شيفاز ريجال"، تمثل هذه الزجاجة الشريحة الدنيا من الطبقة المخملية، وهم رجال الأعمال الصغار، وموظفو الشركات الأجنبية. إنها قد تبدو باهظة الثمن بلمعة شريطها الأخاذة، ولكنها في واقع الأمر ليست كذلك. مقارنة بجاراتها، هي أقلهن ثمناً وأهمية. براقة تحت الأضواء فقط، ولكن في الواقع هي لا تلمع. يتجنبها الكثير لأنه لا انتماءات لها، كثيرة الانحناءات، وسريعة الكسر، إنها يا عزيزتي زجاجة لا ولاء لها.

أتم "فارس" حديثه قبل أن يلتقط زجاجة أخرى شفافة اللون من الرف السفلي. قلّبها بعناية فائقة وكأنه كان يقلب أفكاره، ثم ناولها لـ "نوال" التي شرعت بدورها في قراءة الملصق الأسود الذي اعتلاها:

- "جوني واكر - بلاك ليبل".

- أما هذه الزجاجة، فهي تمثل سائر أفراد الطبقة الكادحة، وهي طبقة تشمل أفراد المجتمع الذين لا حول لهم، بالإضافة إلى العمالة الأجنبية. إنها زجاجة زهيدة الثمن، كثيرة التواجد، لا بريق لها، قابلة للتلف والكسر والحرق أيضاً. إنها تمثّل المتهربين من الضرائب، والمكافحين من أجل الرواتب، وذوي الدخل المحدود، والباحثين عن "أليس" في بلد العجائب.

زجاجة زرقاء اللون على الرف ذاته، أشار إليها "فارس" وهو يستطرد:

- تلك هناك زجاجة "الفودكا" الشهيرة "سميرنوف"، وهي تحتوي على خليط الماء وكحول الإيثانول الذي يتم مزجه عادة مع المشروبات الغازية والنكهات الصناعية. إنها زجاجة لا قيمة لها، وهي تمثل اللقطاء وأبناء الفقراء، فهم ومثل المشروب الكحولي، لا أحد يسمعهم أو حتى يراهم. هذه الزجاجة هي خير وسيلة لوصف أولئك اللذين هم أقل أهمية من أخبار ارتفاع البورصة، وأسعار المواد الاستهلاكية، وأحداث المسلسلات الأجنبية.

كانت زجاجة الـ "فودكا" تقف بخجل بين البقية وكأنها كانت تدرك جيداً معنى أن تكون متواضعة. لا شعارات عليها، لا انتماءات لها، ولا بريق يعيد لها تفاصيلها. حتى الضوء البنفسجي الباذخ لم يُفلح في جعلها تبدو زاهية ولو للحظة.

تشير "نوال" إلى زجاجة أخرى ثم تقول:

- وماذا عن تلك التي هناك؟

- "أبسولوت فودكا".. إنها تمثل شريحة المطلقات، فهي تأتي بنكهات متعددة من بينها العنب، والرمان، والتوت البري، والأجاص، كي تلائم رغبات الرجال الباحثين عن تعدّد الزوجات. إنها زجاجة تأتي باللون الأصفر

صيفاً، وبالأخضر ربيعاً، والأحمر خريفاً، والأزرق شتاءاً؛ لتساعد الذكور على التكيّف حول فرضيّة إعادة الارتباط.
تصمت نوال كثيراً في حضرة تلك الزجاجات، فيعود صوت "فارس" مجدداً:

- هذه الرفوف التي أمامكِ خريطة للأرواح. انظري هناك، "كِيتيل ون فودكا"، موظف حكومي في الثلاثين من عمره فشل في تسديد المتبقي من قرضه العقاري.. وتلك "غري فودكا"، أرملة في منتصف عقدها الرابع، تبحث في الطرقات عن زوجها الذي ضاع.. وهذه "سكاي فودكا"، خمسينيٌ تخلى عن عائلته لأنه عثر تحت الوسادة على ورقة اليانصيب الرابحة.
- وماذا عن القاضية الواقعة في حب شاب يصغرها بسنوات؟

جاء سؤال "نوال" مفاجئاً، فما كان للشاب أن يجيبها على الفور. استدار صوب الثلاجة الصغيرة والمخبأة بأناقة في الجهة الخلفية لطاولة البار، ثم امتدت يمناه لتفتح الباب الزجاجي، وتحمل عبوة مليئة بعصير البرتقال.

ضاع السؤال تماماً في الصمت المخادع لحظة شرع "فارس" في ترتيب أكواب الفوضى واحداً تلو الآخر فوق طاولة الرخام. محاولة التهرب تلك كانت جلية جداً لحظة أن راح يصب في الأكواب بعضاً من سائل النقاء وهو يردد:

- لا شيء أكثر روعة من أن تستقبلي الصباح بكأس برتقال!

ناولها الفارس كأساً، في محاولة منه للتملص من استفسارها، ثم راح يتجرع المشروب دون أن ينظر نحوها. استند كلٌ منهما بظهره على منضدة البار ثم انهمكا في تذوّق الصباح بنكهة البرتقال. وما أن أتمت "نوال" احتساء مشروبها، حتى وضعت كأسها جانباً. صوت الزجاج الساقط على نقاء الرخام كان مدوياً للحد الذي جعل الشاب يستدير صوبها ليتأملها وليتأمل الكوب الذي وقع للتو منها.

استدارة الزجاج المُغرية تماماً أرغمت "فارس" على حمل كوبها، ووضعه على الرف العلوي هناك، فصارت آثار عصير البرتقال كامنة تحت وطأة الضوء البنفسجي. وما أن عاد الشاب ليقف بجوارها مجدداً، حتى قال لها وهو يتأمل الرف العلوي بإضافته الجديدة:

- تلك هناك في الرف العلوي "كأس زجاجية".. إنها تمثل المرأة الفاتنة التي وقع في حُبها شابٌ لا يعتد بفرق السنوات!

الفصل الثالث عشر: سابقاً.. كان الحب غداً سيأتي

حين أراد "فارس" أن يثبت لمحبوبته أن ثمة مكان في مدينة "الرياض" يمكن للحب أن ينمو فيه علانية، اصطحبها إلى صالة السينما. فالشاشات البيضاء وحدها كانت قادرة على احتواء العشاق الذين يجاهرون بالحب في تلك المدينة. أربعة أضلاع تتدلى من السقف، ومستطيل ينحصر بينهم، تلك هي المساحة الوحيدة التي تعيش فيها رعشات الشفاه التي لا تمُت للخفاء بصلة!

كانت ظهيرة شبه مبكرة لما استقل الاثنان مركبة فاخرة، وشرعا في التسلل بين الأحياء الباذخة. هناك في أقصى الشمال، حيث البنايات الشاهقة، والطرقات المدللة، تشبثت "نوال" بذراع الشاب الذي راح يقودها نحو غايتها. سلّمتهُ جسدها، وقلبها، وما تبقى لها من روحها؛ حتى تعاود معه اكتشاف المدينة التي تبدّلت من حولها.

في تلك اللحظة، فكرت بأن هذا الارتحال ينقصه فقط بعضٌ من الجمال؛ فاقترحت عليه أن يتخذ مسار ممتعاً مثل هذا اللقاء. قالت له ذات رحيل: اسلك ذاك المعبر الذي يمر بمعاقل الهناء، فأخذها عاشقها إلى حيث المسافة المؤدية إلى جسور الماء. ولما كان السبيل مكتظاً بالعابرين، أخبرها أن كل من في المدينة قد تخلوا من منازلهم، وتخلوا أيضاً عن القيادة في الشوارع التي تمر بالشقاء.

اقترح عليها مسلكاً آخر يحاذي السعادة ولكنه لا يتقاطع معها، فقالت له أن جُلّ ما أرادته هو أن تصل معه إلى حتمية وجهتها. تعبر بهما المركبة كل الحواجز الوهمية باتجاه الجنوب الغربي، فينكشف الجزء الدميم من المدينة تماماً، مثلما تنكشف تجاعيد بائعات الهوى المسنّات. تغيب ناطحات السحب، تتوارى الحدائق عن الأنظار، ولا يبقى في الطليعة سوى مبانٍ شيدها البائسون في مطلع الألفية الثانية.

لم يلبث كثيراً حين همّ "فارس" بالتوغل في تلك الأعماق. شمّر عن سواعد عزيمته، وراح يراوغ بالمركبة كل المناظر الخادشة للبهاء. منازلٌ مختبئة تحت أطراف الشارع الهاربة، منازلٌ منتصبة بواجهات شبه متآكلة، ومنازلٌ تريد فقط أن لا تكون مائلة. ولأن تلك الناحية من المدينة لم تبدو مألوفة للمرأة، ازدادت تعلّقاً بفارسها ثم سألته بريبة:

- كم من الوقت يلزمنا حتى نصل.
- دقائق معدودات.

كان خوفها شديد الحضور، فهي ولما تعلقت به، أثارت فضول قادة السيارات المجاورين. أحدهم نظر من الخارج نحوهما، حتى يبدي دهشته من رهبتها، فطمأنها "فارس" بصوته الدافئ الرصين:

- لا تقلقي يا عزيزتي.. فقريباً سنكون بَعيدين عن هنا.

أوشكا على الوصول، هناك عند إشارة للسير، وجد العاشقان نفسيهما محاصرين بشاحنة على الشمال وبفراغٍ هائل على اليمين. كانت الفرصة حينها ملائمة لأن تقول "نوال" لفارسها: سأصطاد هذه الرغبة التي تعبر الآن ذاكرتي. لذا، امتدت يدها لتلامس طراوة ثغره. وضعت سبابتها عهدة في التجويف

الذي كان بين شفته العلوية والسفلية، فطبع "فارس" عليها قبلة خفيفة. وقبل أن تبادر المرأة باستعادة اصبعها، قبضت شفتيه عليه تماماً، وكأنهما أرادتا أن تقول لها: إياكِ أن تتخلي عنا!

وما أن تدرك "نوال" أن أصابعها الجاهلة قد تعلّمت من ذاك الثغر طقوس العناق مجدداً، حتى تشرع في اختبار قدرتها على التحسس بملامسة المساحة المتبرجة من حلقه. تضع يدها في الإتساع الذي خلّفته أزرار ياقته المفتوحة، فتأتيها رعشة الروح، وتأتيها الرغبة في الالتصاق بعاشقها.

تقول له أن عقلها في عطلة، وأن قلبها في دوام رسمي، فيخبرها الشاب بأن الضوء الأخضر قد انطلق للتو، وأنه سيتعين عليهما مواصلة السير حيث الوجهة. هذه الراكبة، إنها وكلما دعته للحب، دعاها للتعقل، وكلاهما يصر على موقفه بشدة. تناجيه بخبث، تدعوه للمقايضة بكل ممتلكاتها. عقلها مقابل عقله؛ حتى ترى من منهما أكثر رجاحةً، فيخبرها مازحاً بأنه سوف لن يقع في فخ حيلتها، فإنها وعندما تحصل على عقله، سوف لن تكون راجحةً أبداً. وحتى لا تستاء محبوبته، يضع كفها بكفه، ثم يعاهدها بأن سيكون كل ما به ذات حين ملكاً لها.

باقي من زمن الوصول لحظة، وما تبقى من الحب عمرُ الياسمين. يصل العاشقان سوية، حيث المواقف المتكدسة بعربات الحاضرين. وعوضاً عن أن يبادر "فارس" بالتوقف على مقربة من البوابة الرئيسية، يتجه صوب بوابة جانبية تكاد لا تراها العين.

باقي من زمن الوصول ثوان، تمضي سريعاً قبل أن يتجلى من ذلك الباب المجاور عامل آسيوي. يهرول القادم صوبهما بخطوات واسعة، وقبل أن تمتد يده لفتح الباب، يقترب "فارس" من نواله ويضع على وجنتها قبلة لا تمت للحياء بصلة، فتقول له الأخيرة في عجب مُبين:

- كنتُ أظنك غير مؤيد لتبادل القبلات في الأماكن العامة.

أصابت المرأة عين الحقيقة بسهام ظنونها لما صاغها التواجد بجواره قلائد ذهبية تحاكي ببريقها تلك الخطوط الذهبية في عباءتها. أصابت المرأة حين حَدَت السعادة بهودج روحها، وحين غمز لها "فارس" بدهاء وقال لها:

- يا أولى المؤمنين باللحظات الجميلة، ويا آخر الكافرين بالسوء، إنني وأنا لن نكتفي من حبك.
- حتى ولو في الأماكن العامة؟
- حتى ولو في الانكشافات التامة.

ولأن العامل الآسيوي أطال الوقوف مثل شاهدٍ وحيد وبعيد، وضع "فارس" إصبعه على أزرار مجاورة، فتحرر باب المركبة دون معاونة ذاك الواقف خارجاً، سامحاً له بأن يتخلى عن مقعده فوراً. أما "نوال" فقد تسمرت في مكانها محاولةً أرشفة السابق من عبارات؛ حتى تستدعيها لاحقاً كلما اقتضت الحاجة.

يلتف الفارس حول المركبة بطريقة تلقائية؛ حتى يصل إلى الباب المجاورة لنواله. وما أن يضع يده على المقبض، حتى يُطلق سراح بابها. تهبط المرأة بكبرياء يتناسب كثيراً مع هيئتها، ثم تتلو ذلك باستدارة مُتقنة. نـزول فاخر، لحظة خاطفة، وعاشقة تقف بانتظار أن يهديها أحدهم ذراعه لتتشبث بها.

ومثل طفلة السعادة المزعومة، تتعلق "نوال" بالشاب، ولا تتخلى عنه، فيبدو الأمر وكأنها تريد أن تتباهى بما تملكه أمام من جاورها. ولكن العامل قد اختلى بتلك المركبة، وما من أحد سواهما في تلك الزاوية النائية، حسناً ما من مشاهد لتصبيه الغيرة حين رؤيتهما.

يشق العاشقان طريقهما نحو البوابة التي كتب عليها: "للمصرّح لهم فقط"، يعبرناه سوية، وما بعد العبور ممر مزدان بإضاءة بنفسجية خافتة. يتماديان بالسير في الممرات، فتفضي بهما المعابر إلى ساحة بها الكثير من الرواد. تتخلى "نوال" برفق عن ذراع عاشقها، فيسبقها فارسها نحو شباك التذاكر، وهي ما تزال عند عتبة التعجب متسائلة:

- ترى، ما الذي جعلنا نبادر بالدخول من ذاك الباب؟

يشير "فارس" إلى بضعة رجال أشداء يقفون بجوار البوابة الزجاجية الضخمة، ثم يقول:

- حتى نتجنب هؤلاك!

أسهبت "نوال" في النظر إلى رجال الحسبة الذين أخذوا يتحققون من البطاقات الشخصية لكل الداخلين، بينما استطرد "فارس" الحديث وهو يستطلع قائمة مطولة للأفلام:

- جهاز الهيئة مسئول عن التحقق من هويات الحاضرين؛ وذلك للحد من الخلوات الغير شرعية. يتوجب كل الرجال الراغبين في الحضور برفقة نساء أن يقدموا ما يثبت علاقاتهم بمرافقيهم.

- أوه!

وما أن أتمت "نوال" تأوهها الأخير حتى سارعت بالانضمام إلى "فارس"؛ ليستعرضا سوية تلك قائمة الأفلام المتمددة أمامهما.

- سكان السماء؟

طرح عليها "فارس" اقتراحا، فأجابته سريعاً:

- أنا لا أحب أفلام الخيال العلمي.
- ولكنه يتحدث عن امرأة فقدت زوجها في الفضاء.
- تباً لها، فما الذي جعلها تصعد معه إلى هناك؟
- قيل أنه أراد أن يبني لها بجوار النجوم قصراً، ولكنه لما انتهى من البناء، حزم أمتعته وعاد إلى الأرض.
- لا شيء أكثر غباءً من أن نأتمن أحدهم على بناء أحلامنا.

يوافقها الشاب الرأي بإيماءة، ثم يكرر الانغماس في القائمة التي أمامه؛ ليعود إليها بخيار آخر:

- موقف الماء؟
- الشابة التي خذلتها الحياة، فانتحرت غرقاً؟
- أجل.. إنها قصة تلك التي أطعمت زوجها أبجديات الحب كلها منذ أن كان طفلًا، وعلّمته كيف ينمو في السعادة بجوارها، ولما نطق أخيراً، قال "أحبكِ"، ولكنه قالها لامرأة أخرى.
- أشفق على النساء.. يزرعن أحلامهن ولا يحصدن سوى التعب.

تبدو جميع الاحتمالات المتبقية غير ملائمة لذائقة "نوال" ما عدا ذاك الخيار الرابض في ذيل القائمة.

يشير إليه "فارس" ثم يقول:

- ابنة النافذة.. ذكرت صحيفة محلية أنه قد تم ترشيح البطلة لنيل جائزة الأوسكار كأفضل ممثلة، وكأفضل جريحة، وكأفضل باكية، وكأفضل منتجة للدمع أيضاً.
- إنجاز مذهل.
- هل تريدين رؤيته؟
- كل نساء هذه المدينة يبكون ليلًا.. أجل.. إنني تواقة لمشاهدة تلك فاقت الجميع بمقدرتها على النحيب!

هذان العاشقان، يقطعان تذكرتين، ثم يمضيان مسرعين باتجاه قاعة متخمة بالحاضرين، فيصلان متأخرين. حيث الجميع متأهبُ لأقصوصة الوجع، يكون الازدحام موجوداً، ويكون الكل مذهولًا، وتكون المقاعد ممتلئة. ما من مكان شاغرٍ لزوجين متأخرين سوى مقعدين في الصف الأول ينتقيانه على عجل.

إليها البطلة، حيث هي، يصل إليها ذاك الذي قتلها بسبق إصرارٍ ليكتب على شاهد قبرها: "هنا ترقد زوجتي التي لم أتزوجها.. الآن قد رحلت روحي وتركتني على قيد الحياة"! كل تفاصيل ذلك الشريط التصويري كانت مستلهمة من واقع المجتمع السعودي بحكم محلية الإنتاج، أحلام العشاق التي تصلبت فجأة، الظلال الحدباء التي سرقت البسمة، وحتى حالات الشجر الذي سقطت منه فصول السنة. متى سيكتب الرُواء قصص معاناة لا تتحدث عنا؟

إليها البطلة، وقبل أن تموت، يصل إليها حبيبها؛ ليخبرها بأن جميع وسائله آسفة عن صنع باقة من السعادة تليق بها. ابن العائلة المتواضعة تلك يريد أن يتزوج فتاة أحلامه، ولكن أعمامها لا يُبدون موافقة لعدم تكافؤ نسبه ونسبها. إليها البطلة، لحظة الموت، يصل إليها حبيبها؛ حتى يناولها حقيبة سفرها، وحتى يقودها إلى النافذة ليقول لها:

- ملابس نومي.. زجاجة عطركِ.. وقصائد الشعر التي كتبناها سوية.. لقد حزمتُ لكِ كل الذكريات.. الآن يمكنكِ أن ترحلي بسلام !

تكون البطلة مؤمنة تماماً بفرضية الرحيل، فتقول له:

- يكفيني أن أثق بالماضي فقط، وأن أغادر هذا المكان مرتديةً الثوب الأزرق الذي أهديته لي.

تغمض عينيها بحرقة، تتحسس رداءها دون أن تراه، ثم تسأله بلهفة:

- هل أبدو جميلة؟

فيجيبها البطل بصدق:

- منذ بدء الخلق، كنتِ أنتِ الأجمل!

ولأن لحظات الوداع هي الأكثر وجعاً في كل النهايات، أبلغته البطلة سلامها، وقفزت بسرعة من النافذة. لربما كانت تلك الفتاة شغوفة بالحياة دوماً، ولكنها وفي هذه النهاية فضّلت الموت طوعاً على أن تُبذر حياتها بعيداً عن ذاك الذي أحبها. سقطت الفتاة، وكان صوت وفاتها خافتاً، تماماً مثل صوت الحب الذي كان يتردد في باطن قلبها. وحتى يفي الرجل بوعده، ذرف لأجلها كثيراً من الدمع، ثم ألقى بالحقيبة أيضاً وراءها. وما فائدة رفات الحب، فمن ذا الذي سيرث مخلّفات العشق من بعدنا؟

- الحشد المتجمع حولكِ يزعجني.. وداعاً حبيبتي.. فلم أعد أسمعك بعد.

قالها الرجل مودعاً، غادرت الشخوص تلك الشاشة البيضاء، فكانت النهاية أقل وجعاً من كل البدايات.

بخذلان، قال "فارس" حين توهم أن ثمة خاتمة أخرى تليق بقصة الحب تلك:

- في نعيم الراحة نامت البطلة تاركةً خلفها كل أعباء الحياة.. كم هي أنانية!

بخلاف "نوال"، أراد "فارس" للفتاة أن لا تغادر الحياة بهذه السهولة، لأنه كان بوسعها أن تواجه الحياة بجرأة أكبر! التفت نحو نواله، ثم سألها:

- ما رأيكِ بكل ما دار؟

- أدهشتني مقدرتهم على مزاولة الحب في الساحات، ومقدرتهم على التباهي علناً بكل ما يتهادون من قُبلات.

- وماذا عن النهاية؟

- أنا ممتنة لمقدرتهم على ممارسة الوفاة في الشوارع العامة أيضاً.

لم تتردد "نوال" في إبداء إعجابها بتلك المقدرة على الظهور والإظهار، ولكنها في أعماق قلبها كانت تدرك بأنه حتى وإن كانت قصص الحب جميلة في الشاشات، ستظل الحكايات المتوارية عن الأنظار هي الأكثر دهشة في هذه المدينة. وماذا بعد أن اعتاد سكان "الرياض" على ممارسة الحب في السر، سوى أن تكون أبهى لحظاتهم هي تلك التي لا تبدو جلية للعين المجردة. أجل، المخفي هو جمال اللقاء، هو جمال الروح، هو جمال اللحظة السحرية، وجمال الوقت الذي ينقضي سريعاً، دون أن ينال العشاق كفايتهم من العناق.

الفصل الرابع عشر: الجمع واحد.. والمفرد متعدد

ذات مرة قررت الريح أن تعبر الطريق الذي أمامها، سارت بكعبها العالي على انكشاف الإسفلت، فوجدت نفسها بالصدفة في مواجهة جنون السيارات الهائجة. اعترتها متلازمة الخوف، أصابها قليلٌ من الهلع، فسارعت بالتّكدس على الرصيف المجاور. وما أن ذبلت آخر نسائم خوفها، حتى عاودت ذرع الشارع بخفة واستعجال. سارت شمالًا باتجاه الحياة، فتعقّبتها السيارات مجدداً؛ لتجبرها على الوقوف بجوار إشارة ضوئية. ولأن كبرياء الريح نهاها عن الموت دهساً، قررت أن تنتحر عند أقدام صبي في الثامنة من عمره، راح يبيع المناديل الورقية بصمت. ماتت الريح طوعاً، وما من نسيم في تلك الآناء تبعها. ماتت، وما من هيف ورثت عنها شيئاً من رشاقتها.

وبجوار ضوء الإشارة الأحمر، توقفت ثمة سيارات مكلومة حتى ترثي الريح الباسلة، فحمل الصبي صندوقه في يده، وراح يتجول في المسافات القصيرة بين العربات الراكدة. استوقفته سيدة في مركبة سوداء فارهة، هرع نحوها، فاستفتته بقلق مفرط:

- ما الذي يجعلك تقف هنا تحت هذه الشمس الحارقة؟
- أنا أبيع المناديل يا سيدتي.
- أعطني مغلفاً إذاً.

رغم عدم حاجتها لتلك المناديل الورقية، إلا أن "نوال" أرادت أن تختلق عذراً كي تمنحه مبلغاً جماً من المال. دنت منه، فبدت بشرته من هذه المسافة القريبة داكنة أكثر مما ينبغي. تأملت سُمرة وجهه الغائبة عن أطراف يديه، فأدركت بأنها كانت نتيجة قسوة الهجير الذي اعتاد أن يلفح وجهه.

ناولها الصبي مغلّفاً، فخبأت في راحة يده ورقة نقدية كانت قد خطفتها خلسة من قلب حقيبة يدها. قلّب الطفل الورقة النقدية جيداً بين كفيه، تفقد تفاصيلها، وكأنها لم تكن مألوفة، فطمأنته السيدة:

- هذه مائة ريال.
- ولكنني لا أملك فَكَّة كافية.
- احتفظ بالباقي من أجلك، وسيبقى هذا السر الصغير بيننا.

ابتسم الصبي كثيراً في حضرة المنحة السخية، ولكن سرعان ما تحوّلت تلك الابتسامة إلى بكاء. ضاقت عيناه الواسعتان فجأة، غدتا مرتعاً للكثير من البلل، فتفحصته "نوال" جيداً قبل أن تسأله بحيرة:

- ما الذي يبكيك؟

جفف الصبي جبينه الملطخ بالعرق قبل أن يجيبها:

- مكيّف السيارة يا سيدتي.

أغمض الطفل عينيه جيداً؛ ليستشعر النسيم المندفع من فتحات التهوية الدائرية لسيارة "الرولز رويس"، وقبل أن ينغمس في ذاك النعيم أكثر، صرخت السيارات من حوله بأبواقٍ مُفزعة؛ لتبوح له برغبتها

في المسير.

تشبّث الصبي بصندوقه ثم تراجع بخفة ناحية الرصيف؛ حتى يحتمي بالإشارة الضوئية، وبذات التدرج الذي صاحب توقّفها، عاودت مركبة "نوال" سيرها بعد أن وقع مغلّف المناديل الورقية على المقعد المجاور. اخترقت المركبة الطرقات على عجل، قبل أن تتوقف عند إشارة ضوئية أخرى.

هذه المرة يرتفع صوت الرجل في سيارة "المرسيدس" المجاورة. يقول الرجل لزوجته كلاماً أشبه بالصياح الدفين تحت وطأة العمر. صراخ وعويل يعبران حاجز نافذتهما؛ ليتسللا إلى محيط هدوء القاضية التي بالجوار. يؤنب الزوج زوجته بعنفوان لا يتماشى مع وقاره، فتشيح الزوجة بوجهها على مضض، وتقع عيناها على عيني "نوال". ولأن الزوجة ما أرادت للغريبة أن تقرأ الجراح التي تركها زوجها في روحها، التقطت نظارتها الشمسية وثبّتتها على وجهها.

تُخفي عتمة الزجاج بعضاً من ملامح الزوجة، تحجب كثيراً من ألمها، ولكنها لا تستر حدة الكلمات وما خلّفتها من خدوش وشروخ. تتدحرج سيارة الزوجين ببطء على الإسفلت الناعم رغم ضوء الإشارة الأحمر، فيبتعد صوت المدافع قليلًا، وتشرق طفلة كانت تجلس في المقعد الخلفي.

متشبثة بالزجاج، راحت الطفلة تتدلى من فراغ النافذة وكأنها كانت تحاول الفرار من وابل التأنيب. تتبادل "نوال" وتلك الأخيرة التبسم لثوانٍ معدودات قبيل أن تحمل الصغيرة براءتها وترحل. حتماً، هناك دوماً شيء يعذّبنا سواءً كنا صغاراً أم كباراً!

ينطلق الضوء الأخضر مجدداً، فتتجلى "نوال" في البُعد، نحو شمال الله. تتابع هجرتها، وعلى الأزقة التي لا تنام تترك آثار رحلتها، لكنها سرعان ما تتوقف بجوار مجمّع فاخر لمكاتب محاماة. تبادر "نوال" بتغيير ترتيب الذرات في جزيئات اهتمامها قبل أن تفلح كيمياؤها في تركيب اسم صديقة لتهاتفها:

- أنا هنا.

فتجيبها المرأة على الطرف الآخر:

- حسناً، أنا في الطريق إليك.

قليل من الوقت يمضي قبل أن تتمخض صديقتها من بين البوابة الزجاجية للمبنى المجاور. هكذا بكل بساطة، امرأة في عقدها الخامس تجر بعضاً من البذخ خلفها. وجهها المفخخ بالتجاعيد لا تخفي معالمه حُمرة الشفتين ولا صبغة الخد، ووشاحها المنسدل لا ينجح في ستر خصلات شعرها الرمادية. قامة ممشوقة وبضع خطوات سريعة تقطع بها المرأة تلك المسافة القصيرة قبل أن تقع يدها على مقبض السيارة المعدني، وتطلق سراح الباب.

باتجاه عكسي يمتد جناح المركبة كي يرحب بها، فتتخذ القادمة من العرش الجلدي مقعداً لها. أما خلف المقود، فتكون "نوال" معتصمة بمقعدها. تضع هدوءها على مسندة الرأس لتُنصت إلى أغنية راحت تنزلق بسخاء. ومثل جُندٍ ينصتون لسلام وطني، تحافظ الصديقتان على هدوئهما في حضرة الصوت الذي راح يتردد جلياً:

"قال قايل عن حبي وحبك مش حلو.. تزكرلي بحياتك هالحب أديه إلو!"

تعزف "فيروز" على وتر من الذاكرة غير مبالية بما قد يوحي به لحنها المتساقط، وتصدح بنبرة لا يقوى على محوها الزمان مهما استفحل. طبقات صوتية منخفضة تقرع أجراس الذكريات، فتأخذ بـ "نوال" بعيداً كي تزور الشابة المغتربة التي قطعت آلاف الأميال برفقة زوجها، تلك الشابة التي حطت رحالها في بلاد لم تألفها. تأخذها الألحان إلى شابة اعتادت أن تشتكي كثيراً من كروية الأرض، إذ كلما هربت من زوجها عادت إليه مجدداً. لربما لو كانت الأرض مستطيلة حينها، لاستطاعت البائية أن تختبئ منه في إحدى زواياها.

ولأن اللحن قد كان طويلًا بعض الشيء، قررت "نوال" أن تزور الرجل الذي كان يغافل زوجته، ويرتّل على مسامعها صلوات الخديعة. ذاك الذي دأب على ممارسة المكر، إنه كان مطففاً في كفة حُب زوجته. كان يهديها الغش، وكانت تقدم له الصبر، ولما استنفذ الزوجان مدخراتهما، مات الحب بينهما:

"إزا كاين حلو وصفا مش حلو.. إلك مني وعليّ عيدو من أولو!"

بهذا الوعد اختتمت "فيروز" شدوها، فتوقف اللحن وتوقف سيل الذكريات فجأة. استدارت "نوال" صوب صديقتها لتحيّيها. وعوضاً عن أن تقدم أي عبارة ترحيبية بدأت حوارها بقولها:

- أريد أن أخلع زوجي.

مشدوهة مالت صديقتها نحوها لتسألها بتعجب:

- تريدين أن تخلعي زوجك؟
- اليوم، ولأول مرة منذ عشرة أعوام، أدركتِ أن المعنى الحقيقي للسعادة لا يكمن بجوار الرجل الذي أنتمي إليه.. لذا.. أجل، أريد أن أخلع زوجي!
- ولكن ما السبب؟
- أعتقد أن علاقتنا قد تجاوزت فترة صلاحيتها.
- جميع العلاقات الزوجية تمر بهذه المرحلة. هل حاولت زيارة أخصائية اجتماعية؟
- حاولت زيارة الذاكرة، فما وجدت هناك ما يقنعني بالبقاء.
- ماذا وجدتِ هناك؟
- وجدتُ ماضياً مشوهاً، وزوجة غُرر بها، وأصنافاً من الجراح لا تليق بـي.
- ولماذا لا تقومي بالتفاوض معه إذاً بشأن الطلاق؟
- أريد أن أخلصني بنفسي من مصيدتي.

تفقدت "نوال" محتويات قلبها قبل أن تنتقي عبارة من جوف صدرها وتردفها بما سبق:

- مثلما حَملتُ لقب "زوجة مخدوعة" لسنوات عديدة. أريده أن يحمل لقب "زوج مخلوع" لأعوام مديدة.
- وهل في خُلع زوجكِ إهانة؟
- في خُلعه رسالة.
- مفادها؟

- أنني امرأة يمكنها أن تُنهي علاقتها وفقاً لرغباتها.
- وما هي رغباتكِ؟
- أريد أنا ألقاه في قاعة محاكمة؛ كي أطلب منه عند المدخل حريتي المنهوبة. بكل الدمع المجدوع، بكل الحب الممنوح، وبكل الدعاء المذبوح، أريد أن أستعيد لحظات عمري المسروقة.

بدا لـ "نوال" وكأن عبارتها السابقة لم تُفلح في التعبير عن رغبتها بالقدر الكافي، فأعادت صياغتها على عجل:

- أنا لم أنتمي له بناءً على رغباتي. قادوني إليه كرهاً لا طوعاً. الآن وأنا أكثر وعياً، أريد أن أتخلى عنه بمشيئتي.
- يضمن لك القانون حق خلع زوجك متى ما توفرت المسوغات الشرعية لذلك. فهل تملكين المبررات الكافية لطلب كهذا؟
- أعتقد أن كراهية المرأة لزوجها مبرّر كاف لطلب الخلع.
- سيتعيّن عليكِ أن تكوني أكثر إقناعاً حال الترافع في محكمة الأحوال الشخصية.
- في واقع الأمر أنا لست بحاجة لأسباب مقنعة، فعلاقاتي الجيدة مع كل القضاة في تلك المحكمة كفيلة بترجيح كفة الميزان لصالحي.
- هذه ليست ضمانات كافية. كما أنه سيتوجب عليك أيضاً إعادة ما دفعه زوجك من صَدَاق.
- أملك من المال ما هو كافٍ لشراء حريتي.
- تتحدثين عن الزواج وكأنه نخاسة.
- كيف لا وقد باعوني جارية لرجل لا أعرفه. صفّدوا رغباتي، وسلّموني لمن لا يعرف حتى مقاس أحلامي.

صمتت "نوال" قليلًا قبل أن تتابع:

- نعم.. أريد أن أفاجئه بخطاب من المحكمة للحضور إلى دعوى الخلع مثلما فاجئني بعقد القرانِ الذي لم أتمناه يوماً.
- ستخدش دعوتك هذه صورة زوجك اللامعة في وسطه الاجتماعي، ستكسره كثيراً، وستحفزه على التصرف بحماقة قد تتسبب في إيذائكِ فعلًا. تذكري أنكِ إن سلكتِ هذا الدرب فما من مجال للعودة حينها. إ سوف تشعلين حرباً لا تخمدها أي هدنة.
- أنا امرأة لا تجيد الندم، ولا تحبذ السير في طرقات العودة.
- ثمة كثير من الأمور التي يجب أن تضعيها بعين الاعتبار قبل أن تتقدمي بطلب الخلع. هل تؤيد عائلتكِ قراركِ هذا؟ وما هي ردة فعل عائلة زوجك ذات العلاقات الاجتماعية؟
- كل ما تبقى لي من عائلة هو أخٌ يعيش في الطرف الشرقي من هذه البلاد. إنه وبعد أن توفى أشقائي الثلاثة في الحرب، انتقل إلى هنالك عمداً؛ كي لا تنشأ نقاط للتقاطع بيننا.
- بغض النظر عن المسافة، لا أعتقد أن عضواً سابقاً في مجلس الشورى كأخيكِ سيكون سعيداً بقرارك.
- ولن يكون سعيداً بالقرارات التي تليه.
- ماذا عن زوجك وعائلته؟ ألا تخشين مجابهتهم؟
- إنني أمارس حقاً شرعياً لا يمكن لأحد دحضه.

- لن يجرؤ أحدٌ منهم على دحضه، ولكنهم قادرون على استخدام نفوذهم لتسليط الضوء على حياتك الخاصة، وللتعرف على مكامن ضعفك؛ حتى يرغمونكِ على العدول عن قرارك. كل شيء سيكون تهديداً صريحاً بالنسبة لكِ، كل التجاوزات القانونية، كل الاستثناءات، وكل ما اقترفتهِ من محسوبية.
- إنني أتمتع بحصانة تحميني من أن أحاسب على أية أعمال قضائية أو أية أحكام أصدرها.
- تلك الحصانة لا تحميكِ من دعاوى الرشوة واستغلال النفوذ. إنها حصانة لحماية العمل القضائي وليس لحمايتكِ كقاضية.
- ومنذ متى كانت هنالك تفرقة في مجتمعنا بين الاثنين؟
- تأهبي يا عزيزتي، فأمامكِ الكثير لتخسريه.
- من أجل حريتي أنا مستعدة لخسارة الكثير.

أدارت "نوال" رأسها الملبد بالذكريات حتى تُفرغ امتلاءه، فباءت محاولتها بالفشل. ثمة صور مؤرشفة دلفت من باب خيالها بلا تصريح مسبق، دخلت دونما استحياء، ولم تترك على الباب طرقاً. بدون أية مقدمات أعادتها تلك الذكريات إلى مأدبة عشاء أُقيمت قبل عدة أعوام. قضاة ومحامون ورجال أعمال يختالون بنفوذهم، وهي من بينهم سيدة تتجاذب أطراف الحديث.

يختلي بها أحدهم آنذاك، فيعرض عليها رغبته في شراء عدد من الوحدات السكنية في البرج الشاهق الذي يملكه زوجها مقابل حصوله على تسهيلات قضائية. لم يبدو العرض الذي قدّمه الرجل حينها شائناً أو غير متوقع فقد مهّد لها زوجها الأمر مسبقاً.

تذكرت "نوال" لحظة أن غدت تلك الاتفاقية بدايةً لعدد لا متناهي من المقايضات والأحكام المسبقة الدفع، وتذكرت جيداً ذاك الكم المخيف من المعاهدات، والصفقات، والريالات. ولأنها كانت وحدها المسئولة عن ازدهار ذاك البرج السكني، تنازل لها زوجها عن ملكيته كي تهنأ وحدها بما جنته من مدخرات.

في واقع الأمر لم تعتد "نوال" على تسمية هذه الممارسة بالارتشاء، بل كانت تسميها تهادياً. ولأنها كانت تكره الهدايا في صورتها النقدية، ابتكرت أسلوباً جديداً في التهادي وأدرجته تحت بند "تبادل المنفعة". وما لا جدال فيه هو أن ممارسات "نوال" تلك لم تكن بالغريبة أبداً، بل إنها كانت متوافقة تماماً مع العادات المتفشية في مجتمعها. في الحقيقة، كانت تلك التصرفات مستمدة من المفاهيم الرائجة في مجتمع يعتّد كثيراً بمُفردات الواسطة وثقافة المحسوبية. "نوال"، وبكل بساطة، كانت تتنفس الحياة بأوكسجين ملوّث، وتزاول مهامها وفقاً لما هو متعارف عليه محلياً.

فجأة باغتتها صديقتها المحامية بسؤال انتشلها من بحيرة أفكارها:

- ولنفترض جدلًا أن الأمور سارت على ما يرام. ماذا بعد الخلع؟
- كل شيء جميل سيكون من بعده.
- هل تخيلتِ الحياة بلا زوجكِ؟
- ستكون امتداداً لقصة الحياة التي لن يكون زوجي أحد أبطالها.
- وكيف ستكتبين عملًا أدبياً كهذا؟

- في قصتي سأكون البدء والمنتصف والخاتمة، ولولا وجودي، سوف لن يكون هنالك فهرس ولا قائمة.
- وماذا عن الهوامش؟ ماذا عن الملحقات؟
- سأتخلى عنها جميعاً، وسأشير إلى المصادر الخارجية باستفهام العلامات.
- ذلك سيكون محرّضاً على أن ينشر زوجكِ دواوينه الخاصة أيضاً.
- سيسعدني حينها أن يرسل قصائد حُبه إلى زوجة جديدة. فإعادة إنتاج الطمأنينة أن أعرف أنه قد أحب غيري من بعدي.

تطهو صديقتها الكثير من أفكارها في إناء الحيرة، وكأنها كانت تعيد محاولة الفهم، ثم توقد نار التعجب أسفل الكثير من التساؤلات:

- مشاعركِ تفوّقت على المنطق هذه المرة. يا صديقتي، أنت لا تفكرين بعقلك بل بقلبك. هل وضعتِ نظر المجتمع بعين الاعتبار؟
- المجتمع السعودي لا يضع المطلّقة والمُخالِعة في نفس الكفة، فالزوجة المطلّقة هي امرأة مُسرّحة لعيب فيها، أما الزوجة التي تُقدِم على الخلع فهي إما مُعنّفة أو مُرغمة على الزواج.
- سواء كنتِ مطلّقة أم مخالِعة، سوف تواجهين الصعوبة ذاتها عند رغبتكِ في الزواج مجدداً. سيهاب الرجال، سيجلدونكِ بسياط اللوم، وسيخشاكِ الرجال لأنكِ ستكونين بنظرهم أكثر قابلية للتمرد والعصيان.
- متمردة لأنني تجرأت على الخلاص من الضيم؟
- متمردة لأنهم ما اعتادوا الإنصاف بحق النساء!
- ليس كل الرجال في الجهل سواء.
- ولكنهم جميعاً مصابون بذات الوباء.
- سيبتدع النساء لأجلهم وصفة دواء.
- ولكنهم سوف لن يتماثلوا أبداً للشفاء.

تنهمر على "نوال" تفاصيل تواجدها بجوار فارسها، وتنهمر عليها أيضاً ذكريات الرقص والموسيقى والخلوات، فيزداد إصرارها على التمسك بموقفها، ثم تقول:

- في كومة القش تلك ثمة رجل مُحصن من ذاك الوباء.
- حتى وإن بحثتِ فستضيعين في كومة القش، وسوف لن تعثري على الإبرة.
- أنا لست بحاجة للبحث، فقد عثرت عليه مسبقاً، وعثرت على البهاء.
- يبدو أنكِ قد اتخذت قراركِ بالمخالعة مسبقاً، فأنتِ لستِ هنا من أجل استشارة!
- أنا هنا حتى أُشعل في هشيم هذه الزيجة شرارة.

الفصل الخامس عشر: الطيور لا تحدّق في السماء.. بل تطير فيها

وحيدة في تلك الساعة المتأخرة من هدوئها، أحكمت "نوال" إغلاق النوافذ. رتّبت وسائد حجرتها، ثم أشعلت شمعاً عطرياً لم تشعله منذ حيرة. راحت تخاطب روحها في ذاك الهزيع من الليل وهي تبحث عن المسافة المؤدية إلى سريرها. ولأنها لم تفلح في العثور على الطريق، اتبعت "نوال" بوصلة القلب، فوجدت نفسها بجوار نافذتها.

طرقت الزجاج بأطراف أفكارها، فكانت طَرقاتها حادة وسريعة، مثل قطرات المطر الساقط بالخارج. شرعت في تأمل الثقوب الواسعة في سقف السماء محاولة البحث عن مواضع التسرب، فلم تجد في ذاك الارتفاع سوى بقع العتمة. بالأمس ذرفت سماء "الرياض" فيضاً من ندمها، وقبل ذلك بأسبوع سقط الكثير من مائها. يا ترى، ما الذي يجعلها تبكي كثيراً هذا العام؟

"نوال" في مواجهة ذاك الهطول، إنها ترنو إليه بأقدامها الجافة، تريد ولو لمرة أن يصيبها ببعض من بلله. ولأن الأمنيات سلاسل متصلة، أعادتها تلك الرغبة إلى ذكريات الطفولة، حين كان المطر يبلّل خصلات شعرها الغجرية. كم من مرة اغتسلت بذلك الفيض السماوي، وكم من مرة تحسست قطرات المزن بأناملها. حينها، كانت أسمى الغايات أن لا تحرمها الحياة من رطوبة روحها. تباً لأمنيات الطفولة، فإنها في هذه المدينة لا تتكلل إلا بالفشل!

يهبط سقف السماء قليلًا حين يشتد المطر، فتكون النافذة قريبة من جارتها الجديدة. وعندما كانت السماء ترتدي فستانها الملبد بالغيوم، قالت لها النافذة:

- أنا أيضاً أتألم.. ولكن لا تكترثي.. واصلي بكاءكِ.

فأجابتها السماء:

- أنا فقط أريد أن أحدّثكِ عن أحزاني.

حاولت السماء أن تتودد جارتها، طلبت منها صداقتها، فرفضت النافذة طلب صداقتها، واختبأت بعجل خلف ستائرها. حسناً، وبعد قسوة التخلي تلك، مَن ذا الذي سيتوقف عن البكاء حينها؟

تعود السماء لذرف المزيد من الدمع، فتزداد الأرض من دونها بللًا. ولأن التبلّد يليق كثيراً بالجمادات شرع هاتف "نوال" المحمول في الرنين دون مراعاة لما سبق ذكره من أحزان. تمايل الهاتف مِراراً، تراقص على نغم أغنية المطر، فكانت اهتزازاته كافية لاسترعاء انتباه السيدة التي حملته على عجل؛ حتى لا يُفسد طقوس البكاء تلك. كطفل مدلل، لم يتوقف الهاتف عن التأرجح حتى وقعت سبابة السيدة على المساحة المستطيلة الخضراء بشاشته.

يصمت الهاتف هكذا دون أية مقدمات، فيغيب نحيب السماء فجأة، ويتهادى إلى المسامع صوتٌ أنثوي ينبض بالحياة:

- يا لكِ من فتاة شقية!

فاتحة الحوار تلك كانت تليق كثيراً بـ "عبير" التي أنصتت لمتزوجة من شدة الشبق هي عذراء:

- أجلَسني في هودج حضنه مثل طفلة من نرجس، أعطاني لعبة قلبه، وأعطاني شفتيه كقطعتي سكر.
- هل كنتِ سعيدة حينها؟
- كنتُ أكثر النساء سعادة، وأكثرهن إدراكاً لمعنى الحياة.
- وما هو معنى الحياة؟
- أن تجدي نفسكِ في المكان المناسب تماماً.. مع الرجل المناسب تماماً.

تستعيد "نوال" بعضاً من التفاصيل قبل أن تتابع سرد أحداث سعادتها:

- حملني ذات حين، ورقص معي على أنغام الجاز. كان يمسك بـي جيداً، يضع يده في راحة يدي، ويأخذني بعيداً حيث لا أدري.
- وهل كان يجيد الرقص؟
- كان يجيد الرقص، والعشق، والحياة أيضاً.

تنهدت "نوال" وكأنها كانت تتلذذ بما انهمر من ذكرى، ثم أغمضت عينيها حتى تنصت لفريق العزف الكوني. وبالرغم من أن الزجاج قد حال بينها وبين أنشودة السماء، وضعت جبينها على سطح الزجاج؛ كي تصغي لصدى تراشق قطرات الماء.

يجود الودق عليها بهطوله، يطرق الأرض من حولها، فتتذكر "نوال" أن على الطرف الآخر من سماعة الهاتف امرأة ما زالت تنصت لها بإمعان. تتلعثم "نوال" مراراً ثم تعاود تلاوة أقصوصتها:

- ميمونة تلك الساعات القصار لحظة أن فرش لي السعادة سريراً، ووسدني قلبه الأوحد. لا أذكر كيف أو لماذا، ولكنني أذكر كيف أن غفوت على صدر رجل مثلما لم أفعل من قبل.
- هل نمت على صدره فعلًا؟
- انسكبتُ على صفاء روحه، قصّ علي الكثير من قصص الحب، ثم نام.
- وماذا بعد الصعود إلى سرير المنام؟
- استيقظت في الحب وحدي، فما وجدته بجواري. كدت أن أُجن حينها؛ فمجريات ذاك المساء لا تليق بأن تكون مجرد أحلام.
- وهل عثرتِ عليه؟
- وجدته على الأريكة المقابلة لي نائماً.
- لكن.. ما الذي جعله يتخلى عنكِ حينها ولو للحظة؟

يغيب اليقين كثيراً في حضرة ذاك السؤال، وهل يجري البحر الأحمر شمالًا، أم يسير نحو الجنوب؟ لربما لو كان "فارس" موجاً لقفز ناحية الشرق، وهبط مع الشمس في لحظة الغروب، فمَدّ قلبها وجَزره جعلاه في الحب تائهاً، يتصرف بغرابة في لحظات الوضوح. في غالب الأمر، إنه قد انزوى في تلك الأريكة خشية أن يتجاوز ما رسماه سوية من حدود، ولعله قد هرب إلى هناك خشية أن يتعلق كثيراً بامرأة لا تنوي الخلود.

بلا برهان، وبلا عين تجادل، كانت "نوال" على حافة الشك تصطاد مُؤَكِّدَها. تلك، هناك صيادة ماهرة

تمسك بصنارة أحداثها، وتربط في طرف الريبة خيط أفكارها. تلك، هناك صيادة حالمة، وبين يديها سمكة تهتز. يبدو أنها قد اصطادت جوابها:

- لا أعلم لماذا.
- ما الذي تعلمينه إذاً؟
- أعلم أنه قد أخذ بيدي في أثناء ذاك الدابر الذي لا يعود، ودعاني لرؤية الذي لم أعتد أن أره. من زاوية منفرجة، وقفنا سوية؛ حتى نرى كافة الاحتمالات. حملني بين يديه عالياً، فإذا بـي أنثى لا تخضع لقوانين الجاذبية والسقوط. كنت أسمو بالأعلى كثيراً، وكان النساء من دوني حزينات، ومطلقات، وخائبات، وبداء الكدر مصابات.
- حتماً، ما أبهى تلك اللحظات!
- ولعل الدهشة فاقتني كثيراً حين هربنا سوية؛ لنتأمل خريطة الحياة.
- خريطة الحياة؟
- رفوف تعلوها قناني فارغة لمشروبات، حيث كل زجاجة تمثل شريحة من طبقات المجتمع المتنوعة.
- ما الذي يجعله يقتني زجاجات فارغة؟
- إنه يستعين بها حتى يستوعب الحياة بشكل أفضل. تلك الزجاجات بمختلف أوصافها كانت مناسبة تماماً لخلق صورة طبق الأصل للناس الذين من حولنا.
- شابٌ وسيم يستمع لموسيقى الجاز، ويجيد الغزل، ويرتاد السوق السوداء ليجمع فقط الزجاجات الفارغة. أخشى أنكِ حالمة، فهذه المدينة ما عاد بها رجالٌ يتحلّون بهذه الأوصاف.

جاءت عبارة "عبير" الأخيرة لتذكّرها بمدى نُدرة الذي عثرت عليه مصادفة في قارعة هزيمتها. جاءت العبارة لتذكّرها بذاك الذي لا تراه بعينها، بالرغم من أنه قاب قوسين أو أدنى من قلبها، ولتذكّرها بذاك الذي حتى في الغياب يكون بريقه كشيء من نور الجنان. جاءت العبارة، وجاء بعدها تساؤل لا يقل أهمية عنها:

- وهل قرّرتِ أن يكون المتبقي من عمركِ مشابهاً لتلك الأمسيات؟
- أعتقد أنه قد حان الأوان لأن أستقيل من جحيمي.

ترددت "نوال" كثيراً قبل أن ترفق جملتها السابقة بما يلي:

- لقد اتخذت اليوم أولى خطوات الإنعتاق.
- .. وهـي؟
- لقد تجرأتُ على البت في قضية الخلع.

ثقيلٌ مطر الليلة، وشرس ذاك الرعد، لما أن غدت معزوفة الليلة أشد هيبة ووقاراً مما مضى. إثر الخبر المشاع، صارت الزخات حاضرة بالقرب من امرأتين تتهاتفان ولا تتحدثان. صنف ثقيل من أصناف الصمت تخلل حوارهما، فماتت كل العبارات بغتة، وما من شيء أعاد صحوة الكلمات سوى بحة صوت "نوال" التي جاءت فجأة:

- أعتقد أنه قد حان الأوان لأن أتجاسر على هزيمتي، وأن أفلت من زوجي؛ كي أكتب نهاية محتملة لهذه القصة.

من المؤسف حقاً أن نستدرك رغبتنا في الهروب بعد أن قطعنا شوطاً طويلًا. من ذا الذي سيعوضنا عن

أميال الفقد؟ من ذا الذي سيكافئنا على نـزيف الحسرة؟ من يا ترى يبارك لنا هول خسائرنا؟

في مكان ما، في مكان عميق بداخلي، عثرت على الطفلة التي ضاعت مني. ربما قد تأخرت في العثور عليها، ولكنني وأخيراً وجدتها. منكسرة كانت، أو حزينة ربما. ولكنني سوف لن أدعها هكذا، في قارعة الويلات طريدة. سأتكفل برعايتها، وسأجعلها تنمو كثيراً بلا أحزان.

قالتها "نوال" ثم استطرت حديثها بنبرة أكثر جدية:

- ستكبر الطفلة بجوار فارسها حيناً، أو هكذا على الأقل أريدها. ستنضج مجدداً وفق قوانين النمو الملائمة لها، ستمارس حقها في أن ترتكب كل الحماقات، وسيكون بجوارها هذه المرة من سيصفّق ويغني. ستكبر الطفلة مجدداً. ستكون واعية، ستكون ساذجة، ستكون رزينة، ستكون طائشة، ستكون حصيفة، وستكون أيضاً جاهلة. ستكبر الطفلة بـي أبداً، صدقيني، وستعاود اكتشاف الأوكسجين، والكربون، والمرح، وثاني أكسيد الأفراح.

تأوهت "عبير" حين كان الحديث شاعرياً، فهي الأحرف قد عزفت لها كثيراً على وتر الأحلام. وحتى لا تبدو الآهة وحيدة ويتيمة، أتبعتها "عبير" بسؤال:

- وهل سترتبطين به بعد الخلع مباشرة؟
- لقد أهدرت من عمري ما يكفي لخلق حياة جديدة.. أجل، سأنتقل للحياة بجواره على الفور.

ذاك إصرار تبنته زوجة بائسة، ولكن ما كان الذنب ذنبها، يوم أن أرادت رجلًا تكتشف في منجم صدره أحجارها الكريمة. لأعوام نقرت في صخر الصبر، لأعوام سارت في ظلمة الكهف، ولكنها ما عثرت إلا على رفات خيبتها. خذلتها جيولوجيا الحياة، وخذلتها كثيراً، فجعلتها تبحث عن النفيس في مناجم الفحم. الحياة، أجل لقد خذلتها، حتى كادت أن تموت كالحفّار فوق معولها، وفوق المتبقي من أحلامها.

كل الأمنيات تستوجب كفاحاً، وإني فقط أخشى عليكِ من العقبات.

قالتها "عبير" بقلق مفرط ثم أردفت:

- ليت الأحلام تتحقق بسهولة ليتنا نملك مصباحاً سحرياً للمعجزات.

أقحوانه رجاء نمت فوق جبين الأمنيات، ويقين ظهر في مخيلة امرأة ترفض أن تكون للضيم خاضعة. لن يستطيعوا اقتلاع جذورها، لن ينجحوا في منع وقوفها، ولكن إن جفت ماء المناضلة، فمن ذا الذي سيسقي لها عروقها؟

"نوال"، نصفها سارح في الأمس، ونصفها الآخر منشغل بالغد، فمتى يا ترى ستعيش يومها؟ إنها، وياللحسرة، تقطن في مدينة يسكنها نصف يلعن الماضي، ونصف آخر يخاف القادم، فيا ترى من في هذه المدينة سعيد بالحاضر؟

كان المطر يُقلق سقف السماء بهطوله الذي لا يقف، وبرعده الذي يسبب الضجيج للعالم. "نوال" تقف على مقربة منه، لتشاهد قطراته التي تلعب بغباء مع النافذة التي صعرت خدها. أنثى الصبر هناك، مُصرّة على ملامسة الرطوبة بجبينها. تُسند قلق أفكارها على الزجاج، تتبنى شريعة السكون، فيبدو الصمت جميل جداً أمام المطر. وما أن تُهدئ السحب من روعها، حتى يتوقف الهطول تباعاً، وتعاود "نوال" حديثها:

- هذا الماء الأزلي.. إنه يزيل تراب النافذة.

إنه يغسل ردن الخطيئة وبقايا الذكريات المؤلمة أيضاً.
لكنه لا يُحرك رغبة، ولا يغيّر سكون العاطفة.
هل جربتِ الوقوف تحته، إنه يغسل المخاوف والشكوك حتماً.
هاكِ إلحاحي، فأعينيني على إزالة قيود معصمي
يا طفلة الشقاء، ثمة باب خشبي في زاوية قصرك، أعبريه، فإنه سيقودُكِ إلى الخلاص.
ولكنني كلما فتحت الباب، وجدتُ حدائق حيرتي
تجاهليها.
إنها تمتد لمسافات طِوال، فكيف لي أن أراها.
سيري عبرها مغمضة العينين.
ولكنني لا أجيد السير على الأقدام.
حسناً، أطلبي عون فارسكِ، وإن أصابك دُوار الهرب، فاعتصمي به حتى يعينكِ على الفرار.
ولكن ماذا إن تخلى عني؟
لن يتخلى عنكِ رجلٌ ترك لأجلكِ كل النساء
في معجم الحياة هو أعمى وأنا مجنونة، فمن سيثق بنا؟
لا أحد سواكما!
في معجم الحياة كلانا يخشانا.
وكيف ذا؟
أنا أخشى أن يستعيد بصيرته.. وهو يخشى أن أفيق من جنوني.
افقئي عينيه وليسرق هو عقلك.
ولكنني لا أريد أن نكون في الحب مشوّهين!

كانت تلك الرغبة واقعية فعلًا بالنسبة لامرأة خاضت حرب التشوهات مسبقاً. تلك الملتحفة بالكثير من الجراح، إنه لمنطقيّ أن تبدي مخاوفها من أية أوجع. ولأن السماء قررت أن تكون وقحة بقراراتها، ولأنها أرادت في ذاك الليل أن تعاود البكاء، صار صوت نواحها مرتفعاً نسبياً، فهمست "عبير" لصديقتها قبل أن يزداد منسوب الماء:

- كفي عن الارتياب يا جميلة، واخلدي الآن للنوم، فالتفكير آناء حضور المطر مؤلم جداً.

الفصل السادس عشر: حتى وإن رحلت الريح.. سيبقى كرسيها هزّازاً

يحدث أن يحاول رجلٌ لمّ شمل أوجاعه، فيربط مفاصل آلامه بآهة وزفرتين. يقف أمام لوح زجاجي يتأمل تفاصيل وجهه، فلا يجد سوى ريبة تمتد من اليسار إلى اليمين. ولأن انكماشات بشرته حديثة، يتحسس تجاعيد أحزانه المنتشرة على صفحة الجبين. تغرق أنامله كثيراً في انبعاجات لا تنتمي له، فيُدرك الرجل متأخراً أنه ينتمي إلى فصيلة المسنّين.

يحدث في هاجرة ذاك الأربعاء أن يحاول الرجل ترتيب هيبته، فيفشل فجأة في تحقيق غايته، وتسقط أصابعه العشرة بعيداً عن راحته. ينحني ملياً ليلتقط ما سقط منه، ثم يعاود بوجلٍ تهيئة أطراف قلقه، فيكون متدحرجاً في كومة صمته، ويكون متسائلًا بصوت حيرته، يا ترى من ذا الذي يعيد ترتيبنا حين تصيبنا متلازمة فوضتنا؟

يحدث أن يفقد الرجلُ ميزانه، وتوازنه، واتزانه، إذ لم يكن المُضي قُدماً مريحاً لأمثاله. يسلك ببطء منعطفاتٍ اللايقين، يجر خلفه أعباء السنين، ولا يُفكّر مطلقاً فيما إن كانت هزائمه جلية، أو إن كانت ملامحه مؤذية للعين. جلّ ما يراوده حينها رغبةٌ في أن تعبره أحداث هذا اليوم، دون أن تُخلّف المزيد من الضوضاء أو الرنين.

يحدث أن يبالغ الرجلُ في السير، فيشعر بوحدة تكفي لأن تجعله يصادق الريح. يلاطفها، تحدّثه يطلب عونها، فتأخذ بيده، ويعبران المسافة سوية نحو غايته. وما أن تطمئن الريح عليه، حتى تغادره مسرعة؛ كي تبحث عن ضال آخر تَهديه. لربما أراد الرجل للريح أن ترافقه حينها إلى المبنى المجاور، ولكن الريح آنسة عذراء لا تختلي بالرجال، وتخشى أروقة المحاكم!

يحدث أن يفر الرجلُ إلى ساحة للنزاع، بعد أن وَفَت الريح بمغادرتها. هكذا في الأيام وحيداً، هكذا دون أي معين، رجلٌ تقوده قدماه المرهقتان إلى قائمة المختصمين. ولأن الأسماء تُقرأ بالقلب لا بالعين، يصيبه هبوط مفاجئ لحظة أن يلمح اسمه واسم زوجته في خانتين منفصلتين.

يحدث أن يلجأ الرجلُ إلى السماء، وفي ابتهالاته الأخيرة يدعو الله أن يمسخه حكاية بلا تفاصيل. ولأن صلاحيات شجاعته منتهية، يصل الرجلُ متردداً إلى قاعة يكون الحشد بها مألوفاً. في حجرة يتردد فيها صدى الترقب، يكون الأب سائراً، ويكون الابن شاهداً، ويكون الجد نائماً، وتكون الزوجة متنازعة. تلك الحجرة التي تكتظ بالتأملات، يكون الصمت بها عابراً، ويكون الحديث تائهاً، ويكون الحظ واقفاً، وتكون المرأة قاضية.

يحدث أن يتبوأ الرجلُ مقعده من الحياة، كرسيٌ من لا قصب، وما من أحد بجواره؛ كي يعينه على إسناد أعباء السنين. يستدير بتشوهاته صوب القاضية، فيأتيه صوتها الأنثوي مؤنباً:

أنتَ متأخر.

ولكن ما من جديد في تلك العبارة، فرجل كمثله على علم مسبق بأنه قد جاء إلى الحياة بمجملها

متأخراً. إنه يعلم بأنه قد جاء إلى الحياة وقد كان الناس صياماً، معلّقين بحبال من السماء، زاهدين عن الحب، لا يرقبون أطفالًا، ولا ينظرون للساعة. يعلم أنه قد جاء بدعوات ليست من القلب، وبرغبات غير نابعة من الحب، وبتذكرة سفر منسية في الجيب، فلم يكن بانتظاره أحد.

يحدث أن يتجلى الرجل من غيابه قبل انتهاء المرافعة بثلاثين دقيقة، فتعتبره القاضية من الحاضرين. تراوده رغبة مفاجئة في تأمل وجوه الماثلين، فيستدير بتلقائية نحو اليمين. ولأن مسافات الحديث في تلك القاعة غير معبدة، يبادر الرجل بمد جسر من الحنين. يعبره سريعاً بعينيه الواسعتين، ولكن ما من أحد في الضفة الأخرى ليرحب به، ما من أحد ليبادله النظرات ولو لحين.

تكون تجربة العبور تلك غير مجدية، فيعاود الرجل أدراجه، ثم يشيح بوجهه صوب القاضية؛ ليحدّثها بكثير من الأنين:

- ذاك الذي هناك بشعره الأبيض، وبعلامات الهرم، إنه والد زوجتي. كالشيخ هو لا يعنيه أيٌّ من أطراف جسده، فلا قدماه تحملانه إلى الخيال، ولا يداه قادرتان على ملامسة الواقع.

يشير الرجل إلى الابن الذي كان ملاصقاً للجد، ثم يقول:

- وذاك الذي هناك كالوسيم، إنه ابني. وريث الفقر، ووليّ عهد الهزائم، إنه ولدي. إني وكلما أراه أقتبس شباباً يذهبون إلى الحياة بأيادٍ فارغة؛ كي يحاربوا من أجل البقاء. يصارعون أبناء الأثرياء من أجل الحصول على المنح التعليمية، والفرص الوظيفية، والعلاقات العاطفية، فلا يخرجون من تلك المعارك إلا بآثار الطلقات العشوائية.

يعيد الرجل تركيز أنظاره في الابن الذي لم يبلغ عقده الثاني بعد، ثم يبتسم بغتة، فتكون الابتسامة غير متوافقة مع المُتدفق من وُجُوم. وحتى لا تبدو ابتسامته غير لائقة بمجريات اللقاء، أتبعها الرجل بطُرفة:

- سيدتي، إياكِ أن تُنجبـي أطفالًا بملامح جميلة، فالأطفال كلما ازدادوا وسامة، ازدادت أحجام تعاستهم فكّري في إنجاب الأطفال القبيحين، أو في تبنّي اللقطاء من دور الأيتام، فالذين أتوا للحياة بعاهات مستديمة، لن تقوى الحياة على فتق جراحهم.

تمعّن الرجل في ابنه ثم استطرد:

- آه، كم أخشى عليه من القادم، فأمامه الكثير الكثير من النزاعات، والعثرات، والخسارات. لربما ستبكيني والدته عند رحيلي، ولكنها ستبكيه كثيراً في نهاية كل الغزوات. ستعلم حين يعود لها بالهزائم كل مساء، أن أشد اللحظات مرارة هي تلك التي تكون فيها الأم شاهدةً ويكون فيها الابن جريحاً.

لم يكن الرجل بحاجة للإشارة إلى المرأة التي كانت تجلس بجوار الشيخ والشاب، فقد كان قلبه يشير إليها منذ حضوره. يتشابه الرجل ويشي بنفسه، فيتلو تعريفاً يليق بتواجد المرأة وبحضورها:

- أما تلك التي هناك.. فإنها زوجتي.

أصابهُ جلوسها في الشطر الآخر من الحجرة بمتلازمة الفاجعة، فصمت فجأة، وماذا سوى الصمت نداوي به أوجاعنا؟ مؤلمة تماماً خيانة انتمائها لحزب الأعداء، فلطالما ظنها ستكون بجواره وأن لا تتخلى عنه مهما شاءت الأقدار. ذاك الساذج، إنه وبلا ريبة قد دفع غالياً ثمن تلك الثقة المفرطة، فصوته المنكسر بدا متأثراً بوخزات الندم الموجعة.

أحكَم الرجل تأمّل زوجته، وما أن تماثل للشفاء من تلك الفاجعة حتى استكمل تعريفه المبتور للمرأة التي لا ولاء لها:

- تلك التي هناك هي المرأة التي جاءتني على حين غفلة؛ كي أعي تماماً أن سعادتي تتأخر مثلي في الحضور، ولكنها لا تغيب. إنها زوجتي التي فاجأتني بالفرح، والمرأة التي علمتني على يديها كيف أمارس الحياة، وكيف أتنفس برئة الفرح.

بادر الرجل باسترجاع ما لم تفلح في إتلافه السنون، فألحق عباراته السابقة باقتباسات من الذاكرة:

- إنها المرأة التي ألهمتني كتابة الشعر، والمرأة التي دفعتني إلى إصدار ديوان من أربعة فصول. بخريف سقطوها في قلبي الهش، هي المرأة التي كانت فصل الربيع في كل الأبيات، وهي قافية العشق وبداية التنهيد. بجوارها كنتُ أعيد توطيد علاقتي مع الأدب من جديد، ولو أن قلبها كان ينصت للشعر جيداً، لما وجدتها تقرأ أبيات غيري، ولما وجدتها تبحث في دواوينهم عن المزيد. ولكن ما أدرانا؟ لربما لم أكن نابغاً في الشعر مثلهم، ولربما لم أكن أملك المقدرة على صياغة الحب في مستهل القصيد!

ينزوي الرجل في قاع صمته تأهباً لكي ينهش ذاكرته المحشوة بالكثير من الخيبات، وتود القاضية أن تقاطعه، وأن لا تترك له مجالًا حتى يوقظ بداخلها جراحها الخاصة أيضاً، لكنها سيدة تدرك جيداً مدى أهمية الوقوف باحترام في حضرة الوجع. لذا، تفضّل القاضية أن تكون صامتة، ويفضّل الرجل أن يكون بلا وجه تقريباً.

حمل الزوج رأسه على كتفيه، وحاول جاهداً أن يثبّته في مكانه، فالذكريات الثقيلة الوزن جعلته بكل العفوان يتأرجح. وما أن انصرم بعضٌ من الوقت القصير، حتى أفلح الرجل في استعادة توازنه، وأفلح أيض في تلاوة المزيد من تنهيداته:

- أوه، لم يمض الكثير من الوقت منذ أن كانت تقبّلني زوجتي كثيراً، ومنذ أن كنت أمسح وجهي بيدي مثلما أفعل بعد كل صلاة؛ حتى أستشعر بركة قُبلاتها.

تنهيدة أخرى أطلقها الرجل بحرارة وهو يتابع:

- لا، لم يمض الكثير من الوقت منذ أن أخبرتني عن رغبتها في التوقف عن السير بجواري، وعن رغبتها في أن تنتهي زيجتنا مثل حلم طفل أدركه النعاس.

يتنفس الرجل بحرقة ازداد لهيبها، ثم يهمّ بقول كلام لا يشبه غيره من الحديث، فيكون لهيب أحزانه متمدداً من ثغره:

- لم أكن لأفطن حينها إلى لباقة اعتذارها، فامرأة غيرها لم تكن لتصبر على الوعثاء عقداً من الزمن. أذكر جيداً كيف أن كنت مستاءً حينها، ليس منها، ولكن من قلبها الذي يرسم الأحلام باللون الأسود. ولأن زوجتي كانت هزيمتي الأخيرة ذاك المساء، رافقتُها حتى باب المنزل بابتسامة تليق بذهابها، فتحتُ لأجلها الباب، ثم خرجتُ من الدار وحدي.

تستدير الزوجة صوب زوجها، هناك في أقصى الشمال، إنها ترى أربعينياً يجابه الكثير من الذكريات المؤلمة دون أن يسقط من علوه. تستمع إليه بصوته المنكسر كثيراً دون أن تحرّك ساكناً:

- أجل، بقميص النوم الذي خاطته زوجتي لأجلي، أغلقتُ باب رحيلها من خلفي، وسلكت من دونها تلك الدروب التي أمامي. هكذا بلا حقائب، وبلا أمتعة، غادرتُها وغادرتُ منـزلنا، فهاوية واحدة لا تتسع لزوجين، وجحيم واحد لا يكفينا. اتفقنا على أن تظل هي وابني في الدار الذي شيّدناه سوية، واتفقنا أيضاً على أن تبقى الستائر ولوح الجدران عصيّة على التغيير.

بمرارة المهزوم تابع الرجل الغريق في خيباته سرد الأحداث بلا كلل:

- ولكنها لم تفي بالوعد الذي قطعناه سوية، ولم تحافظ على بهاء بيتنا. وكيف لها أن تفي بالوعود؟ وكيف لها أن تتآمر على نفسها لتعيش بين ذكريات هزائمها؟ من بعدي قامت بطلاء الجدران، واستبدلت ستائر النوافذ. كل شيء في ذاك الدار أصبح لها وحدها، وكل شيء هناك لم يعد يذكّرها بـي.

وقعت عينا الرجل على زوجته التي راحت تتأمله، فلُجم لسانه بالأسود والأبيض. كل الكلمات توقفت في سقف الحلق حينما كانت سيدة قلبه تستطيع أن تحكي ولكنها لم تتكلم. فجاء صوته مجدداً ليقطع حبل الصمت الممتد بينه وبين امرأة قد أحبها:

- أنا لست مستاءً يا حضرة القاضية من امرأة عاونتني على مجابهة الفقر عشرة أعوام، ولكنني فقط يؤلمني قلبـي. كان بمقدورها أن تتخلى عني دون أن تُشرك غيرها بـي. أنا الذي هجرت النساء ببلاغة، تريد الآن أن تستبدلني بغيري. إنها تريد أن تستدل على الحب مع غيري.

غدا الرجل آسفاً من نفسه وكأنه كان ينعي سوء حاله حين استمر في حديثه:

- لأجلها تخليت عن لكنتي، وعن لهجتي. يا للسذاجة، كنت أظنها ستعود لي يوماً، كنت أظنها ستعود للبحث عن الماء في بئر قلبـي. ولكنها فضّلت التعفف بكل كبرياء عن شُح جوفي!

ثقيلة الوزن هي تلك العبارة الأخيرة، فهي قد نجحت في أن تجعل الزوجة تلتفت إلى جُملة من الحقائق التي جعلتها تبدو جاحدة لكل النعم. لكأن جسدها قد تمايل في نهر من اللوعة المنسابة، ولكأن قلبها قد فاض به نهر من الندم. فهي قد أشاحت صوب رجلها طوعاً، وتمنت أن تكون في تيار الحديث ذاك مجرد قارب صيد يطفو ويهتز. ولكن الزوج راح يُجدّف حديثه بعصا المرارة، فما كان لها سوى أن تتفادى سيل عباراته مثل سباحة ماهرة لا تستسلم للغرق:

- تريد الآن أن تتزوج أحد أبناء عمومتها، وكأنها لم تسمع بالوصية التي تقول "التعاسة متوارثة، فلا تتزوجي ابن قريبكِ". حسناً، إنه جسدها، ولتسقط كل رغبات العالم، ولكن ما ذنبـي أن يسكن داري ذاك الذي سرق أبهى ممتلكاتي؟

يحدث أن لا تكون هنالك إجابة شافية لسؤال عميق كهذا. كل الحناجر تتوقف عن البوح، حتى حنجرة الرجل الذي طرح سؤاله بغتة. تغيب الضوضاء لبرهة، قبل أن يعود مجدداً ذاك الصوت المثقل بالكثير من الوهن والإعياء:

- لم أكن لأنازعها على ملكية الدار، فلقد تنازلت لها عنه مسبقاً برحيلي. ولم أكن لأفضّل رؤيتها في قاعة للاحتكام، فامرأة مثلها لا أتردد في أن أهبها قلبـي. ولكنني فضّلت مشاهدتها اليوم في الجهة المقابلة؛ كي يقتنع قلبـي بحقيقة رغبتها في أن تنفصل عني.

يحدث أن يتخلى الرجل عن كل ما يملك من أجل امرأة أهدته أفراحاً وابتسامة. لربما كانت تلك المقايضة عادلة، ولكن الرجال في مجتمعه ما اعتادوا على تقديم هذا النوع من التنازلات ببساطة. إن الرجال في مدينته ما اعتادوا على تقبّل فكرة مكافئة زوجاتهم بالرحيل، أو فكرة منحهن كل شيء مقابل القليل من السعادة.

يحدث أن يقف الرجل فجأة. شاعر في القاعة يتألم حيناً، وعندما لا يكترث له أحد، يشير إلى خصومه ثم يقول:

- حضرة القاضية، تلك عائلتي التي ستفقدني ذات يوم. أعلم جيداً أنني قد ولدت وحيداً، ولكنني سوف لن أموت وحيداً، فعندما أغادر الحياة، ستموت أيضاً ذكرياتهم الجميلة معي.

هكذا قالها الرجل ببساطة شديدة، ترك من خلفه توقيعاً على صحيفة للتنازل، ثم رحل!

الفصل السابع عشر: يجدر بكَ اللحاق بي.. فنحن لنا مع الأمس موعد

- كُوني هنا على صفحة صدري، وسأقرأ لكِ صحيفة الأخبار.
- وماذا لو أنهيتَ قراءتكَ سريعاً؟
- سأقتبس لكِ من جوف صدري بعضاً من الأشعار.
- وهل تكتب الشعر؟
- لا، ولكن ستلهمني عيناكِ المليئتان بالأسرار.

أسندت "نوال" رأسها على صدر "فارس" المنكشف في ظهيرة شبه متأخرة، فكانت متعلقة به كثيراً لحظة أن شرع في استعراض صحيفتها الورقية. أغمضت عينيها عنوة؛ كي تجيد الإنصات إلى صوته الدافئ وهو يقرأ لها حفنة من التقارير الإخبارية، وتقلّبات الأحوال الجوية، ومعانات الآخرين اليومية.

هناك حيث أعمدة الكلمات، راح يسرد لها قصة الألم الذي تجلى في الطريق نحو رابية الخلاص، وقصة الأم التي نحرت أطفالها؛ كي تحميهم من التعاسة:

قيل أنها كانت تخشى عليهم من ذل السؤال.

وقيل أنها كانت تريد القضاء على أمراضها الوِراثية.

وما شأننا إن كانت السفاحة قد تزوجت ابن عمها المُعسر.

أو إن كانت ترى في أعين أبنائها فاقة أجدادها.

هي القاتلة، وهي الخاسرة، وهي الثكلى الوحيدة.

انتقل الشاب إلى خبر في الصفحة المقابلة، فقرأ لها قصة امرأة بيضاء أنجبت رضيعاً أسود، فخرج الزوج الأبيض من حجرة الولادة؛ ليشيع الخبر الرمادي. لوهلة ذكرتها تلك القصة بأسطورة الوالدة التي قصت لابنتها حكاية الجد الذي طرد ابنه من الدار، وبالحفيدة التي سألت جدها "لماذا ترمّلتْ أمي؟"، فقالت "نوال" بازدراء:

- تباً، لقد تذكرت للتو أنني أكره جدي!

تكون العبارة تلك ذات صدى مدوي، فيسارع الشاب بوضع الصحيفة جانباً، ويشرع في ملاعبة صفاء كتفها بأنامله. تحوم أصابعه كثيراً حول كتفها المستور بقطعة قماش حريري؛ وكأنها كانت تبحث عن منفذ، وما أن تفشل تلك الرحلة الاستكشافية، حتى تنتقل أصابعه لمداعبة خصلات شعرها المدلل كثيراً.

ولأن "نوال" أرادت له أن يداعبها بصوته الدافئ أيضاً، طلبت من فارسها أن يقرأ لها عامودها الأسبوعي المفضل. هذه الـ "نوال"، وذاك الذي يمدها ربما برعشة باردة، إنه كاتب أسبوعي كان يدّعي أن الأرض التي أرضعته الحب ما زال يناديها بـ "أمي". كاتب نشأ بمدينة صغيرة في إحدى زوايا الملكة، إنه يتغنى كثيراً بها، ويتوهم أنه كان هناك سعيداً ذات طفولة.

يعاود "فارس" قراءة الأخبار، فيُطلع "نوال" على فصول الحياة قديماً خلف أسوار تلك المدينة. بصوته الدافئ يرتّل لها تلك المقالة التي بدأها الكاتب بأقصوصة قصيرة عن رجال الحسبة وهم يهرولون خلف

الباحثين عن الخلوات، وبسرد مقتضب عن لحظة القبض عن إحدى المشعوذات. بدا وكأن الكاتب يحاول بتلك الاقتباسات أن يوقظ أرواح الذكريات من قبور الأمس وأقبية السنين، وبدا أيضاً أنه كان يقول للقراء "أفيقوا، فهنا ترقد أيامكم".

تساءل "فارس" بحيرة حين أتم قراءته:

وهل كان الكاتب حياً حينها، أم كان يتوهم الحياة في مدينته المنفية؟

لا شيء يدعونا لتصديق تلك الشائعات، وهل يُعقل أن يرتحل الفتيان مئات الكيلومترات؛ كي يتمتعوا بعطلة نهاية الأسبوع في دُول مجاورة؟

كانوا يرتحلون بحجة رغبتهم في زيارة الصالات السينمائية.

لا بل من أجل زيارة النوادي الليلة.

وما أدرانا فنحن لم نعش حينها؟

كم من الوقت قد مضى منذ أن تبدّل حالنا؟

مضى من الوقت ما هو كفيل بجعلنا نفقد صلتنا بماضينا.

كانت المقالة مفخّخة كثيراً بالفرضيّات التي يصعب تصديقها، لذا، تخلى "فارس" عن الصحيفة مجدداً، ثم أخذ يتعجب كثيراً من خرافة البؤس التي عاشها القدامى!

- لم أكن أعلم بأنكِ تحبين الفكاهة السوداء.

إنها مقالة تتحدث عن الماضي بلهجة عصرية.

ولكن الحديث عن الماضي يتطلب الجدية.

الحديث عن الماضي يتطلب القليل من الجد والكثير من السخرية.

ربما!

سيعرف الكاتب فيما بعد أنه لم يكن يوماً هناك.. ولم يكن ذات يوم هنا.

في أربعاء آخر من أيام هذا الشهر، لا ترى "نوال" أعوامها الماضية، ولا ترى سنتها القادمة. كل شيء بالسنبة لها مرتبك في حضرة تلك المقالة، وكل شيء أقل وضوحاً في هشاشة واقعها. تكون المرأة على الأريكة السوداء ولا شيء يفصلها عن جسد الشاب سوى رغبتها في أن تعثر على إجابة لسؤالها:

- ترى هل كان بمقدوري أن أحبك لو أننا قد عشنا وقتها؟

وما الفارق بين ماضيه وحاضرنا؟ في كل الأزمنة تقيّدنا أعراف مجتمعنا.

ولكننا الآن أكثر تحرراً!

الآن تبنينا شريعة التغيير، ما زالت حياتنا مشابهة لحياة أجدادنا.

لن أتراجع عن هذا الحب حتى ولو احتجّ عليه غيري.

عاودت "نوال" اللجوء إلى الشاب، تعلّقت به بشدة، فكان جسده البض مليئاً بالعُري، وكيف يكون العري قمحياً يميل إلى السمرة؟ قالت له بخوف وهي تشده إليها:

- هل نحن موتى؟
- لست أدري.

- ولكنني فقدت معنى الحياة.. كنت أظن أن بإمكاننا أن نتخذ قراراتنا بأنفسنا.
- ليس في مجتمعنا هذا يا جميلتي.. ليس في مجتمعنا.
- أظن أنني مشنوقة.
- لا أحد يُشنق في النصف الأول من العام.
- أظن أنني ميتة.
- أخبرني أحدهم ذات مرة أن الموتى لا يموتون، بل ينتقلون للحياة بجوار أولئك الذين ورثوا عنهم أرواحهم.
- وهل سأنتقل حين وفاتي للعيش بجوار أبي؟
- ليس قبل أن تستنفذي جُل ميراثك.
- هل تقصد تعاسته التي تركها من بعده؟ أم سعادتي التي لا يمكنني أن أُنفقها؟
- أخبرتكِ مسبقاً أنكِ قادرة على التبرع بهذا الميراث دفعة واحدة.
- ولكن الجهات الخيرية ستعيد تدوير أحزاني.
- إنهم وعلى الأقل سوف يقسمون أحزانكِ أجزاءً ثم سيوزعونها على أكثر الناس سعادة.
- أتعتقد ذلك؟
- أجل، فلا أحد يستحق أن يحيا وحيداً بثروتك الباهظة من الوعثاء.
- ولكن هل تجوز الصدقة على السُعداء؟
- صدقة الأحزان واجبةٌ على السعداء وكذلك الأثرياء.

تنزلق البرودة من جهاز التكييف حتى تحرث الهواء، وحتى يتدفق الوقت من ساعة الحائط، وحتى يتكثف الزمان أيضاً. هناك في حجرة الاستقبال، تنهمر الستائر على وجه النوافذ، فينهار الضوء في سلال العتمة، ويبدو المكان مُظلماً، لا بل ملائماً جداً لمرور الأمنيات. لكن ورغم تلك الأجواء، لم يكن هنالك أي عابر يهتز لأجله كبرياء المشهد. ما من صوت، وما من حِراك، فقط عاشقان اثنان بكل أناقة يتعانقان.

يراود "فارس" غزالته عن شرودها، فيوهمها بأن صدره سيكون دولة أفراحها. جنايتها كاملة، وهي الآن تريد أن تنتمي لعاصمة قلبه. صمتها بالفضيلة، ولكنها بتلك الرغبة مذنبة. لا، سوف لن تنفعها الحجج، فباطل يقينها رغبتها العارمة في الانتماء. تتكئ على صدره آثمة، ثم تعترف له بجريمتها:

- لو علمت أمي بهذا اللقاء لبادرت باغتيالي.

لو علمت أمي بهذا اللقاء لتباهت بانتصاري.
ولكنكَ لم تكسبني حتى الآن.
يكفيني انتصاراً أنني قد عثرت عليكِ.
وهل في العثور فوزٌ؟
في مجتمعي يموت الرجال مخدوعين، وقلة منهم يعثرون على ضالتهم.
إذاً لقد انتصرتَ أنت على الحياة.

- وستسعد والدتي جداً حين أخبرها بأنني سوف لن أموت مخدوعاً مثل غيري.

لن يسع لوالدتي أن تسعد بشيء.
هل لأنها ميتة؟

بل لأنها لم تكن لتستطيع أن تصف مشاعرها. فهي لم تذق ذات مرة طعم السعادة يوماً ولم تمتلك ذات مرة القدرة على التعبير عن فرحتها.

أووه..

والدتي ميتة.

ووالدتي تتمنى كل يومٍ أن تموت قبلي.

- هل ستعيد والدتك النظر بشأن رغبتها في الوفاة إن علمت بأمرنا؟
- أعتقد أنها ستستقيل من الحياة مبكراً.
- ولماذا لا تطيل البقاء؟
- إنها تريد أن يكون خروجها متزامناً مع الأخبار السعيدة، فلطالما أرادت أن تُدفن وعلى شفتيها ابتسامة.

اختبأت "نوال" خلف الأمنية تلك، وكأنها أرادت أن تقول "أنا أيضاً أريد أن أتبنى تلك الأمنية مثلها"، لكنها سرعان ما داهمته بسؤال آخر:

- لم تخبرني ذات مرة عن عائلتك؟
- أم مطلقة.. صبي مشرد.. وابنتان.
- هل يمكنك فعلًا أن تختصر سيرتك الذاتية في جملة؟
- يمكنني أن أختصرها أيضاً في كلمة.
- وهي؟
- تعاسة!
- ولكن لا تبدو عليك سوى مظاهر الرفاهية.
- لم يكن الحال هكذا قبل التحاقي بالبعثة التعليمية في المملكة المتحدة.
- وهل نحن بحاجة إلى مغادرة الوطن؛ كي نعيد ترميم أنفسنا؟
- نحن بحاجة إلى مغادرة أعرافنا؛ كي نعيد ترميم كل شيء يخصنا، ابتداءً من الروح وانتهاءً بمعتقداتنا.
- مدهشة جداً تجارب الاغتراب، فهي دوماً ما تجعلنا نستيقظ بغتة في منتصف جهلنا.
- إنها جعلتني أكثر رغبة في الحياة.
- وجعلتكَ أشد وسامة بلا شك.

ابتسامة يشدها أحدهما، ويجذبها الآخر، فتنشطر الابتسامة نصفين، وتنتهي بعدل على كلا الثغرين.

الآن، وفي أربعاء آخر من أيام هذا الشهر، يستجمع الاثنان أنفاس سقوطهما، وما أبهى ذاك السقوط. قد تكون الأرض متحركة تحتهما، وقد تكون مُلتفّةً أيضاً حول محورها، ولكن لا أحد منهما كان ليعير تلك التغيّرات الطارئة اهتماماً، فكلاهما كان يحلم بقبلة أخرى مستعجلة!

- هل تريدين الاستماع إلى بعض من الموسيقى؟
- أجل، ولكنني أكره الموسيقى التي لا تذكرني بك.
- فيروز إذاً.

تأهب "فارس" للوقوف، ولكن ما الذي يدفعه لتقشير ظل جسده عن الأريكة، والاستغناء عنها؟ هي

الموسيقى، تلك التي أبعدت العاشقين عن بعضهما، مؤقتاً على الأقل، ولكنها نجحت فعلًا في بعثرتهما.

استدعى الشاب هاتفه المحمول؛ كي يطلق سراح بعضٍ من الأغنيات، فوشى الهاتف بالنغم فوراً. ولأن جهاز التسجيل الصوتي في ركن الحجرة كان مكاراً، راح يسترق السمع من الهاتف، وراح يضخم صوت الأغنية المترددة:

"تزكر آخر مرة شفتك سنتا؟
تزكر وئتا آخر كلمة قلتها؟
وماعدت شفتك
وهلأ شفتك
كيفك إنتا ملا إنتا"

يعاود "فارس" الجلوس بجوار "نوال"، فيكون حاضراً بفائق الجاذبية أمامها. تتفقده المرأة بحرص، ثم تُخرج عنه ثلاثة ملامح؛ كي تقارن بين وسامته وجماله وبهائه. وما أن تخيب المقارنات حتى تستدرجه نحوها، فيكون شأنها هو وجهه وعيناه الباذختان. تتحسس شفتيه وهي التي غير مؤمنة بحقيقة وجودهما، فترتفع الشفتان قليلًا، وتسقط من بينهما قبلة. طراوة ثغره مفاجئة، يا لتلك القبلة، فهي قد جعلت "نوال" تشعر بأن أناها صغيرة جداً عليها، وأن جسماً عنيداً يندفع خارجاً عنها.

انكمشت بجواره، أخذها إليه، فأسندت رأسها على عُري صدره قبيل أن تُنصت إلى صوت المطربة الذي أخذها بعيداً صوب طاولة للشطرنج. سألته بنهم:

- هل تلعب الشطرنج؟
- قليلًا ربما.
- أنا ماهرة فيها.
- سأجابهكِ، ولكن عديني أن تأخذي القلاع والفيلة والأحصنة والجنود، وأن تتركي لي أصابعكِ فقط.

رفع كفها اليمنى نحوه وقبّلها، ثم قالت له بسخرية:

- أنتَ ماكر.

فأجابها بإعجاب:

- وأنتِ فاتنة!

لم يعرف العاشقان إن كانا يقلّدان ما يحصل في المسلسلات الأجنبية، أو إن كانا يقلّدان ما يحدث في الحياة اليومية، لا سيما وحين وقفت المرأة بخجل على قدميها، وحين نهض هو بجرأة حتى يحتويها. فرّت منه حيناً، ركض خلفها سريعاً، فالتقى الإثنان بجوار النافذة مصادفة. تعلّقت به، أمسك بها، فكانت المدللة بين يديه باكية.

قال لها بشهيق:

- أعتذر..

فهمست له على الفور:

- أنا في دمع السعادة غارقة.

احتواها مطمئناً ثم همس في أذنها:

- لا تبكي في الحب يا جميلتي، فماء عينيكِ يؤلمني حتى وإن كنتِ سعيدة.
- هل كان عليّ أن أنتظر ثلاثة عقود؛ كي أعثر عليك.
- ما يهم الآن هو أنكِ قد عثرتِ عليّ.. وعلينا!

"نوال"، إنها ليست باسلة بالشكل الكافي لمواجهة الحياة، ولكن ما الذي يجعلها جريئة تدور حول النافذة. تزيح الستارة قليلًا، وكبطلة في مسلسلها الدرامي، تهيم في تأمل ما بالخارج هناك.

"نوال"، ما الذي يجعلها تخترق بأنظارها سطح الزجاج؟ وما الذي يجعل "فيروز" تهتف لأجلها بولاء؟

"بترجع ع راسي رغم العيال والناس
إنتا الأساسي وبحبك بالأساس
بحبك إنتا ملا إنتا"

يا لهذه الفيروز التي لم تكن خائفة، ليس لأن لصوص الحياة قد ذهبوا للنوم مبكراً، وليس لأن الناس ما عادت تتسع أحداق رؤيتهم، بل لأن رغبات العاشق لا تُقهر إذا ما تبنى شريعة الإنعتاق!إذاك اللحن ألهم "نوال" القوة بشكل مفاجئ، فامتد السؤال بها على نحو مباغت:

- برأيكَ، ما الذي يجعلني متيمة بشدوها؟
- "فيروز"؟
- أجل.
- حقيقة مخاطبتها للقلوب بلغة الحنين.
- بل مقدرتها على وصف اللحظة الراهنة بعبارة أو عبارتين.
- ولكن، ما الذي يجعل أغنياتها خالدة؟
- ذلك أنكَ إن قمتَ بجمعها كلها، فستتمكن من تصوير كافة فصول حياتكِ بدقة.

يسهب العاشقان في النظر خارجاً حيث موكب الظهيرة الأصفر، فتكون المغنية وفية جداً بحق تعهّدها بالغناء. يهطل صوت "البيانو" برفق، وكأنه يغازل الأسماع، فتكون اللحظة مجردة من الألوان. هكذا وبلا استئذان كل شيء بالخارج يكون أصفر اللون، المركبة بجانب الطريق، منزل الجار العتيق، وحديقة الحي المتخمة بالضِيق:

- إنه الخريف.
- موسم السقوط.
- هل تَرين عشب الحديقة الأصفر ذاك؟
- أجل.
- أحببتكِ حين كان أخضر طرياً.. والآن حين جف أحببتكِ أكثر.

أوه، كم كانت تلك العبارة بليغة الوصف وغزيرة المعنى. أوه، كم كانت "نوال" بحاجة لسماعها. إنه وبالنسبة لها، تكون الحياة محتملة جداً إذا ما كانت لقاءات الأربعاء متوّجة بقبلة وعناق، ولكن ما يجعل

الحياة أكثر تقبّلًا، هي تلك العبارات التي تطرق أبواب القلب قبل أن تصل إلى الأسماع:

- سوف أُحكِم أرشفة هذه الكلمات.

هكذا قالتها "نوال" بإصرار غير معتاد قبل أن تتبع ذلك برغبتها في الرحيل، فسوف يؤخرها هذا اللقاء، وستؤخرها كذلك شفتاه العالقتان بها. ثمة لقاء يتوجب عليها الذهاب إليه، وهي التي لا تريد أن تتخلى عن فارسها، وهو الذي لا يريد أن يتخلى عنها. احتضنته ملياً بالرغم من ذاك الوداع الذي بدا خفاقاً على شفتيها وقالت:

- لقد تأخرت.
- هل لي بمرافقتكِ، أم تفضلين الذهاب وحيدة؟
- ما المانع في أن ترافقني، فكلانا يتوجب عليه الرحيل إلى الوجهة ذاتها؟
- آه لو أمكننا أن نغيّر الوجهة.
- إلى أين كنت تريدنا لنذهب؟
- إلى حيث لا ندري.. إلى حيث يمكننا أن نضيع وحدنا.
- وماذا لو عثر علينا غيرنا؟
- سندعي أننا لا نراه ولا يرانا.
- وماذا لو ضاع أحدنا منا؟ ماذا لو لم نعثر علينا؟
- ضعي يدكِ في يدي، وسوف لن نتخلى عنا.
- سنكون على الدوام سوية إذاً.
- مثلما لم يكن أحد من قبلنا.
- آه، كم أحبكِ.
- آه، كم أُحبنا.
- أنا، أحبني فقط لأنكَ تُحبنا.

الفصل الثامن عشر: في الطريق إلى العشق.. لا أحد يتشدق لشهيق المسافات

هناك قصة واحدة وواحدة فقط تَستحق أن تُروى، وهي أن المرأة التي عَشقَت فجأة تخلّت بذات الفجأة عن كُل قيودها. في لحظة أفاقت، بغمزة أشارت، فكان أمامها حلم اليقظة الذي كرهته بملء حبها. كل شيء في عثورها ذاك كان متوقعاً، ولكن لماذا لم ترى حُلمها إلا بعد أن استيقظت من نومها؟

سواءً أكنتَ قاصاً، أو شاعراً، أو كاتباً، أو حتى في الحب تائهاً، ينبغي عليكَ أن تقرأ قصة تلك التي جلست في المقعد الخلفي لمركبتها؛ كي تقود لهفتها. امرأة راحت تعيد اكتشاف شبقها لما غاصت في قَلب المراتب الجلدية، وبجوارها شاب كانت تتأمل تضاريس جسده المغلّف بثوب أبيض. تداعب فكرة تواجده بالقرب منها، تتحسس بقاءه على مقربة منها، ثم تستنتج فجأة أن الإغواء بوفيه مفتوح، وأنها في كل الأحوال جائعة!

إن النساء في العادة لا يتخلين عن قيودهن بسهولة. لذا، انصِتْ إلى واقعة الإغواء تلك حين انسدلت إحداهن على فارسها؛ حتى تُمسك بيمينها ما تتمناه شمالها. حررتْ انغلاقاً إزاءه مثلما حَررت خجلها، ثم قَبضت على المسافة الفاصلة بين كتفه وعنقه. تحسست بأطراف شفاهها تلك المساحة الغائرة قبل أن تترك على رقبته شامة، لا بل مُلصَقاً لتاريخ إنتاج شهوتها. لَثْمة جليّة للعين، لربما قد تخفيها ياقة الثوب، ولكن ويل للعاشقة، فهي لم تضع على الملصق تاريخاً لانتهاء رغبتها!

هنا امرأة أمسكت برأسها، هزته عنوة مثلما يهز الأطفال حصالات نقودهم، فسقطت من شق الأفكار رغباتها المخبّئة. الآن، وللمرة الأولى بعد ثلاثة عقود ونصف، قد حان لها أن تُنفق جُل مدخراتها من الأمنيات، فمن ذا الذي سيبذّر رغباتها من بعدها إن أبقتها في مستودعها؟

"الإسراف أهلك شفتيّ."

هكذا قالتها "نوال" لما أن تخثّرت الدماء في شرايين لهفتها. فما كان لها إلا أن تستمع لهمس أتاها؛ كي يُنعش دورة قلبها الدموية:

ستكون قبلاتكِ أمانة في عنقي.

في مجلة علمية، ذكرت إحدى الدراسات أن الجهاز الحافي في عقل المرأة، وهو المسؤول عن الغرائز والعاطفة، هو أكبر حجماً من ذاك الذي في عقل الرجل. إذاً، كيف لنا أن نعاتب تلك التي سبقت عاشقها في المطالبة بكافة حقوقها؟

- أريد منكَ أن تعوّضني عن كل خسائري العاطفية.

قالتها "نوال" وهي ترتعش ولعاً، ثم أتبعتها بما قد يبرّر مطلبها:

- جنوني هذا لا يمثلني.. أنا الآن أنتفض!
- لرجفتكِ رنين.

- أعدني الآن بين يديك.
- ولكنكِ الآن بين يديّ.
- أنا؟
- أجل يا قلبـي الأوحد.
- أعدني إذاً إلى جوف صدرك، أريد أن أنبض هناك!

عاتبهما الوقت كثيراً، فلقد تأخرا على الميعاد. حاولت "نوال" أن تلملم شمل المهدور من دقائقها، فوقعت يدها مصادفة على وجنة الشاب، ووقع ثغرها بلا استئذان على شفاهه الناضجة. أرادت أن تُبدي لحظتها امتناناً للصدفة التي جمعتهما بطريقة لائقة، فوضعت على بلل شفتيه ألف قبلة، ثم ألحقتها بقبلة أخرى. ولأنها لم تشأ له أن يُحصي عدد قبلاتها، أضافت ألف قبلة أخرى. لكن الشاب كان ماهراً في الحساب حين فطن لحيلتها وقال لها:

- كم أحب أخطاء الحواس.
- كنا بالأعلى هناك قبل قليل، فلماذا لم أنل منكَ كفايتي؟
- ومن منا ينال كفايته من أحدنا؟

طرح عليها "فارس" سؤاله وهو يزرر ثوبه بتأنٍ شديد. كان هدوؤه المتقن مثيراً للتأمل لحظة أن شرع في ترتيب هندامه دون أن يزيح أنظاره عنها. لعُمرِه المعلّق في الظل الهارب، ولبهائه المتزامن مع جاذبية الشارب، كانت هي ممتّنة لكل شيء فيه، ممتّنة لوجوده، ممتّنة لتواجده، وممتّنة لأنه متقارب.

تضع "نوال" يدها على مقبض الباب، ويضع "فارس" يده على كتفها. تريد هي أن تفتح الباب، ويريد هو أن يعانقها. ولأن المقبض كان بارداً إلى حد ما، استدارت المرأة بملء رغبتها؛ كي تقتبس من الشاب دفئها.

بالغ "فارس" في احتضانها قبل أن يعود ليقول لها:

- الآن بوسعنا أن نرحل.

لا رجاء يقي اندلاقها في أزارير ثوبه الخرساء. هكذا صاغت "نوال" خطتها لحظة أن فتح لها بابه والتف حول المركبة؛ حتى يعينها على النزول منها. بطريقة عكسية تمدد باب سيارة "الرولز رويس" كاشفاً عن مساحة تتسع لهبوطها، فوضعت يدها بيده، وأفلتت من قبضة المقعد الجلدي الذي احتضنها.

في المرآب الأرضي للتجمع السكني ذاك، كل التداعيات بدت ملائمة تماماً لحادثة نزولها تلك، لا سيما وأنها قد كانت أشبه بأميرة تهدي نزولها للشاب الوسيم. أغلق "فارس" الباب من خلفها، توقف مباشرة أمامها، فأصبح الاثنان وحيدين خارج حدود الإختباء، ولا شيء من حولهما سوى هدوء المركبات المصطفة.

يقول النص الهندي القديم المسمى بالـ "كاماسوترا" أن العناق أنواع، وأن أشدها إغواءً هو ذاك الذي عندما تضع المرأة فيه قدماً على قدم عشيقها، وتضع الأخرى على إحدى فخذيه، فيبدو عناقها أشبه بتسلق شجرة! بلا شكٍ كان ذاك العناق هو الأكثر إغواءً لما تسلّقت "نوال" قامة فارسها، ومررت ذراعيها حول

خصره وكتفه. كانت تدندن له وتتودده قبيل أن تَشرع في متابعة تسلق أغصان نشوته. وما أن أتمت وصولها للقمة، حتى بادرت في قطف ثمار القُبل، غير مبالية بحرمة شِفاهه.

جميعنا، عشاقاً وزاهدين، ممتنّون لما توحي لنا به تلك النصوص القديمة، ولكن ما الذي يجعل أحدهم مهتماً بالكتابة عن السلوك العاطفي لدى الإنسان؟ تباً يا "ڤاتسيايانا"، سيتوجب علينا الآن أن نعاود تجارب عناقنا بطرق مختلفة؛ حتى نتمكن من مقارنتها مع عناق المتلهفة للمحبوب، وعناق المتسلقة كالسنجوب، وعناق اختلاط بذور السمسم مع سائر الحبوب!

وبينما كانت "نوال" تعيد خوض تجربة العناق بطرق متنوعة، تذكرت أن ثمة قصيدة تقول في مطلعها "كن بجواري.. ولكن لا تكن خلفي أو حتى أمامي". إنها مقدمة إحدى القصائد المذكورة في ديوانٍ شعري لأديب كان يتغنى بالحب ولا يؤمن به مطلقاً. هي لم تقرأ ديوانه الشعري على النحو الصحيح، وإلا لعرفت حينها أن الشاعر عندما أنتج آلاف الأوراق، لم يكن مهتماً بصناعة الأدب حينها، بل كان مهتماً بصنع أجنحة ورقية تمكّنه من الطيران!

أسرف العاشقان في الإحتضان، فبادر الشاب بفتح باب المركبة الأمامي لمحبوبته حتى يكون تخلّيه عنها فظاً أو بلا مبررات. وما أن تبوأت الأخيرة مكانها خلف المقود، حتى ابتعد بمهل عن كفها ثم توجّه للجلوس في المقعد الذي عن يمينها. ومثلما ذكرت قصيدة الأديب، كان "فارس" بجوارها، لا في المقعد الخلفي، ولا في سيارته المتوقفة أمامها. مجدداً، تتمادى "نوال" في تأمله ثم تتمتم بخفرٍ:

يا رب.. امنحني رحمة أن أغفو بين ذراعيه مجدداً!

المرأة التي حلمت ذات يوم بقرص الشمس، قادت مركبتها بعيداً عن ظلال المرآب الأرضي، فوجدت نفسها ضالة في شوارع المدينة الموبوءة بالالتواءات. جالت في أروقة التيه مراراً، تناثرت في المسافات تكراراً، فلم تعثر في الامتدادات سوى على المزيد من الانسدادات. لقد بدت لها المهمة صعبة أنذاك، أن تسير إلى الأمام دون أن تلتفت إلى يمينها، وأن تتذكر كذلك الاتجاهات. لا بل وقد كان عليها أن لا تفقد تركيزها حين دنا منها فارسها كي يهمس لها بالإتجاهات. "إنعطفي يميناً.. إسلكي ذاك المسار يساراً"، هذا ما قاله الرجل لها بالإضافة إلى الكثير من الكلمات. "ولأنني أحبكِ تابعي السير أماماً لبضعة كيلومترات"، هكذا كان يملي عليها عمق صوته المقترن بالارشادات. ويلها، فمن التي ستجيد في حضرة غوايته مهارة الانصات؟

في تلك الظهيرة من أيام الله، شرع العاشقان في العبور أميالاً من الأسفلت سوية، وما من موسيقى لتكسر حاجز صمتهما. يد الشاب هامت عبثاً بالمذياع، ولكن ما من ضوضاء ترددت في ذاك الفراغ. كل شيء من حولهما كان يفتقر للأصداء، وعجباً، لماذا تكون الجمادات عند حاجتنا لها خرساء؟

لم تشأ "نوال" لمشهد الترحال ذاك أن يكون مقتبساً من فيلم صامت. لذا، غامرت سريعاً بتبنّي شريعة طرد الوجوم. رفعت يدها المطرزة بساعة الـ "روليكس"، ثم أشارت إلى مبنىً مجاور وقالت:

هذه منشأة لا رب لها، ولا حارس يحميها. قصدها ذات يوم مسؤول لا تعنيه

المسؤولية. ولما تبيّن له أنها دار للعجزة، اقتحمها بكل عنجهية. استباح بهائها، هدم أسوارها، ثم اقتلع بوابتها الذهبية. ولأنه أمن العقوبة، نصب البوابة أمام قصره، وكتب عليها "هذا من فضلي ربـي.. فلا تحسدوني عليها."

وهل نجا بفعلته؟

لقد أهدته البلدية درعاً من أجل أعماله البطولية.

تساءل "فارس" هازئاً وهو الذي اعتاد سماع قصص مشابهة:

- ما الذي يجعل هذه الحادثة مميّزة بالنسبة لك؟
- إنها نموذج عصري لعمليات السطو المحلية؟
- ولكننا معتادون على مثل هذه الوقائع.
- نحن معتادون على السرقات في الخفاء، وليس على النهب في منتصف الظهيرة.
- لا تقلقي، فيوماً ما سوف نعتاد عليها.

وافقته المرأة الرأي بإيماءة وهي تتابع المضي قدماً، ثم جال بخاطرها ذاك الذي كان أشبه بسؤال:

- هل تعتقد أننا نفعل الشيء عينه؟
- نحن لا نقتلع الأبواب.
- ولكننا نعين الآخرين على اقتلاعها.
- لم لا، وهي في حقيقة الأمر ملكاً لهم؟
- ليس جميعها، فبعضها ملكٌ لهم، والبعض الآخر لا رب لها.
- ما المانع إذاً في أن نهب الأبواب اليتيمة لمن يحسن العناية بها؟

حاولت "نوال" اقتناص إجابة تليق بذاك التساؤل، ولكن لم يحالفها الحظ مطلقاً. لذا، فضلت أن تتخلى عن محاولة العثور على المبررات تلك، وأن تكتفي فقط بتوجيه ذاك الكيان الداكن اللون للسير إلى الأمام.

تلك المركبة أخذت تجوب بهما امتداد المسافات، ولو كان بوسعها الحديث، لأخبرتنا كيف أنها قد شقّت الطريق بصعوبة بالغة. لو أن اللوحات الإرشادية لم تكن صامتة، لأفشت لنا عن معاناة السير في طرقات مليئة بالفجوات والمنحدرات التي لا تخضع لقوانين الجاذبية، ولو أن الجمادات لم تكن خرساء لبرهنت لنا أن ما يُنسب إلى العجب في ما نقل عن شوارع هذه المدينة، من أن للأرصفة أنين، هو في واقع الأمر واقع صرف.

- "مدهش كيف أن الطرقات أيضاً ناقمة على القاطنين في هذه المدينة!"

هتفت "نوال" وهي تتأهب تدريجياً للتوقف بمركبتها خلف مجموعة من السيارات المتكدسة على الجسر المؤدي إلى خارج المدينة. غرباً، هناك حيث الخط الفاصل بين صخب التمدن وسكون الضاحية، بضعة رجال تخلوا عن سياراتهم، وراحوا يتأملون المنطقة شديدة الانخفاض أسفل الجسر. هتف "فارس" سريعاً:

- ثمة من أقدم على الانتحار.
- وما الذي أدراك؟
- هذا الجسر هو الوجهة الأولى لكل من أراد العبور إلى الضفة الأخرى بلا ميعاد.

- يا ترى، هل ألقى بنفسه من هذا المرتفع؟
- أعتقد أنه قد شنق نفسه بحبال من اليأس مثل كل اللذين سبقوه بالانتحار على نفس الجسر. إنه جسر الموت كما يطلق عليه غالبية الناس. هنا عاصمة الوفاة ومنطقة سقوط الأرواح من عليائها.
- شجاع..
- جبان..
- لقد استلزمه الأمر الكثير من الشجاعة؛ حتى يتخذ قراراً بأن يغادر الحياة بناءاً على رغباته.
- كان بإمكانه أن يواجه مصاعب الحياة بجرأة أكبر.
- أكره الحياة.
- وأكره الموت.
- هل من حالة في المنتصف بينهما؟
- إنها تسمى بالهذيان.
- لا أريد أن أكون مجنونة.
- ولا أريد أن أكون بنصف عقل.
- من إذاً سيحمينا من أنصاف جماجمنا الفارغة؟
- لا أحد يمكنه أن يحمينا منا!

إنه الجواب الذي ذبح كل التساؤلات وعلل الاستفهام. لا، بل إنه النموذج المشرّف للحقيقة التي يوم أن حلت مثل السكون، أدركها الأجل ولكنها لم تُدرك المسائل. تتأمل "نوال" حقيقة الجنون الذي شرعت في ارتكابه مؤخراً، وكأنها كانت بالفعل قد بدأت تفقد نصفاً من عقلها، سيدة مجتمع ذات مكانة مرموقة تخلت عن كل أمجادها؛ كي تقتفي أثر شهواتها، فما الذي أصابها؟ تُميل المرأة رأسها ناحية اليمين، فتبدو الجهة اليسرى من عقلها أكثر خفةً مما مضى. ويلها، وهل ستشنق ذات يومٍ نفسها؟

- هل أنا مجنونة؟
- أنتِ عاقلةٌ في الجنون.. فماذا دهاكِ؟
- كان بمقدوري أن أكون هناك، زوجة مطيعة بجوار ذاك البدين.
- تنحرين من أجله سعادتكِ، وينام هو قرير العين؟
- ولكنه قد يستيقظ ذات يومٍ ليدرك تجاهله المشين.
- لا يستيقظ الرجال من هجرانهم، حتى ولو بعد حين.
- كان بمقدوري أن أكون هناك.. مثل بقية النسوة.. مثل الصِفر الرصين.
- وما قيمة الأصفار سواءً كانت على اليسار أو اليمين؟
- كنتُ سأضاعف قيمتي.
- وكان سيطرحها من قيمة أخرى.
- كُنت سأضيف ظلًا بجوار ظلي.
- وكان سيجعل من ظلكِ زوجة ثانية.
- إنه زوج فردي.

- كل الرجال أعداد زوجية، وكلهم يقبلون القسمة على اثنتين وثلاثة وأربعة.

ولأن الحديث عن الماضي أخذهما للخلف قليلًا، تذكرت "نوال" بعضاً من هفواتها ثم تحسرت بصوت عال:

- كنت أحبه آنذاك.
- ذاك الحب الذي مضى.. لو كان خيراً لبقى!
- ألومني كثيراً، فما الذي جعلني أقع في حُب رجلٍ فرضته عليّ الأقدار؟
- محاولتكِ للإنصياع للتقاليد والأعراف.
- مثل سائر الساذجات، كنتُ أظن أنني سأتمكن من تبنّي شريعة الحب ما بعد الزواج.
- لا علاقة لك بما حدث، إنه خطأ مريضة أودعوا قلبها لدى جراح مبتدئ.
- ولكني لم أكن بحاجة إلى أي عملية جراحية!
- ها أنتِ قد أفلتِ منه قبل أن يصيبكِ بعاهة مستديمة.
- ولكنه قد شوه روحي.
- سنستبدلها سوية بروح جديدة.
- كل ما في الأمر هو أنني أريد فقط أن أكون سعيدة.
- بجواري سوف تكونين أكثر من مجرد امرأة سعيدة.

يضع الشاب يده على كتفها؛ ليطمئنها، فتسأله بنبرة القلق:

- هل أنا جبانة إذاً؟ هل كان بإمكاني مواجهة المصاعب الزوجية دون أن أنسحب؟
- في المعارك الخاسرة، لا شيء أكثر شجاعة من الانسحاب.
- إذاً أنت توافقني الرأي بأن في الانتحار شجاعة!
- ولكن الانسحاب ليس انتحاراً، إنه فقط محاولة جادة لإعادة تشكيل الحياة.
- ليتني قادرة على الإنتحار في هذه العلاقة الزوجية.. ليتني قادرة على أن أرمي نفسي من عليائي.
- وهل ستقعين بي، أم ستقعين من أجلي؟
- سأقع بكَ ولأجلك.
- وهل ستندمين حينها؟
- مطلقاً، فولا السقوط لن أعثر عليكَ ولن أعثر علينا.

الفصل التاسع عشر: لا جفاف يحمينا من السقوط في البلل

ما قبل بُلوغ الوُجهة تكون الجذوة مشتعلة، عاشقان يصلان متأخرين، وثمة حريق يؤجج اللهفة بهما. وما بعد الوصول تكون التنهيدة ساخنة، عاشقان يحضران سوية، وأدخنة الحديث تتسرب من حلق صمتهما. أما ما يتلو ذلك فليس إلا فحيح نارٍ اشتعلت حتى تؤرق راحة قلبيهما.

العاشقان اللذان توقفا في ساحة غارقة بالماء، كان كلاهما مشغول بالنظر إلى الآخر. وما أن يقررا النظر إلى ما حولهما، يكون في استقبالهما ذاك الوحل الذي تواجد يوم لم يتسرب من سقف السماء أي مطر. يقول الفارس لمحبوبته:

- ها قد وصلنا.. وهل أمطرت السماء فجأة؟
- لم أتذوق طعم هطول المطر منذ أن نوينا المسيرة.
- هاكِ.. الطريق صوب غايتنا غير مُعبّدة.
- قف على الماء من فضلك، ثم اسبقني إلى هناك، فأنا لا أدل طريقي.

ولأن الشاب كان يجيد التوازن، سبقها في العبور ناحية الضفة الأخرى. قطع المسافة بمرونة عالية حيث الجفاف، وكأنه كان يحاول أن يُبهرها بمقدرته على تعبيد الطرقات لأجلها. وما أن أصبحت المسافة بينهما شديدة الوضوح حتى أطفأت "نوال" شعلة ترددها في بركة الماء، ثم تبعت خطواته ببوصلة قلبها. وبالرغم من أن "فارس" كان يخشى عليها كثيراً، إلا أنه لم يكن قلقاً من احتمالات أن تضيع بخطواتها بعيداً، وكيف ستضيع امرأة تستدل على الآثار بنبض قلبها؟

مشت "نوال" غير متزنة، خطوة ثم خطوتين أخرتين، وفي الخطوة الرابعة غرقت. مدّ لها "فارس" يداً من النور حتى ينتشلها من بلل مسيرتها، فتابعت بدورها التقدّم حاملة معها ضُعف حيلتها. ولأنها أرادت أن تصل إليه سريعاً، تمايلت في خطوتها الثامنة، وفي الخطوة التاسعة سَقطَت.

إنه أراد فعلًا أن يعينها على النهوض، ولكنه كان يعلم أن كبرياءها لم يكن ليسمح لها بأن تتكل على رجل. لذا، اكتفى فقط بأن يقول لها:

- انجِ!
- كيف لي أن أنجو؟ أنا غارقة!

تجاهل الشاب كل قوانين كبريائها ثم سارع في مساندتها:

- يا طفلتي، بوسعي أن أحملكِ طيلة العمر بين يديّ، وسوف لن يتوجب عليكِ السير أبداً.

العاشقان متجاوران، أجل إنهما متجاوران، هو الماثل أمامها، وهي المتعثّرة تماماً بين يديه. تريد "نوال" حينها أن تقبض على يقين واحد، وهو أن ثمة مكان واحد في هذه البلاد يُسعدها أن تكون فيه مبللة. تريد أن تُقنع ذاتها الراشدة بأن في هذه البقعة من الأرض هي سعيدة فعلًا، لا سيما حين إنحنى "فارس" ليلتقط الجزء المبلل من عباءتها، فلامست أنامله الشقية برودة قدمها.

ثمة رعشة سَرت في جسد المرأة، لحظة أن تسلقت سبابته نعومة جسدها. ولأن الشاب كان مهذباً في عبثه، اعتذر لها وهو يناولها أطراف عباءتها. وما أن شرعت في ترتيب هيبتها، حتى لاح لها خيال فتاة شابة راحت تجري صوبها. من الأفق المجاور لاحت "مها" وهي تهرول بإصرار، فارتاب "فارس" حيناً ثم تمتم لها:

- ما الذي أتى بها إلى هنا؟
- لقد طلبتُ منها القدوم حتى تعينني على تهيئة الأمور المتعلقة بالاتفاق.
- وهل تأتمنينها على أسرارٍ كهذه؟
- بشكل أو آخر، هي مطّلعة على كل القرارات التي تصدر عني.
- أنا لست مطمئناً لها.
- لا تقلق، فأنا أعتقد أنها جديرة بالثقة.

الإسفلت قطيعٌ صامت، و"مها" هناك تجري متجاهلة القدر المهول من الخطوات التي سقطت منها. لربما كان ظلها بجوارها هارباً، ولكنها تركته وراءها خشية أن تراه فتتعثّر. هي لم تكن لتدرك مدى أهمية الظل، فلو رأت انعكاسها على الزجاج المجاور، لأدركت حينها أن لون الصدئ الذي استعمر ملامحها سببه أنها كانت تسير تحت الشمس بلا ظل أو مظلة!

موشكة على الذبول، تصل "مها" لاهثة حيث يقف الاثنان، فتقتبس "نوال" ابتسامة مصطنعة، وتضعها سريعاً على شفتيها لترحّب بها. ربما كان ذلك جيداً بطريقة ما، أن نجعل تعابير وجوهنا معلّبة حتى إشعار آخر، وأن نستدعيها فقط عندما تقتضي الحاجة، فالمواد الحافظة تمنحنا درجة احمرار أفضل للشفاه وللوجنتين.

اقتبست "نوال" ابتسامة زجاجية أشبه بتلك التي تتصف بها شُخوص الرسوم الكرتونية، ولكنها أقل اتساعاً وأقل تكلفة. كان وكما يبدو أنها ابتسامة مهذبة تُناسب كل الوجوه، ومتوافقة مع كل المناسبات والمواقف. رقيقة بعض الشيء، سريعة الذوبان ربما، تلك الابتسامة لم تكن نابعة عن شغف بالرؤية أو مودة مفعمة.

لهثت "مها" على إثر وصولها:

- مرحبا، الجميع بانتظاركما.

قالتها الشابة وهي تعيد جمع أنفاسها إثر توقفها. بلا ريب إنها كانت قلقة من أن تتخلف "نوال" عن القدوم، فقطعة المناديل المكومة بين يديها كانت قد تلوّت مراراً حتى كادت أن تتمزق في راحتها. سارعت الفتاة بحمل حقيبة "نوال" اليدوية قبل أن تهتف بهستيريا:

- أنتِ مبللة!

عاودت "نوال" تأمل الطرف السفلي من عباءتها، ورغم اتساع رقعة الماء إلا أنها بدت سعيدة جداً، فبين قدميها الآن تذكير بأنه لولا البلل لما عرفت مدى جفاف روحها. هدّأت "نوال" من روع مرؤوستها ثم قالت:

- لقد تعثّرت في مستنقع الماء ذاك، ولكنني بخير.

هزت "مها" رأسها لتبدي اقتناعها، ثم سارت بخطوات مستعجلة صوب المبنى المجاور، تاركةً خلفها ذانك اللذين بالتأخير محمّلين. وحينما تماثل الجمع القادم للسير نحو لقائهم، غادرهما الحرف. أودعوا أصواتهم في مخابئ سرية، فلا أحد في حضرة اللايقين أراد أن يتحدث.

ممر يتلوه سرداب، باب من بعده باب، الثلاثة وصلوا سوية، حيث قاعة بهية يجلس بها مسنّ وشاب. ولما كان حضور المرأة ذا أهمية فائقة، هبّ الجميع لاستقبالها، مثل سماء تحاول جمع ما فر منها من سحاب. امتدت يد أحدهم لمصافحتها، وبادرها الآخرُ بكأس من الشراب. ذلك الترحيب كان متوقعاً جداً، فهي التي جاءتهم لتتعهد لهم بحسن مآب. جلست على أريكة جلدية، وجلس بجوارها فارسها، بينما ظلت "مها" واقفة في ذاك الرحاب.

اعتذرت "نوال" عن تأخرها، وعللته بالسقوط في فجوة البلل، فتناول المعاون عباءتها، وطمئنها المسنّ بأن لا تشغل بالها، فالأمر الأكثر أهمية هو أنها قد تمكنت فعلًا من أن تقطع لأجلهم كل هذه المسافات.

خلف مكتب خشبي شرع الرجل المسنّ بالجلوس، حاملًا معه وجهه المتجهّم. أما معاونه الشاب فقد كان بجواره يمرر له بضعة أوراق ومستندات. تبنّى الحشد شريعة الصمت قليلًا قبل أن يسأل الرجل المسن "نوال" بنهم:

- هل سبق لكِ القدوم إلى محافظتنا؟
- مطلقاً، بالرغم من قراءتي المكثفة عنها في الصحف.
- مثلما تعلمين، تتبع محافظتنا هذه لمدينة "الرياض"، ويجاورها عدد لا بأس به من المراكز والقرى والهِجَر.

وبعد شهرين من الآن، سوف يصدر قرار حكومي باستثمار هذه المنطقة وجعلها امتداداً للمدينة الصناعية جنوب الرياض من خلال إنشاء مجموعة من شبكات القطارات والمراكز التجارية؛ لتصبح المنطقة الأولى لاستقبال الركاب والبضائع.

- مذهل!
- سيتوجب على الأجهزة الحكومية المعنية بتنفيذ المشروع أن تطالب بنزع ملكية عدد كبير من الأراضي التي يملكها بعض من سكان المحافظة من أجل المنفعة العامة، وسوف يتم تعويضهم بلا أدنى شك.

اعتدل الرجل في جلسته ثم اشار بيده إلى الشاب بجواره، فهب الشاب سريعاً لمناولتها بعضاً من الخرائط. وما أن شرعت "نوال" في استعراضها، حتى استطرد المسنّ حديثه:

- المناطق التي باللون الأزرق تعود ملكيتها إلى أجدادي، ولكنني لا أملك الصكوك التي تثبت ذلك.
- سيتوجب عليك المطالبة بصكوك التملك، وتقديم الإثباتات اللازمة.
- سيتولى مكتب الدكتور "أحمد" هذه المهمة بالنيابة عني، ولكنني بحاجة إلى متابعتك الخاصة للمسألة، نظراً لأنه سوف يتم تعيينك رئيساً للجنة المختصة بالإشراف العام.
- وما أدراكَ بهذا؟
- ولنفترض فقط أنني على اطلاع تام بتفاصيل هذا المشروع.

- ما الذي سيتوجب عليّ فعله؟
- سوف نكون بحاجة لعدد جم من الاستثناءات.
- هذا الأمر ليس معقّداً.
- إنه لسوف يسعدني جداً أن تضمني حصولنا على صكوك الملكيات بأسرع طريقة ممكنة.

تستعرض "نوال" مجموعة الورق الحبيس بين كفيها، تبحث بسرية موغلة عن ما يدفعها لخوض تجربة المعاونة تلك وهي تعلم جيداً أنها لم تكن المادة، فلديها من المال ما يكفي لأن تغمض عينيها وأن تغادر المكان على الفور، وتعلم جيداً أنه لم يكن الفراغ، فلديها من بين كل الرجال شابٌ يمكنه أن يملأ فجوات أوقاتها.

في الحيرة، إنها مثل الناسك الممسوس بالتأمل والحكمة، تغرق في المستطيلات البيضاء، ولا تعثر بها سوى على دلالات لا تنتمي للحقيقة الملساء. ورغم ضخامة حجم البقع الزرقاء، إلا أن "نوال" فضّلت أن لا تنظر إليها، وأن تكتفي بتأمل الشاب الذي كان يقف هناك في الزاوية.

النضج يسكن جسده مثل العسل الذي يستوطن قارورة، وخصلات شعره الثائرة تطلب النجاة من حصار غترته المنثورة. الملامح الشابة التي يكتسي بها غصن تمايله، إنها وبلا شك تحمل الكثير من البهاء، فهو وسيم بعض الشيء، عسلي العينين، عذب القوام، تماماً مثلما تحبذه، ولكن الخوف الذي تفشى في أطرافه جعل وسامته قُبحاً، وجعل حضوره غياباً. أما التلقائية في حركاته فقد جعلته يبدو مثل رجل آلي لا يجيد سوى الانصياع للأوامر. حتماً، لا شيء قادر على أن يفسد جاذبية الرجل سوى ضعف شخصيته.

"نوال"، ويا لحظها، ترى ذكورة الأشياء في مخدعها، واضحة وجليّة مثل شاب يقف بلا هيبة. ذاك الثوب، تلك الغترة، وذاك العقال، إنها المرأة التي تعرف تماماً كل أصناف الرجال. لكنها ورغم كل ما في الكون من ذكورة، ليست ترى سوى الفارس الذي كان يجلس بجوارها؛ ليستطلع بعضاً مما خلفته وراءها من أوراق. تشتاقه، وهو الذي بالقرب منها، فهو ملأ شغفها على الأقل. حتماً، لا أحد هنا أكثر منه استحقاقاً للتأمل، فالأقربون منها أولى بالمعروف.

وضعت "نوال" قدماً على قدمٍ؛ لتتأمل انكشاف ساقها، فادركت متأخرةً أنه ما عاد يصيبها البلل. وحتى لا يكون يقينها مخادعاً، هزت المرأة قدمها، كمن كانت تريد أن تجفف ظنونها على حبل للغسيل، فلامست ساقها فجأة ساق الفارس الذي رفع رأسه بهدوء نحوها ثم وَهَبها نظرة وابتسامة.

جودها بموجودها، ما أطول اللحظات التي اختلقت المرأة فيها وجودها. تريد "نوال" أن تغادر، ولكنها أحبت فعلًا نظرية الجلوس بجوار فارسها في مكان عامر بالآخرين دون أن تأبه بسواه. يحني "فارس" رأسه كي يغوص في كثافة الورق مجدداً، فتميل نحوه لتهمس له بصوت منخفض:

- أحببتك مراراً.

وبالرغم من أن عبارتها كانت لا تمت بصلة لأسباب تواجدهما، قال لها:

- إذاً كرريني.

لم يكن الآخرون على دراية بما يجول بين العاشقين، فتلك الهمسات واللمسات بدت وكأنها مجرد

مشاورات. أشارت "نوال" بسبابتها على إحدى البقع الزرقاء حتى لا تثير الظنون من حولها، ولما أن كان المشار إليه بين يدي الشاب، تَحتَّم على ساعدها أن يتقاطع مع ساعده. العين في العين، حتى وإن كانت أجفان أحدهما مغلقة، وراحة الكف على الجبين، حين تذكر أحدهما رغبته في الحنين فجأة:

- في داخلي حيرة.
- تمسكي بغرائز ظنونكِ دوماً.
- ما الذي ينبغي عليّ فعله؟
- هل أنتِ بحاجة لما هو معروضٌ أمامكِ؟
- حاجتي له ملحة.
- إذاً لا تترددي في أخذ ما هو يخصّكِ!
- وهل تريدني أن أسرق وجودك الآن؟
- عمّا تتحدثين؟
- عنك.. أنا بحاجة ملحة إليك.
- ظننتكِ تتحدثين عن حاجتكِ لمساعدة الرجل المسن.
- ما من ساذجة تتردد في معاونة هذا الصنف من الرجال.
- لماذا، وأنتِ التي تجلسين فوق برجك العاجي؟
- لأن الذي يقرأ المستقبل قبل حدوثه، قادر على قذفكَ من على ارتفاع برجك العاجي.
- إذاً ما الذي جاء بنا إلى هنا والأمر محسوم مسبقاً؟
- نحن هنا حتى يُرينا مقدرته على قلب موازين الحياة من المكتب الذي يبعد عن المدينة بعشرات الكيلومترات.
- تباً لثراء البدناء.
- أنا متعبة من هذا اللقاء.
- كيف لي أن أريحكِ من هذا الإعياء؟
- أريد أن أدفن فيكَ رأسي.
- انتظري قليلًا، وسأهبكِ بعد المغادرة صدري يا أجمل النساء.

كان المغيب على وشك الحضور مكللًا بما قد نسميه عادة بالتأخير، وكان الورق الذي أمام السيد متمدداً بشكل قدّ نصفه غالباً بشديد الحضور، فتذكرت "نوال" أن ما في خنصرها يؤكد تماماً ما يقع عليه بنصرها. أحدهما يريد موافقتها؛ كي يستعمر مساحات شاسعة من الفراغ.

استدارت "نوال" بتلقائية شديدة؛ حتى تتأمل الرجل المسن وهو يتخلى عن مقعده الوثير، ويشق المسافة نحوها. سار بتثاقل جلي محاولًا العثور على الطريق المؤدية إلى الأريكة أمامها، فضّل طريقه. توقّف أمام النافذة حيناً، داعب الستائر المتدلية كثيراً، ثم خاطبها دون أن يلتفت نحوها ولو قليلًا:

- هذه فرصة العمر فلا تضيعيها. سيصبح بإمكانكِ أن تتملكي أبراجاً سكنية.
- ومن التي ستبدد أحلاماً بالثراء؟

- هل اتخذت قرارك إذاً؟

يتفشى الحوار في الاتجاهات الأربعة فيصل إلى مسامع الحضور جميعاً. وقبل أن يعود صوت الرجل المشبع بالوعود، صرّحت المرأة برغبتها في معاونته. كانت تعلم جيداً أنه لم يكن بيدها أي خيارات، ولكن ما أجمل أن تتحلى بالصبر قليلًا، وأن تتباهى بمقدرتها على اتخاذ القرارات المحسومة مسبقاً.

الفصل العشرون: يا ترى كم دقة يعزف القلب بين صمتين؟

هذه الأنثى في احتضار متكرر، نوال التي عادت إلى دارها بعد الرحيل المطوّل، وجدت نفسها في المكان الذي ألفته جيداً. خلعت عباءتها بتثاقل، جلست على كرسي مجاور، ووضعت بجوارها ذاك الهم المتراكم. ورغم أن تفاصيل دخولها كانت مبجلة كما العادة، إلا أنه لم يكن هناك أحد في خيبة الحضور ليرحب بها. ما من أحد سوى خادمتها التي رأتها ولم تُصفق.

ولأن الخادمة المنزلية لم يكن ذنبها سوى أنها وقفت مطوّلًا في ذاك الفراغ البهيج، قررت "نوال" أن تُدين زوجها بالتخلي عنها، وأن تدين والدها أيضاً باغتيال حلمها. إنها وفي تلك اللحظة قررت أن تدين كل الرجال بموت النساء، وبما يلاحقهم من اللعنات، فلولا الذكورة لظلت كل امرأة في السعادة حية. أدانتهم، ومن سواهم يكبّل أمنيات السيدات؟ من سواهم تسبب بفقدان الهوية، وبتلف البطاقات الشخصية، وبضياع أحلام الفتيات الوردية؟

جلست "نوال" على الكرسي المجاور للمدخل؛ حتى تدرك بأن الأكثر قبحاً في هذا المساء هو ذاك المتخلي عن حضوره، ذاك الذي تركَ فسحة نظيفة بشغور مقعده. إنه الرجل الذي حمل حقائب رحيله، ولم يترك لها على طاولة الوداع ولو مظروفاً. حتماً، لا شيء أكثر قسوة من أن يتناسى زوجها أنه كان قبل بضعة أيامٍ بجوارها، يضع رأسه على كتفها، ويشتكي لها وجعاً.

"نوال"، إنها تدين كل الرجال بأوجاعها، كيف لا، وأحدهم قد عاهدها يوماً بأن يكون لها كل الرجال. الذي غاب عنها، تتأمل المكان من بعده، فيكون الهدوء من حولها مغرياً للحد الذي يجعلها تعلّق أنظارها على لوحة الحائط الزيتية.

يوم أن كان يريد أن يدلل زوجته أهداها لوحةً لطفلة تقف على نافذة لتتأمل السماء. الآن، وبعد أكثر من عشرة أعوام، ما عادت اللوحة صامتة، فالطفلة التي بها تدلّت من النافذة للمرة الأولى؛ لتخبر الزوجة بأن الأكثر جمالًا في كل الأمسيات هو ذاك الرجل الذي يغيب عنها. ولأن الطفلة كانت شديدة الحيلة، عادت للتسمر في اللوحة دون أن تخبرها عن أي رجلٍ كانت تتحدث!:

- تباً لكِ، لماذا أصابكِ الخرس الآن.

قالتها "نوال" بحنق للطفلة الزيتية التي ما عادت تتحدث قبل أن تُعرض عنها. وحيث تولي سيدة القصر شطرها، تنمو زنبقة أمنيات فجأة على ضفاف نهر آمالها. هذه الـ "نوال" تمنت أن تلتفت ولو لمرة صوب المرآة المجاورة فلا تجد انعكاسها، ولكن خابت كل توقعاتها أمام زجاج تأملاتها، خابت كثيراً لما رأت على المرآة مخاوفها التي بلغت عقدها الثالث.

تتساءل المشاهدة ذات حين، لماذا عندما يبلغ الخوف رشده لا يتوقف عن النمو مثلنا؟ هل لأن ذنوبنا أزهرت في مزامير الطفولة فما عاد الخوف يعرف حدودنا؟ أم لأننا أكثر غباءً من أن نتعهد بحماية أنفسنا؟ إنه التوجس يأتينا بلا موعد، يفتح أبوابنا بلا استئذان، ونحن بكل سذاجة نرحّب به، ونسمّيه ضيفنا.

صوت أزيز متقطع قطع سيل أفكار المرأة. كان قادماً من مكان ما، لربما كان من الخلف، أو من ماضٍ يستعص على الوصف، فما الذي أدراها؟ أردت "نوال" أن تطيل التمعن في التشوهات التي تركتها الأيام على وجهها، فقد كانت شهية للعين حقاً، ولكنها قررت أن تستدير فجأة، وأن تعثر على مصدر إزعاجها. سارت بخطى ثابتة صوب حقيبة يدها، صوب تلك القطعة الجلدية الممددة على الأريكة، ثم خبأت يدها في قلبها؛ لتستخرج منها رسالة نصية تقرأها على عجل:

- "عندما تكونين بعيدة.. استمري في عناقي.. فإنني الليلة سوف لن أنام"

كل شيء من حولها بدا رمادي اللون حين تسربت لأنظارها كلمات فارسها. ساعة الحائط الخشبية، أريكة المدخل الجلدية، حقيبة يدها القرمزية، وحتى الطفلة الزيتية بدت رمادية. وحدها "نوال" عما دونها، كانت تقف بشتى التدرجات وبزهو كل الألوان.

"ستنامين الليلة يا عزيزتي.. ولكن تذكري أننا سننجب سوية أجمل الأيام"

طريقة "فارس" المبتكرة في إقامة مراسم الشكر كانت أكثر بهاءً من أن تحصرها السيدة في جملة مفيدة. هي أرادت أن تبعث له بامتنانها، ولكن ما من وسيلة شكر تليق بالرجل الذي تعهّد لها ذات مرة بأن يصعد سلالم العتمة كل مساء، وأن يقتبس لها بعضاً من ضوء القمر. إنه ما من شيء يليق بذاك الذي يعلم مدى قدسية علاقتها بالسحاب، وبذاك الذي يخشى أن يُفسد صعوده ترتيب النجوم في السماء، وبذاك الذي أخبرها بأنه سيخلع من أجلها حذاءه حتى لا يدنس حُرمة الدرر.

"لأجلي كوني هنا.. لأجلي كوني هناك.. لأجلي كوني بخير"

بالعدل الذي يكابد أصابع العشاق، بعث الشاب لها رسالته الثالثة. كان "فارس" منصفاً حقاً عندما أراد أن يقسم رجاءه ثلاثة أقسام متساوية، وكيف له أن يقدّم حديثه العذب دفعة واحدة، فلربما كان ثقيل العيار، ولربما كان سيجعل نوالهُ تسقط مغشياً عليها.

ذاك الفارس ما خابت توقّعاته مطلقاً، فالمرأة التي تناولت جرعات الرسائل النصية كاد قلبها أن يتوقف فجأة. وضعت يداً على قلبها، وباليد الأخرى راحت تبتكر نصاً إيقاعياً يلاءم النبض في وريدها. وقبل أن تُفلح "نوال" في الاستعانة بقاموس المفردات المخبئ في خزانة أفكارها، أعلن اللون الرمادي أوان رحيله، جَمَع شتات تدرجاته، وفسح المجال لسائر الألوان بأن تتحد فجأة. في ثوانٍ معدودات إتحد أصفر الأضواء بأخضر الستائر، وامتزج أحمر الشفاه بأبيض الرداء، فلم ترى "نوال" أمامها سوى أسود واقعها.

للحقيقة الداكنة، ولعتمة الحياة، أخذت تعترف المرأة التي أصحبت في الرجاء عمياء:

- ما أتعس واقعي!

بضعة ثوانٍ أخرى قضتها "نوال" في العتمة، وما أن استفاقت الضريرة من غيبوبتها المطوّلة حتى سألت نفسها:

- لماذا لا يُبصرني ذاك الذي اعتاد بجواري البقاء؟

يغيب سؤالها سريعاً، ولكن يظل إيمانها وليداً، بأن لا أحد سيعاتبها الآن إن أدانت زوجها بكل ما

لحقها من أضرار.

تعود الألوان إلى واقع السيدة مجدداً، فتبادر بمغازلة هاتفها، وتطلب بعض الأرقام. تضع الهاتف بجوار أذنها، فتأتيها من بين الثقوب بعض الهمهمات. ولما أن كان امتعاضها من المتحدث واضحاً، قالت له معاتبة دون أن تلقي عليه السلام:

- بأضواء صبري، كيف تسبيك النساء؟
- عم تتحدثين؟
- عن كل اللواتي جعلنك غير مدرك بوجودي.
- لا أحد يشغلني عنكِ سواكِ.
- كل شيء غيري يشغلكَ عني.
- يبدو أنكِ متعبة، فهلا خلدتِ للنوم؟
- أي نوم؟ كيف لهذا الليل أن أجمعه؟

كان التساؤل مباغتاً، ولكن حين غادر الصمت قصب الكلام، أصبح الزوجان هكذا، عاجزين عن الاعتراف بأن كلاهما أساء فهم الحياة:

- ليس لي قدرة على النوم.. ما من مكان حميم أخلد إليه سوى حجم كفي.
- أنا الآن أريدكِ فقط أن تهدئي.

المرأة التي لم تُصِب الاختيار، راحت تشكي لزوجها قلة حيلتها. خطئها كان فادحاً حين طلبت تلك الأرقام على استعجال، خطئها كان فادحاً حين توهمت أنه وحده يعيش في الطرف الآخر من سماعة هاتفها. كان بإمكانها أن تكون أكثر حلماً، وأن تكون أكثر روية، فها هي الآن وحدها مُدانة بكل الحماقات. كيف لا وكل امرأة تشكو ضعفها لرجل لا يعشقها هي الآثمة الوحيدة؟

- هل بإمكاننا متابعة هذا الحديث عندما أعود؟
- متى سوف تعود؟
- لا أعرف متى، ولكنني تركتُ لكِ على طاولة الزينة خاتماً من ذهب.
- وما فائدة الهدايا إن جاءت ممن لا نحب؟
- وهل أنتِ لا تحبينني؟
- كيف لنا أن نحبّ، ونحن لا نعرف عنّا سوى أننا كنا بجوار بعضنا.
- صدقيني.. نحن نحب بعضنا.
- ما جدوى الحب إن كنا لا نمارسه كما يجب؟

أمسكت "نوال" بالقلب المرمري الذي أقسمت أن لا تقتسمه مع رجلٍ كمثله، ثم قالت له بجرأة:

- خواتمك التي تكدست في الأدراج، أتحسسها جميعها في آناء الليل ولا أرتديها.
- ولماذا؟
- إني أخشى أن يراها الناس.. لا أريد لأحد أن يمتدح خيباتي التي أرتديها.
- أنا لم أعتد هذه القسوة منكِ، فما الذي غيّركِ هكذا؟

- أنا لم أتغيّر.
- كلانا قد تغيّر منذ أن غاب الود بيننا.
- صدّقني.. أنا لم أتغيّر، بل أنت الذي لا يرى.. الآن وقد استعدتَ بصيرتك، سيتغيّر كل شيء من حولكَ وستبدو لك الحياة برمتها مختلفة.
- ماذا عن الود؟
- لم يكن بيننا أي ودٍ، بل كان تعاطفاً وفي بعض الأحيان كان نموذجاً مشرّفاً للشفقة.

تريد "نوال" أن تتوقف عن الحديث لبرهة، أن تعزل حنقها بعيداً، وأن تخلق حيزاً تؤرشف فيه سخطها، ولكن ذاكرتها شبه ممتلئة، والمساحات الضيقة لا تتسع لأي مخزون. لذا، استرسلت في تلاوة تأنيبها:

- لم أعش من أجلي بل عشتُ من أجلك.. عشت اللحظات جميعها لأجلك.. وبالرغم من أننا تعاهدنا على أن الحياة سنتناوبها، يومٌ عليّ ويومٌ عليكَ، إلا أنني حملتُ الأعباء جميعها، وسِرت بها وحدي.
- ولكنني كنتُ بجواركِ دوماً.
- أجل، لقد كنتَ بجواري لحظة أن كنتُ أنام على جانبي الأيسر؛ ولحظة أن اعتدتُ وضع يدي على صدري؛ حتى يستريح القلب من عنائك. فهل فكرتَ حقاً ماذا كان سيحصل حينها لو أنني نمت على الجانب الأيمن؟
- هذا إجحاف بحقي.
- أنا لا أعاتبكَ.. أنا فقط أعاتب نفسي لأنني تماديت في تقديم التنازلات.
- وهل أردتِ ذات مرة أن تتخلي عني؟
- وما الذي يجعلني غير قادرة على فعل ذلك؟ فأنت قد تخليت عني مراراً!
- أنا لم أتخل عنكِ مطلقاً.

صمتت "نوال" كثيراً في رحاب الأكذوبة التي عبرت مسامعها ذات نزاع وهي تحاول أن تستحدث رداً يليق بذاك الزيف، فلم تجد في جعبتها سوى سؤال وحيد ويتيم:

- ماذا تسميه ذاك الشيء؟
- أي شيء؟
- ذاك الذي لا تتبيّنه ليلًا لأنه داكن الجلد وأحمر العينين.
- هل له لهيب؟
- أجل.. إنه يحرق قلبي جيداً ولكنني لا أعرف ماذا أسمّيه.
- تنين؟
- لا، فإن الذي يقضم روحي أكثر جوعاً وغضباً من أن يكون تنيناً.
- سأسمّيه ضميراً.
- حسناً، ضميري يؤنبني كثيراً، فلقد أنفقت جل مدخراتي من السنوات بجوارك.

تنهد الرجل كثيراً وهو الغارق في حيرته ثم قال:

- أنا لم أعد أدرك أسباب هذا الخصام.

فأجابته الزوجة بكل هدوء:

- نحن لم ينشأ بيننا أي خصام. كل ما في الأمر أنه حينما انتهى الحب الذي عرفناه كنتَ أنتَ قادماً.

وحين عجز الزوج عن الرد، تولت الزوجة مهمة التوضيح قبل أن تُنهي مكالمتها:

- لقد تأخرتَ وتأخرتَ كثيراً.

الفصل الحادي والعشرون: ما زال أجا في جبل وسلمى في جبل آخر

- أكره الأطفال.. في حقيقة الأمر أنا لا أستطيع العثور على الكلمة المناسبة لوصف مدى بغضي لهم.

في ساحة عامة لا تبعد كثيراً عن مقر عملها، جلست "نوال" على مقعد خشبي لتتجاذب أطراف الحديث مع صديقتها المحامية. هناك حيث اللُجّة المتدفقة من نوافير الماء، تتأمل السيدتان مشهد الأطفال الذين تمرغوا في منسوب البلل بأجسادٍ رطبة لا تجيد سوى أن تمور في بركة القطرات. هتافاتٌ متقطعة يطلقونها كلما اندلق الماء بغتة من الفوهات المجاورة، والأمهات من حولهم يتابعنهم بهدوء يتناسب كثيراً مع أنَاة الظهيرة.

لفحات ريح جافة، قطرات ماء شاردة، صيحات أطفال مترددة، ملامح أمهات باهتة، كل شيء في مشهد الحياة ذلك كان تقليدياً، باستثناء السيدتين اللتين لجأتا إلى فيء شجرة مجاورة؛ حتى يسترقن السمع والنظر. تقول إحداهن للأخرى:

- أكره الأطفال فإنهم هكذا وبكل استهزاء، يختالون أمامي بالصبا، يضحكون في وجه الحياة، ويهرولون بشغب في المسافات. أكرههم لأنهم يذكّرونني بعجزي عن ممارسة الطيش، وبعجزي عن التحليق في سماء السعادة.

صمت مقتضب تلته "نوال" باقتباس من الماضي:

- أذكر ذات مرة أنني كنتُ طفلة بوداعة القلق. كنتُ أغمض عينيّ في الرجاء كثيراً، ولا أعرف من الدعاء سوى أمنية وحيدة بأن لا تخذلني الأيام. ولكنني حين فتحت عينيّ على عجل، رأيت نفسي في كثافة الهموم أكبر. هكذا وبلا استئذان، وجدتُ الأيام تدفعني بقسوة إلى مرحلة أخرى، ووجدت نفسي أتقدم في العمر كثيراً.

تتأمل "نوال" خطوط كفها وهي تتابع الحديث:

- الآن وأنا أرتدي ثياب العمر الفضفاضة، أدرك تماماً بأن هذا العُمر لا يناسبني، وأن ملامحي الناضجة لا تنتمي لي. لماذا لم تفصّل لي الحياة رداءاً يتلاءم مع مقاسات رجائي؟

ولأن خطوط كفها اليمنى بدت أكثر شحوباً مما يجب، قررت "نوال" أن تتحسسها بسبابتها اليسرى. مررت قلقها على ضمور التجاويف، فازدادت يقيناً بأن لا شيء بها ينتمي لها. المرأة التي عادت من صيدها خائبة الحلم وضعت كلتا يديها جانباً، ثم تابعت حديثها:

- يا لأطفال خيباتي على خط يدي! أنظري إليهم وهم يختالون بالصغر، وانظري إلينا، ننمو كل يومٍ في أجساد لا تتسع لنا، ولكن من قال أننا أردنا ذات مرة أن نكبر؟

تنهيدة حارة أتبعتها "نوال" باعتراف غير مسبق:

- إني أكره الأطفال لأنهم يستخفون دائماً بالحياة ومجرياتها، وكأنها بالنسبة لهم ليست سوى طرفة عابرة. لا ذاكرة تؤلمهم، لا جراح تعنيهم، لا هموم تسكنهم، وكأنهم معصومون من كل الأوجاع! أجاهد بدوري كل مساء؛ حتى أخلد للنوم، وهم بلا عناء يصعدون إلى سرير الأحلام. تباً لهم، فخفة أقدامهم تلك تجعلني راغبة في أن أهدم كل السلالم المؤدية إلى الراحة.

ولما ازدادت وتيرة حنقها، فضّلت "نوال" أن تلجأ إلى الصمت قليلًا، ريثما تخمد شعلة نقمها. وضعت مرفقيها على فخذيها، ثم أسندت رأسها على انعقاد كفيها؛ حتى تتمكن من إعادة تأمل مجريات الطفولة من حولها.

صِبية يعدون خلف الشغب في مرابع الماء، وطفلة تسير بحذر في الساحة حتى لا يتبلل فستانها. يكون الجميع في تلك الآناء مشغولين باللهو والبكاء والقفز، إلاها تلك الصبية تتباهى بردائها القصير بعض الشيء، وبتدرجات لونه الأزرق. تتحسس تموجاته بأنامل ريبتها، وكأنها ما عادت تدرك صمت الألوان في ظهيرة بليدة. تسير بصمت دون أن ترفع رأسها نحو غيمة، تعبر من هنا، تعبر من هناك، ولكنها في نهاية المطاف تحتمي بظلال والدتها من كل الظلال. تشيح "نوال" بوجهها عنها ثم تتم حديثها:

- أكره الأطفال فإنهم يتباهون على الدوام بالحصانة التي منحتها لهم الحياة. أنظري إليهم، يضحكون، يبكون، يقفزون، يسقطون، يكذبون، وأيضاً يسرقون، ونحن من حولهم نقف لنصفق.

تقهقه "نوال" هازئة وهي تحتسي قهوة واقعها المرة من كوب ورقي. تُثَبّت شفتيها على أطراف الكوب، تقبض على ما تسرب من البُن الأليف، وتعاود تَجَرُّع المندلق من أفكارها. جريئة جداً تلك المرأة حين بلعد مؤكدها، رشفة تلو الشرفة، بالرغم من إلمامها بأن الحقيقة التي من حولها غير صالحة للشرب مطلقاً.

تقاطعها صديقتها المحامية بحزم للمرة الأولى منذ الحضور:

أنتي تكرهين الأطفال لأنه ليس لديكِ أية أطفال، فأنتِ الأم الشرعية لآهاتك فقط

تناولها المحامية مظروفاً رمادي اللون ثم تستطرد:

- هنا ستجدين صوراً مطابقة لأصول المستندات التي تم تقديمها لمحكمة الأحوال الشخصية بخصوص طلب الخلع الخاص بكِ. لم يتم تحديد موعد الجلسة بعد، ولكن صحيفة الدعوى وورقة التكليف بالحضور تم إرسالهما إلى المكتب الخاص بزوجك.

تستخرج "نوال" جملة الأوراق من رحم المظروف بينما تتابع المحامية حديثها:

- تنص لائحة الدعوى على أن السبب الرئيسي لطلب الخلع هو رغبتكِ الملحة في إنجاب الأبناء، وهو أمر يستحيل تحقيقه استناداً على حقيقة عقم زوجك.

بلا تكلّف، قامت محاميتها بإعادة صياغة مفهوم الكراهية لديها في جملة من خمسة كلمات وهاوية. هكذا وبلا تكلّف، أعادتها صديقتها إلى حقيقتها، امرأة تجلس في ساحة مكشوفة دون أن تتحدث للشمس التي كانت مشرقة في جميع الاتجاهات، امرأة تنزوي لتقرأ الأسطر الأخيرة من زيجتها دون أن تلتفت للندم ولو للحظات، وامرأة تتساءل بكل حيرة، كيف للورق وحده أن يرسم نهاية محتملة لعلاقة دامت عشرة سنوات؟

تناصحها المحامية بصوت القلق وتقول لها:

- مازال بمقدوركِ التراجع.
- لن أتراجع عن هذا القرار حتى ولو اعترض عليه قلبـي.
- لماذا تريدين خلعه الآن؟ ماذا عن ما مضى من سنوات؟

- إنني لم أتمكن من العثور مسبقاً على الذي بمقدوره أن يعلّمني كيفية الإنعتاق، ولم أعثر مسبقاً على الذي بمقدوره أن يعلمني كيف أضع قدمي اليسرى خلف القدم اليمين.

- إذاً أنتِ ما نويتِ مفارقة زوجكِ يوماً، بل أردتِ الهروب.

- وما الفرق بين الخُلع والهروب، ففي كل الأحوال سيكون قراري مباركاً بوثيقة رسمية؟

- لماذا تودين الرحي؟

- لأني أريد أن أبتعد عن المكان والزمان وعن الذين يسكنهما أيضاً.

- مهما تماديتِ في المُضي قدماً، سوف لن تنجحي في الهروب، فستلحقكِ الذكرى والذاكرة وكل الأشيا المختبئة.

- سيسعدني حينها أن أنال شرف المحاولة على الأقل.

- يا ترى، ما هو ميراث مجتمعنا من الهروب؟ كم من امرأة قد نجحت فعلًا في التخلي عن كل ما كان لها؟

- لا أعلم.. سأكون أنا الأولى ربما!

تستقيم المحامية في موضعها، وكأنها كانت تريد أن تستعين بتصلّب ظهرها على حمل أعباء عباراتها القادمة:

- ثمة جبلين في الطرف الشمالي للبلاد يسميان بـ "أجا" و"سلمى".

- أعرفه جيداً.

تقول القصة التاريخية أن "أجا" كان رجلًا من إحدى القبائل التي استوطنت تلك المنطقة، وكانت "سلمى" امرأة ساذجة تهيم في حبه. ولما رفض أهل العاشقين تزويجهما، فرا سوية حيث الحرية. ولكن القوم أمسكوا بهما، قتلوهما وصلبوهما، في جبلين منفصلين، "أجا" على الجبل الغربي، و"سلمى" على الجبل الشرقي، فحمل الجبلان هذا الاسم حتى الآن.

- "فارس" ليس أجا.. وأنا لست "سلمى".

- هذا هو الميراث الوحيد للهروب في المجتمع الذي تعيشين فيه! لا أحد هنا سيفلح في الفرار.

تهز المحامية رأسها؛ حتى تبدي قلقها، ثم تقول:

- سيسمونكِ سلمى، وستكتب عنكِ موسوعة الـ "ويكيبيديا" إن تنتمين لفصيلة الحمقى.

- وما ذنبـي إن أردتُ الحرية.

- ذنبكِ أنكِ تخليتِ عن زوجكِ بعد عشرة أعوامٍ؛ حتى تتزوجي من شاب يصغركِ بعشرة أعوام.

- تباً للأرقام.

- وتباً للقيود الاجتماعية.

- لماذا أرضخ لها إذاً.

- لأنكِ سيدة مجتمع وشخصية معروفة.. وحدهم المنبوذون يكسرون الأعراف المحلية.

- ولكنني بسبب هذه الزيجة جريحة!

- لا دواء للجرحى سوى الصبر والاحتساب.

- لقد استوفيت نصابـي من الصبر، فلعله قد حان أوان انتمائي لحزب المنبوذين.

- سوف لن يغفر لكِ الكثيرون هذا الانتماء مهما تعددت أسبابكِ، وسوف لن يبارك أحد لكِ هذه الخطوة.

تصمت "نوال" حيناً، فيكون صرير عجلات الزمن المبحوح متسرباً لمسامعها. وبالرغم من أنها كانت فقط تستذكر ماضيها الضوضائي ولا تتحدث عنه مطلقاً، بدا صوته مدوياً بداخلها، وهو الذي راح يذكرها بما مضى من النزاعات والتنازلات. تقرر "نوال" أن تتخلى عن مجمل ماضيها، وأن تهز رأسها عنوة كي تنفض غبار خيالها، فيراودها وسواس السؤال الرجيم:

- لماذا لا نسمي تحليق الطيور في السماء هروباً؟
- لأنها لا تحلق من أجل البحث عن الحرية، إنها وبكل بساطة تعيش في سجن الحياة، وتتنقل بأجنحتها من مكان لآخر.
- ولكن ماذا عن تلك الطيور التي لم ترجع؟
- يوماً ما ستعود إلى نقطة بدايتها.
- ثمة من أخبرني أن هنالك طيوراً غادرت ولم تعد أبداً إلى بيوتها.
- تلك الطيور إما قد ضلت طريقها، أو وقعت في شباك الصيادين، فكل الطيور تحن إلى موطنها.
- أنا لا أحن لشيء.. أنا لا أحن لشيء مطلقاً.

ستضعين جناحيكِ على جناح أحدهم، ستحلّقين معه كثيراً، ولكن حين ينتهي موسم الهجرة، ستكون عودتكِ مؤلمة جداً.

لم تكن "نوال" لتستمع إلى النصف الأخير من عبارة صديقتها، فكل ما كان بوسعها أن تصغي إليه هو مقدرتها على التحليق في سماء الحرية يوماً. يا لغفوتها عندما استفاق الجميع، "نوال"، إنها مثل المراهقة الحالمة التي لا تدرك مدى صعوبة أمنياتها. بحماسة مفرطة تمسك بأوراق خُلعها ثم تسترسل في تلاوة آمالها:

- أجل سأضع جناحي على جناح أحدهم، سنحلّق سوية، سنغادر، سنهاجر، سنهرب، سنتزاوج، وسننجب الأطفال أيضاً.
- ولكنكِ لا تحبين الأطفال!
- سأكتشف معه الحياة مجدداً بكل فصولها. سأسلّمه روحي، وسيعلّمني على يديه البهجة والأمومة أيضاً.

تُمخر المحامية ريح التفاؤل التي هبت دون أن تحرك الأغصان المجاورة، فلقد كانت تلك النسمات غير جادة في حضورها. وما أن تفيء الريح بعيداً حتى تضع المرأة يدها بيد "نوال" ثم تقول:

- ولنأمل فقط أنه يستطيع التدريس.. فما من أحد في هذه البلاد يصلح لأن يكون معلماً.

الفصل الثاني والعشرون: لا تبكي.. فالأيام أبكت الجميع

تحت اتساع حدقة الشمس التي ظلت حاضرة تأبى الغياب، كانت "نوال" على ذات المقعد الخشبي متسمرّة. غادرتها صديقتها على استعجال، تركتها بالخلف محملةً بفيض من الأفكار، فتحتّم عليها أن تلمّ شتاتها هي الأخرى، وأن تعلن أوان الرحيل. لكن السيدة التي سارت بطوعها إلى نهايتها فضّلت أن تطيل البقاء فيها وكأنها كانت تنتظر أن يأتيها من رحم الخاتمة شخصٌ آخر.

لعمرها المعلّق على الظل المجاور، للروح المكلومة في جوف الصدر الغائر، وللحديث الذي لزم سقف الحلق بانتظار فسحة البوح الجائر، كانت المرأة غير مدركة لما يدور حولها. لا شيء في ذاك المحيط كان جديراً باهتمامها، حتى الطفل الصغير الذي عبر بجوارها ذات طرفة عين ليلتقط كُرته المتدحرجة. ذاك الذي نظر إليها بعينيه الواسعتين، قالت لها عيناه بأنه كان بهياً، ولكن رطوبة أصابعه لم تكن كافية لجذب انتباهها. لربما أرادها الطفل أن تُثني على ابتسامته، حين أصاب البلل ملابسه، ولكنها سيدة تكره الأطفال، فكيف لها أن تراه أو أن تشاهده؟

أعرضت "نوال" بوجهها عن الطفل، فتهادى إليها خيال رجل قادم من الجهة المقابلة. ولأنها كانت محاصرة من كلا الجهتين، راودها يقين بأنه لو كان الخيار بيدها لما نظرت إلى الطفل على يمينها، ولما نظرت صوب الرجل الذي عن شمالها. أغمضت عينيها؛ حتى تعينها ظلمة الروح على مغالبة مخاوفها، ثم تساءلت بحيرة، إلى أي الاتجاهات توجه الطريدة أنظارها إن لم يكن الخلف والأمام خيارين متاحين؟

الجالسة على الخشب، تلك هي امرأة نافذة الآراء يهابها الكثيرون. تعتصم بمقعدها من رعشة المواجهة، تردّد بعضاً من تعاويذ الاستغاثة، وتقتبس على الفور ملامحاً صارمة حتى لا يرى الآخرون قلقها. مذهلٌ أن هنالك شيئاً ما يخيفنا دوماً، سواءً كنا مستبدّين أو مستضعفين!

إن الذين خاطوا لها الوجع ذات مرة، بعثوا لها اليوم مندوباً بثوبه الزاهي. رجل يكبرها بعامين أو يزيد، كان متأنقاً بعض الشيء وهو يأتيها بنصف ابتسامة باهتة. شاهق ما تسرّب من خطواته، يوم أن حاول تفادي مستنقعات الماء التي خلفتها النوافير. كان يرفع قدماً، ويثبّت قدمه الأخرى؛ حتى يتفادى برك الماء المتمددة تحته، فيبدو حذاء الـ "فيراغامو" لامعاً من على بعد عدة أمتار. وما أن يصل إليها حتى يجلس بجوارها دون أن يلقي عليها تحية أو سلاماً.

رجل القامة المنتصبة، إذا ما غضضنا البصر عن غترته الناصعة البياض، وعن غمزتيه ورفت شاربه، كانت رائحة المسك التي تلتحفه شديدة الحضور فعلًا. كل شيء في تواجده كان مثيراً للانتباه وللحواس الخمسة أيضاً، فالمرأة التي بجواره كانت قادرة على أن ترى حقيقة وجوده، وأن تستنشق رائحة جلوسه، وأن تتذوق مرارة تجاهله، وأن تلامس واقع صمته، وأن تستمع كذلك إلى الهمهمات التي راح يرددها في الخفاء:

آه.. كم أنا قلق!

راح الرجل يكررها وهو يغمض الأوجاع جفناً لحظة أن فر منه الخوف. أراد أن يهدهد دقات قلبه الغير منتظمة حتى تهجع، فرنّ جرس حيرته مثل الناقوس، وتردّد صوت الريبة بالقرب منه.

تغيب الكلمات في لحظة سكون، يتقايض الجالسان رسائل الوجوم، فلا يعبر في حاجز المسافة الضيقة بينهما سوى صوت حشرجات الطفل الذي كان في جوفه يتساءل، كيف لهذين الراشدين أن لا يتبادلا التبسم؟

ما لا يدركه الطفل هو أن هذان المتجاوران يلتقيان مرة في كل عام حتى يتواريا في هذا المكان المتخم بالبلل، وحتى يتذكرا سويةً حكاية الأم التي توفاها الله ساجدة، والجدة التي رحلت عن الحياة ناقمة، والأحلام التي غرقت في مياه الزمن الآسنة. مرة في كل عام، يخلع الاثنان أمام الملأ أيامهما، ثم يبادرا بالإنصات إلى وقع أقدام العمر وهو يغادرهما، ولكنهما لا يحرّكا ساكناً، وكأنهما بانتظار شيء ما أن يحدث!

يصب الرجل جُل تركيزه على الذي كان في يده، مسبحة من خرز الصمت أحمرُ لونها، فتعينه الحبيبات على الكلام:

- نحمل الصدفة على ظهورنا حتى نلتقيها.. وما أجمل الصدف حين تباغتنا أحياناً!
- لقاؤنا المبرم فخ اعتدناه، فكيف له أن يكون مصادفة ونحن قد تعاهدنا على الوقوع به آنفاً؟!
- سيظل تواجدنا في طرف النهار حدثاً أشبه بالمصادفة، حتى وإن خطّطنا له مسبقاً.
- ما من صدفة في اللقاء سوى أننا لم نكن لنحب النهارات. كنا نغلق الستائر في منـزلنا، هل تذكر؟
- كنا وكأننا نخشى من اللون الأصفر أن يحل علينا ضيفاً.
- ترى ما الذي قد تغيّر؟
- كل شيء بنا قد تغيّر، وكل شيء بكِ قد تغيّر! شعركِ الذي فقد طوله، عيناكِ اللتان أضاعتا بريقهما شفتاكِ اللتان نسيتا الابتسامة، ما عادت ملامحكِ مشابهة لما أذكر.
- كنتُ ذات يومٍ جميلة، ولكن ندبة الزواج أفسدتني كثيراً.
- أنتِ ما زلتِ جميلة!

قالها الرجل وهو يلتفت نحوها حتى يهديها ابتسامة صادقة. وبالرغم من جمود ملامحه، إلا أن التبسّم كان يليق به كثيراً. استدار بجسده كاملًا صوبها؛ كي يُنصت لها، وهو الذي مع الاستدارة راح يخلع نظارته الشمسية بهدوء مطلق مثلما يفعل أبطال الأفلام الهوليودية:

- بعض الأشياء تغيّرت من تلقاء نفسها، وبعضها قمت بتغييرها طوعاً. كان عليّ أن أُبدل كل ما هو حولي؛ حتى أستعيد ما ضاع مني.

اعتدلت "نوال" في موضعها مراراً بعد ما سبق ذكره، وكأنها كانت تود أن تَحِلّ قيود السنوات العجاف. فتحت صدرها لزعيق النهار بعد أن أخبرها كبرياؤها بأنه ما كان عليها أن تتمرغ بالخذلان يوماً، أو أن تستسلم لرجل يعلّقها على مسامير رغبته مثل معطف الشتاء. حَكّتْ جراح الندم على جبينها، ثم تقول بغتة:

- أريد أن أخلعه!

- أنتِ تريدين أن تخلعي العالم بأسره.
- أنا أريد أن أتمكن من صياغة نهاية تليق بما مضى من سنوات.

أنا لا أفهمكِ، أنا لا أفهم العالم يا أختي، تتصرفين وكأنكِ في حلم، تريدين الوصول إلى النهاية قبل أن تبدئي.

ما حدث في تلك الظهيرة من مفارقات كان مدهشاً للغاية، فللمرة الأولى منذ سنوات، وضع الرجل يده على كتف شقيقته حتى يتحسس انكسارها. ولأنه كان عطوفاً بعض الشيء، راح يستعيد معها تفاصيل جميلة، فلعل الذكريات تهدئ من روع قلبها:

- هل تذكرين أمي حين كانت تخبئ صوت أغنياتها في مدخنة البخور؟ كانت تريد لصوتها أن يكون شجياً رغم كل الأوجاع التي أكسبته تلك البحة. ما المانع في أن نغني من أجل الحياة حتى لو لم تكن منصفة؟ ما العيب في أن نقف في مجابهتها وأن نغرد.
- أمي التي غَنّت في الصباحات الندية، كانت في كل مساء تبكي فراق أولئك الذين ماتوا في الحرب!
- الحرب التي خضناها حتى نحرّر غيرنا؟
- أجل، تلك الواقعة التي أخذت منها أعز أبنائها.
- هي التضحيات نصنعها من أجل الغير حتى نفقد ممتلكاتنا.
- إنها كانت تبكي وتبكي كثيراً.. كنتُ بكلتا عينيّ أراها.
- ولكنها في نهاية المطاف كانت تغني.
- وما فائدة الغناء إن لم يكن يجلب لنا السعادة؟
- إنه يكسبنا المقدرة على التفاؤل ولو للحظة.
- أنا لا أبحث عن دواء مؤقت، أو ضمادات لحالتي المرضية. كل ما أريده هو أن يتماثل حُلمي للشفاء تماماً.

استعاد الرجل يُمناه التي تمددت على كتف شقيقته لبرهة، فلقد كان بحاجة إلى كلتا يديه؛ حتى يتمكن من إيقاف همومه التي أوشكت على التدفق من قلبه. ثبّتَ الرجل كفيه على الشق الأيسر من صدره؛ حتى يحتبس نزيفه ثم سألها:

- وهل نملك أجساداً حتى نمنحها السعادة أو الشقاء؟
- نملك المبررات الكافية للاستدلال على حقيقة وجودنا.
- هل يمكنني إذاً أن أثبت وجودي؟
- ديكارتياً يمكنكَ أن تقول: أنا أتألم.. إذاً أنا موجود.
- ومنطقيا؟

لا، لا يمكنك أن تثبت وجودك. فنحن نعيش خارج أجسادنا.

- إذاً أنا وجسدي شيئان منفصلان.
- أجل!
- حسناً، أنا جريح.. وجسدي يتألم كثيراً.

تأملت "نوال" ملامحه التي بدت أكثر صلابة مما قبل. هناك حيث النوافير، كان شقيقها "فهد" جالساً بتجاعيد الزمن الكثيرة على وجهه. إن الكرسي الخشبي كان يصلح للجلوس رغم أن المعاينة السريرية لا يمكنها أن تتم لعدم توفر الكادر الخاص، ولكن "نوال" ورغم جهلها بالتشخيص، تمكنت من أن تسمعه من خلف صدى صمته وهو يصرخ:

أنا لست سعيداً أيضاً.

حتى تتماشى مع الحياة بنقاء، عليكَ أن تتعلّم كيف لا تبوح بأحزانك لهؤلاء، وأن تحافظ على توازن هيبتك. هذه مجرد تداعيات "فهد"، رجل سعودي يأبى أن يبدو أمام الآخرين مهزوماً، حتى ولو وشت عيناه بذلك.

ولأن الأمهات في تلك الساحة قد سارعن في لم شتات أبنائهن، والتمسن سُبُلهنّ بالرحيل، بدت تلك الساحة خالية تقريباً من الرواد، وبدت كذلك مكاناً مناسباً للوشاية بسرّ عظيم. قال "فهد" وهو يدنو من شقيقته:

- أن تستيقظ بجوار زوجة لا تعني لك شيئاً، ذلك هو الوجع الأكبر.

قالها وكأنه كان خائفاً من أن يسترق ضميره السمع. ثم تلا تلك الوشاية بالكثير من الإيضاحات المبهمة:

لقد اكتشفت مؤخراً حجم المرارة التي تذوّقتِها أنتِ طيلة السنوات الماضية عندما وجدتُ نفسي في منزل بالكاد يبدو لي مألوفاً. حيث الحيرة، وجدتُ من حولي أطفالاً لا أرى فيهم سوى ملامحي. أردتُ أن أكون لهم وفياً بالوجود، أردتُ أن أكون لهم والداً، ولكنني في نهاية المطاف فضلتُ أن أجلس في حجرة المعيشة كل مساء، وأن أكون متفرجاً.

ذات مزحة داعب الرجل تلك الجرّة المليئة بماء الذكريات، فسقطت من على علو، وانكسر خزفها. كان صوت السقوط مدوياً لحظة أن تسربت الكلمات على الأرض المبلّلة مسبقاً، وعوضاً عن الاكتفاء بما قد تسرّب خارج حدود الكتمان، شرع الرجل في الإفصاح عما لم تعهده مسامع شقيقته:

- زوجتي التي تكرهينها.. نعم تلك التي تكرهينها.. تقول لي دوماً أنها لا تحب جلساتي المطولة كثيراً خلف التلفاز! يا لسذاجتها، إنها لا تعلم أنني لا أستعرض في الأمسيات نشرات الأخبار، وإنما أجلس لأشاهد الحلقات المطولة من مسلسل شقائي. أراها من أمامي تعبّر، ويعبر من ورائها كذلك أطفالي. يقطعون المسافات بين الحجرات، تعلو أصواتهم في الردهات، يضحكون حيناً، يتقاتلون أحياناً أخرى، وأتساءل وحدي، لماذا لا أعرف من الحضور سوى أن أجلس على الأرائك لممارسة الاعتزال؟

يجتهد "فهد" لإيجاد سؤال لا تفلح الشقيقة في العثور على إجابة مناسبة له، فتكتفي الأخيرة بحك رأسها، بينما يستطرد الرجل حديثه:

ذات مرة اقتربت مني ابنتي الكبرى، وسألتني لماذا أبدو في غالب الأحيان حزيناً. لم أكن لأجيبها على السؤال لأني لا أعرف له إجابة ولكن لم يكن السبب أدمعي، فلقد

اجتهدت كثيراَ في إخفائها، ولدي الآن مستودعات منها. ولم يكن السبب ملامحي أيضاً، فلقد أفلحت دوماً في استعارة البهجة المصطنعة مثلما يفعل غيري. فكيف لصبية في العاشرة من عمرها أن تقرأني واضحاً مثلما لم أفعل أنا، ومثلما لم تفعل زوجتي؟

وهل بإمكان وتر العواطف أن يمنح التعساء رغيف الصبر؟ جياع في انتظار السعادة، يجلس الشقيقان في ساحة باتت خاوية، ويتساءل كلاهما في الخفاء لماذا ترك الطفل كرته المتدحرجة بجوارهما دون أن يستعيدها. إنه لم يكن خائفاً منهما، فلقد حاول أن يتبسم لأجلهما مراراً، ولكن ما أدرانا كيف يفكر الأطفال، فقراراتهم أشبه بقرار الماء حين يتمادى في الانسكاب من أفواه النوافير دون تفكير مسبق.

يساور "نوال" القلق إزاء شقيقها، فيأتي صوتها فجأة:

- لربما قد حان الأوان لأن تغير كل الأشياء من حولك أيضاً!
- أنا لست جريئاً مثلكِ، ولا يمكنني أن أخلع أحزاني ببساطة، أو أن أستبدل حياتي بحياة أخرى.
- كل ما عليك فعله هو أن تقول وداعاً لكل اللذين التي احتشدوا في طريقك.
- سوف لن يسعني أن أودع أطفالي حتى ولو أفلحت في توديع زوجتي والدار.
- في هذا الجانب الحزين من العمر سوف لن ترى سوى الظلماء.
- إني أرى نوراً خافتاً.
- سيختفي قريباً.
- أريد فقط أن أكون متفائلًا.. أحاول أن أثق بالأيام، فلعلّها تبدّل حالي.
- أنا على يقين بأنه ما من أحد غيرنا قادر على أن يبدّلنا!
- أنا لا أملك حلًا.
- الطريق المؤدية إلى روما إنها أمامك، ولكن زوجتك لا تفتح لك الباب. لذا، ابحث عن مفاتيح خلاصك.
- كل المفاتيح التي معي لا تتسع حدقة أبوابي الموصدة.
- حرّر جناحيك، وأطلق ساقيك للريح من النافذة.
- لا أريد أن أسقط من عليائي، أو أن أستيقظ في هاوية الخيبة.
- ذاك هو اعتقادكَ إذاً؟
- لا الهروب سينفعني.. ولا الخلع سوف يسعفك.
- أنا قد عقدت العزم بالإنفلات من قفصي، ولسوف أكون سعيدة إن توفّيت في الحرية.

ضعي تبعات هذا القرار نصب عينيكِ.. حاولي إعادة تقييم النتائج مجدداً.

أنا قد حسمتُ أمري

هذا شأنكِ، ولكن تذكري أن الحياة كحجارة الدومينو، إن سقط فصل واحد، سقطت الفصول كلها.

تخلى الرجل عن مكانه ثم سارع بالوقوف ليخبرها بالحقيقة المفرطة:

- ستخلعين زوجكِ.. ستغيبين عن أخيكِ.. ستموت شجرة العائلة.. ولكن لا تهتمي بجذوركِ يا عزيزتي كـ
يمكنكِ البقاء حرة.

التقط الرجل نفسه وسارع بالرحيل، ولكنه قبل أن يبتعد عنها راح يتمتم:

- نُورك يا الله.. فها أنا طفل يرعبه كلامي!

الفصل الثالث والعشرون: ما ذنب المرأة التي تنام بشهوة مكسورة؟

إنه حديث منثور، وحكاية عطر مهدور، حين فتحت إحداهن الباب على حُلمها المقفول. أزالت برغبتها قيود النسيان، وخلعت بيقينها مزلاج الحرمان، فتمخّضت سعادتها من رحم الغيب بالقدر المهول. ولأن نتائج عثورها لم تكن متوقعة، وضعت المرأة كفها على ثغرها، ثم صرخت، وما عساها في تلك المفاجأة أن تقول؟

إنه لقولٌ مأثور، وسرد لا يعرف الزُور، حين ماتت صرختها مكتومة قبل أن تولد، وهل بوسع الصرخة أن تنتمي لامرأة لا تعرف من هذه الحياة سوى السكون؟ تلك الصيحة التي لم تكتب لها الحياة، سليلة الدهشة، إنها ولما اغتالتها والدتها، سقطت في جوف الحلق مثل غصة أُبتُلِعت بمرارة. وما أن تلاشت آخر دلائل وجودها، حتى حل السكون مكانها، وكأن أمها التي أنجبتها قد غدت عاقراً على الفور.

إنها أقصوصة العثور، وأحدوثة اكتشاف السرور، حين تركت احداهن وصل الآخرين في مدى أيامها، وتفرغت لتفحّص مفقوداتها، فهي ولأعوام عديدة ظنت أن ما أضاعته من بهجة سوف لن تعثر عليه مجدداً. هو الكون، باردٌ وصغيرٌ جداً حين نعثر فيه على ضالتنا، وهي السعادة، حين نجدها في ملامحهم أشخاص لا نعرف عنهم سوى مقاسات أحلامهم!

إنها أسطورة الشَبق المقبور، وخرافة الذنب المغفور، حين استعانت امرأة بما وجدته من نور؛ حتى تتمكن من السير على جسر العبور. تمددت على سريرها شبه عارية، ثم تساءلت عن السر الذي يجمعها بشاب ينظر إليها عبر حاسب لوحي. استلقت أمامه مثل يومٍ خريفي جميل سقط لتوه من كبد السماء، فكان الشاب ممتناً لها، وممتناً لوجودها على مقربة من ابتعاده. لاطفها، حدّثها، داعبها، وما أن بلغ هوسه بها أقصاه، حتى كانت بالنسبة له شديدة الرقة، وكان هو قائلًا لها:

- رداؤك الأبيض يثيرني، وملمسه الحريري مناسب لروحك.
- أأقترب؟
- ذريني أرتّب قولي، ثم اقتربـي مني؛ كي أتلو عليكِ لهفتي.
- ولكنني بالكاد أبدو جميلة!
- أنظري إليكِ يا فاتنتي، وسترين حينها أنثى الجمال.
- أنتَ الآن تنظر إليها، فما عساك أن تقول لها؟
- كم أود معانقتكِ ولو للحظات.

ابتسمت المرأة على خجل، ثم تمتمت:

- أووه، كم أحب معانقتكَ لي كثيراً.
- وماذا عنكِ؟ ألا تودين معانقتي؟
- وكيف لي أن لا أتمنى معانقة الجسد الذي يأسرني دوماً؟
- إنه ليس عارياً الآن، ولكنني سأخلع قميصي وروحي كذلك، فلا يناسبني أي منهما.
- عندما تفعل ذلك، سأكون حينها راغبة في معانقتك وتقبيلك أيضاً.

- الإشارة ضعيفة، أو لا وجود لها. سأعاود الاتصال بكِ.

غابت ملامح الشاب، ولكن عباراته ظلت حاضرةً لتذكّرها بمدى سهولة تضليل حواس الرجال. إنها لم تكن لتعاتب فارسها الكامن على الطرف الآخر، ففي ظل وجود التقنيات التي تسهل اللقاءات الافتراضية، يكون الشاب متصرفاً بطريقة مبررة مثل سائر الشباب في مدينة "الرياض". "فيس بوك"، "تويتر"، و"تانغو".. "وتس آب"، "سكايب"، وأيضاً "بارلنغو"، كل وسائل التواصل الحديثة كانت محرضة على الجنون. هتفت المرأة بحنق:

- تباً لشبكات التواصل الاجتماعية، فالرجال على وشك أن يفقدوا صوابهم!

وقبل أن يمنحها غياب الشاب سبباً لأن تتراجع عن ارتكاب أخطاء حواسها، عادت الإشارات الرقمية، وعادت قامته الرشيقة. جسده الناحل كان مسكوباً على أريكة جلدية سوداء، تماماً مثلما انسكب قبل أيام عديدة. أما انحناءات صدره المرنة فقد كانت وفية تماماً، لا بل كانت خاضعة لسائر قوانين الجاذبية. ولأن كل شيء في ذاك الفارس كان متحدثاً بصمت، وحدها شفتاه نطقتا بصوت عالٍ:

- أريد أن أنتمي إليكِ.

فقالت له "نوال":

- وأنا دولة أفراحك!
- إلى أي جهة أستدير حتى أصل إلى عاصمة قلبكِ؟
- ثق ببوصلة قلبك، إلتفت نحوي، سِر إلى الأمام، ثم ستجدني.
- ولكن الطريق وعرة.
- لا عليك، واصل المسيرة.
- أرهقني الترحال وأنا الحالم بالوصول إليكِ.
- بضعة أيام فقط، وستنتمي لي.

يناولها "فارس" طراوة شفتيه، فتقترب "نوال" من الشاشة حتى تلتهمها. مثل شرائح الكعك التي كانت تصنعها أمها، كانت شفتاه الورديتان منتفختين بعض الشيء، شهيتين، وبهيتين، تأكلهما العين قبل الفم أحياناً. وما أن التصق ثغر المرأة ببرودة الزجاج، حتى جاءها صوت زفير الشاب الدافئ ليشعل بداخلها الرغبة في أن تكون بين يديه حقاً. ابتعدت "نوال" قليلًا عن الحاسب اللوحي ثم قالت له بلهفة:

- مثل الفراشة أسعد للقائكَ ويحرقني اللهب.
- ما الذي يدفعكِ لقول ذلك؟
- أنكَ ستغادرني بعد قليل، وأنني سأظل من بعدك وحيدة ومتّقدة بهذه التفاصيل.
- نحن في الحرائق متعددون، ولكننا في الرماد واحدُ.
- هل أنتَ تحترق مثلي؟
- كثيراً، حتى وعندما تكونين بجواري.

يلتزم كلا العاشقان بالصمت لثوانٍ معدودات قبل أن يعود صوت الشاب مطمئناً:

- لن يدوم هذا الحال كثيراً.
- أنا وأنت مثل اللصوص، أفعالنا جميعها نمارسها بالسر.
- كل شيء سيتبدل.. كل شيء سيتغير.
- ولكنني لا أعرف كيف سنستعد للتغيير.. كيف سنتأهب للمستقبل؟
- أنا وأنتِ لن نتأهب للمستقبل.. فنحن الآن في قلبه.
- ولكن ماذا سنسميه؟
- ما هو؟
- ذاك الشيء الجميل الذي سيأتي بعد مستقبلنا؟
- سنسميه مصيرنا.

يستند الشاب على ذراعه اليمنى؛ كي يستعيد توازن أفكاره، ثم يشي لها بقوله:

- سأسميه غايتنا.. سأسميه سعادتنا.. لا بل سأسميه أنتِ وأنا!

تَقلّبتْ المرأة في مضجعها حين كانت تحلق في سماء التفكير، تتقاذفها ريح الخيالات من سحابة إلى سحابة. ولأنها أرادت أن تتشبث بفكرة واحدة ومعيّنة، تعلّقت بكتلة غيم عابرة، ثم ضمت إلى صدرها وسادتها المجاورة:

- هل تذكر ابنة النافذة؟
- تِلك التي شاهدناها تنتحر في صالة السينما؟
- أجل.
- ماذا بها؟
- إنني لا أريد أن أموت مثلها!
- سوف لن تقفزين من أي شرفة ما دُمت حياً.. وسوف لن ألقي بحبنا من ثغر النوافذ يوماً.
- إنني أخشى فقط أن نستيقظ من هذا الحُلم فنجد أننا نعيش في ماضينا.

قبضت المرأة على نعومة القماش بأصابع لهفتها، لعلها تلامس خيطاً واحداً من خيوط أمانيها، فتأوهت الوسادة أبداً. أما الشاب الذي كان يشاهدها تتلوى في مهجعها فقد سارع إلى أن يقول لها:

- لم يكن عليّ أن أدعكِ تغادرين منـزلي ذاك المساء
- ولماذا؟
- حتى يُصبح بقاءكِ بجواري أبدياً، وحتى تُدركي بأننا لا نعيش في ماضينا.
- ولكنني امرأة لا تُحسن البقاء.
- وامرأة لا يتخلى عنها الرجال.
- لقد تخلى عني الكثير من الرجال مسبقاً.
- ولكنني لستُ مثل غيري. سأنجح في الحفاظ عليك حتى وإن استلزم الأمر اختطافك.
- ولكنك لو نجحتَ في اختطافي، فما عساك فاعلُ حينها؟
- كنتُ لأصلبكِ على قلبـي، وأقيّدكِ بوثاق وريدي. كنتُ لأغلق أبواب الحياة جميعها، وأوصد كل المنافذ م

خلفي. كنت سأملكِ دوماً، وتكونين أنتِ رهينتي. وحين يحاول أحدهم البحث عنكِ، سأخبئكِ بداخلي سها الاحتضان، وصعبة العثور، فلا يسلبكِ أحدٌ من جوفي.

تسند المرأة رأسها على وسادتها، تُرخي بعضاً من قلقها، فيتعهد لها الشاب بأن يكون ملء عينيها على الدوام، حاضراً ليس غائباً. تُشير إلى موضع في صدره المنكشف، هناك على الحافة اليسرى، فوق القلب تماماً، فيقول لها:

- أجل.. هنا سأضعكِ كل ليلة.. هنا ستنامين دوماً يا عزيزتي.

صوت ما جاء مثل الطرق متكرراً، فالتفتت المرأة نحو النافذة التي خلفها، لعله كان قمراً ضالًا، أو نجمة تريد أن تسترق السمع حينها. في كل الأحوال، حتى لو تَنَصّت كل من في المدينة على أحاديث خلوتها، لم تكن تلك المرأة لتسدل الستار على أمانيها.

- سحقاً للجميع ما دمتُ سعيدة.

قالتها "نوال" قبل أن يعود صوت الطرق مجدداً، فكان الطرق هذه المرة أكثر ضجيجاً وقُرباً مما مضى. شرعت "نوال" في البحث عن مصدر الصوت، وضعت يدها على صدرها، فكان الطارق قلبها. ويلها، ما الذي يدفعه في هذه اللحظة تحديداً لأن يصرخ "أنا الأكثر سعادة في مساحة الكون كلها"!

تقبض المرأة على قلبها سريعاً، حتى لا يشي بلهفتها، فيلتفت الشاب لرقة اليد التي هَوت على الحرير ثم يهمس لها:

- لكِ في جسدي مناطق العُري كلها، ولي في جسدكِ ذاك المكان فقط، حيث أريد أن أنام.
- جئتكَ ملتحفة بالياسمين، فلعلك تترفق بمفاتن ذبولي.
- أنتِ يانعة.. ما أبهى رحيقكِ.
- هل أبتعد قليلًا كي تتنفسني؟
- لا، اقتربـي أكثر حتى أقطفكِ من هناك.. ثم أغرسكِ هنا زهرة في قلبـي.

ها هي "نوال" الآن، تحمل في أعماقها بهجة تُداريها، وتقول إلى طفلة كانت تشبهها ذات يومٍ: "أنظري، ها قد تحققت أحلام صِباكِ".

حقاً، ما أجملنا حين تتبرعم أحلامنا قبل أن يخذلنا العُمر، وقبل أن تباغتنا شيخوختنا. ها هي "نوال" الآن، تقترب بجسد منكشف لا يستره سوى القليل من الحرير، وتُهدي باقة حضورها إلى الشاب الذي أمامها:

- هَيتَ لك!
- ما أجملكِ.
- أنا الآن لك.
- ما أكرمكِ يا أقحوانه الحياة، وما أبخلني فيك.. أريد أن أقبّلكِ كثيراً، ولكنكِ رقيقة جداً، وأنا أخشى عليكِ مني. سوف أعفي خدكِ من لثمة اشتياقي هذه المرة؛ فإنني قد أوشكت على خطف كل الرحيق منكِ.

تتحسس المرأة تلك الساعات، ما أقصرها حين تنصرم دون استئذان. هناك حيث عراء العري، حيث

حقول القُبلات، وحيث منبت الإغواء، تكون ساعة الحائط مشيرة بخبث إلى أوان الذبول، وإلى الواحدة بعد منتصف اللقاء. يقول الشاب بحرص:

- هل أطلنا خلوتنا؟
- ربما.
- ولكننا لم ننل كفايتنا!
- اللقاء.. إنه ليس قُوت يومنا.
- السعادة هي وحدها كفاف حُبنا.
- الآن، كيف باستطاعتي أن أنام؟
- سأهبكِ بعضاً من القبلات حتى يمكنكِ اللجوء لغفوة.
- لا.. أرجوكَ لا تُقبّلني.. فـ "كافيين" شِفاهكَ سيبقيني يقظة حتى النهار.
- حسناً، سأقول لكِ فقط: "تصبحين على خير".
- سيكون الوداع حينها تقليدياً ومملّاً بعض الشيء.
- أُحبكِ لأنكِ انتقائية دوماً.
- حسناً، أخبرني أنك تحبني فقط.
- أحبكِ دوماً.
- وأنا ممتّنة لحبكَ على الدوام.

هناك حيث شاشة الحاسب الباعثة برقمية الإشارات، ينتهي الحوار، تغيب الصورة، وتهز الريح أشجارها حتى يرقد الليل. ولأن المرأة لم تشأ أن تخلد إلى النوم بجوار آثامها، قررت أن تغادر حجرتها، وأن تبحث عن مأوى آخر لراحتها. سارت نحو الباب المؤدي خارجاً، وما أن همت بعبوره حتى جاءها صوت من الخلف. هذه المرة كان ضميرها، إنه يريد الآن أن يؤنبها!

الفصل الرابع والعشرون: في محراب الهزيمة.. كل التعاويذ ساذجة

يا طارقاً أبواب المساء كف عن الضجيج، فالليل قد خلع ملابسه ونام. أبعد أصابعك عن خشونة الخشب، فما من أحد هنا ليلبـي نداءك، ما من أحد هنا ليفتتن بصخبك. يدك التي تروح وتجيء قد أثقلت كاهل السكون، فيا مارقاً عن الوجوم، احمل ترهلات ضوضائك وغادر الآن.

يا باعثاً على الضوضاء، ما بالكَ متسمراً؟ هل ترجو قليلًا من الانتباه؟ إن الذين اعتادوا البقاء هنا قد رحلوا جميعاً، تاركين خلفهم حجرات لا تتسع للحشرجات. إرحل فالخادمة قد تُوفيت مؤقتاً، والزوج قد ارتحل بغتةً، والزوجة قد عرجت إلى سماء الأحلام!

يا عاكفاً بجوار الجَلبَة، سيدة القصر قد خلعت حذاءها، ونـزعت جل أحزانها، وتسلقت سلالم الأمنيات. لربما كانت قد حملت معها ذاك الحب الذي أرهقها، لكنها وللمرة الأولى صعدت للأعلى وهي بابتسام. فبربّكَ غادرنا، ولا تطل البقاء.

يا قادماً بلا ميعاد، هاهي المرأة المبجّلة قد انتَشلتّها أنت من نومها. ألا تراها تفوق الآن من السبات؟ إنها تعتدل في موضعها، تحملكَ بلطف بين يديها، تضعكَ تماماً بجوار أُذنها، وتُنصِت لكَ بحواسٍ أرهقها الحياة:

- ألو..
- مرحى "نوال".. أعتذر على اتصالي في هذا الوقت المتأخر.
- لا عليك، فأنا شبه مستيقظة.
- أخشى أنني أتصل بكِ ومعي خبر سيء.
- أوه!
- سوف يصدر غداً تقريرٌ صحفي.
- تقرير صحفي؟
- إحدى الصحف المحلية سوف تقوم بنشر تقرير عن الممارسات اللاأخلاقية لبعض المنتسبين في سلك القضاء.

تلعثم المتحدث كثيراً، وكأنه كان يخشى من العبارات التي أراد التفوه بها. وعلى الرغم من الرصانة الجلية في صوته، إلا أنه بدا متردداً في قول المزيد. الرجل الذي اتصل في القطع الأخير من الليل، راح يُفصِح عن كلماتٍ لا راحة بها:

- سوف يتحدث التقرير بإسهاب عن التسهيلاتِ التي قمتِ بتقديمها مؤخراً لعددٍ من رجال الأعمال في المدينة، وسيكون مدعماً بوثائق وأدلة كافية لإدانتك.
- وثائق وأدلة؟
- أجل! وهذا ليس كل شيء.
- ما الذي تعنيه؟

- سوف يتم استدعاؤك غداً من قبل الجهات المعنية لاستجوابكِ بخصوص هذه الإدعاءات.
- لكنها ليست سوى إدعاءات.
- إحدى جهات التحقيق المختصة قد بدأت قبل شهر من الآن بالتحقيق في كافة الأحكام القضائية والممارسات الصادرة عنكِ منذ التحاقك بالسلك القضائي بناءاً على أدلة تسلّمتها من مصدر مجهول الهوية، ولكن لم تكن تلك الأدلة كافية لإدانتك حينها.

جليٌّ ذاك الوجل في بحّته الحارة والعريضة لما تابع الرجل حديثه:

- إلا وأنه قبل بضعة ساعات تسلمت جهة التحقيق والصحافة أيضاً أدلة تثبت بما لا مجال للشك فيه مدى تورّطكِ.
- وما هي طبيعة الأدلة؟
- أنا لست مخوّلًا بالإفصاح عن ذلك. وفي الحقيقة، لا أحد هنا لديه علم بمحادثتي لكِ حالياً.. لكنني اعتقدت بأنه يجب عليكِ أن تعلمي بما يحدث.
- أنا ممتنة لاتصالك، ولكن ما عساي فاعلة؟
- "نوال"، أعتقد أن الآن هو الوقت المناسب لأن تتصلي بأحدهم؛ كي يعينكِ على الخروج من هذا المأزق.

تضخّمت فجأة محنة المرأة الحالمة بالعبور إلى أبعد مكان. هناك حيث الشرفات المطلة على كل شيء، جاءتها الفاجعة مخترقة صلابة الزجاج، وظهرت لها الأنباء من خلف الستائر المتباعدة، لا بل تسربت بكثافة تناهز ما انسدل من ضوء القمر. هناك حيث الظلام، وحيث الريبة، شع بريق الصدمة كنجم في أعالي العتمة. فأخذت المرأة تتمعن في إطلالة الشجر المنسي. وفي حوافر الليل البهي، وفي البصيرة التي تلاشت فجأة.

تلك الشرفات لم تكن كأي شرفات، فهي قد سمحت لنسائم البرد أن تأتي فجأة، وحرّضت "نوال" كذلك على أن تتلحّف بغطاء حريري؛ كي تستر ما انكشف من ذعرها. ولأن لون الغطاء الأبيض كان متوافقاً مع بشرة السيدة الشاحبة، نجحت الاخيرة في أن تتخفى كحرباء، وفي أن تُواري أيضاً رهبتها.

ثبّتت "نوال" الهاتف جيداً بجوار أُذنها، التقطت نفساً عميقاً، ثم قالت بطمأنينة مصطنعة:

- شكراً.
- أعلم أنها صدمة قوية، وأنا أعتذر مسبقاً عما سيحدث.
- ماذا بالضبط سيحدث؟
- أعتقد أنني سأغلق الهاتف الآن

تلعثم الرجل مجدداً قبل أن يتابع بصوت أقل صرامة:

- وداعاً.

هكذا وبكل استعجال، غاب صوت الرجل سريعاً، ذبلت ضوضاء الحناجر تدريجياً، فأغمضت "نوال" عينيها عنوة؛ لتكتشف بأنها وفي هذه الأمسية الهزيلة قد ماتت وماتت كثيراً، للحد الذي جعلها غير قادرة على أن تعاود فتح عينيها مجدداً.

هكذا وبلا أي تنويه مسبق، شيء أشبه بالكارثة انقض عليها دون أن يمرق على الأرض، أو أن يحلّق في الفضاء. ذاك الشيء الذي باغتها ذات مساء، كان حاداً مثل نصل الخديعة، وكان شفاف اللون أيضاً، مثل الماء، لا لون له ولا رائحة. كل ما يمكن قوله هو أن ذاك الشيء قد نجح فعلًا في أن يجعلها تفقد صوابها.

"نوال"، تنام حماستها للحياة في غالب الأحيان كلما شاركها الليل سرير الأرق، ولكن حماستها الليلة تسير بعيداً عنها. يقظة ومتّقدة، إنها تقف في منتصف المسافة بين البقاء والموت، ولكنها إلى أي الاتجاهات ستمضي بقدميها؟

ينزلق الهاتف من يدها، تسقط آهة ساخنة من حلقها، وتتدحرج روحها بعيداً عنها، فتنحني بتثاقل لتلتقط ما سقط منها. لا، إنها لم تنحني حتى تجمع شتات روحها، فهي معتادة على أن تفقد كل يومٍ جزءاً منها، ولكنها تَحَدَّبت لتتمكن من تناول هاتفها!

تسابقت أصابعها على الشاشة الملساء، طلبت رقماً، لا بل عوناً، فجاءها من بين الثقوب صوت أشبه بصوت زوجها:

- أخيراً.. لقد كنت في انتظار هذه المكالمة طوال اليوم.
- أنا في مأزق.
- أعلم ذلك جيداً.
- أنا لستُ في حالة مزاجية تسمح بتقبّل المزاح.
- وأنا لست مازحاً.
- لا أفهم قصدك.
- أفرغي يقينكِ في سلة الحقيقة، ودعي الشك يتساقط، فأنا من يخطط لاغتيال كبريائك أمام العامة.
- هذا حديث شخصٍ أرعن.
- بل إنه حديث أكثر الرجال حُلماً.
- فكاهتك السوداء لا تلائمني مطلقاً.

غدا صوت "سعد" أكثر صلابة وقسوة، فقال لها بجدّية مطلقة:

- إنها ليست فكاهةً أو هزلًا، فأنا من نَمَّ عليكِ وسعى بك.
- ولكنك لا تملك الحماقة الكافية لارتكاب خطأ فادح كهذا، فكلانا متورط.
- أعتذر يا جميلتي.. فأنا وأنتِ لسنا متورّطين.. ولسنا مرتبطين.. ولا نصلح مطلقاً للذِكر في جملة واحدة.
- ماذا تقصد؟
- أنا لم أصدر القرارات، ولم أعقد الاجتماعات، ولم أبرم الصفقات.
- تباً!

شتمت "نوال" ذاك الذي أراد فعلًا أن يتخلى عنها. وشتمت خيوط تلك الكارثة التي لا لون لها، فعاد صوت زوجها العميق بجدية أكثر ليقول لها:

- يا ترى كم من رجل يلزمكِ حتى تنالين كفايتكِ؟
- رجلٌ واحدٌ من كل الرجال، إلا أنت.
- هذه الألفاظ الهزيلة لا تجرحني مطلقاً. لذا، حاولي البحث عن مفرداتٍ أكثر بلاغة؛ حتى تنجحي في وصف هزيمتكِ الأخيرة.
- هذه الهزيمة سوف لن تُصيبيني وحدي.
- أنتِ محقة! إنها سوف تصيب ذاك الشاب أيضاً.
- "فارس"؟
- كيف لكِ أن تعشقين رجلًا يحمل اسماً بطولياً؟
- لعل السؤال الأجدر طرحه هو كيف لي أن أتزوج رجلًا يحمل اسماً لا يتصف به؟
- كان حريّاً بكِ أن تُدركي بأن لا أحد له من اسمه نصيب، فلا فارسكِ كان حاذقاً في ممارسة الحب، ولا زوجك كان مصدراً للسعادة.
- ستخسر أنتَ الكثير مثلي تماماً.
- جُلّ خسارتي زوجة سيبدلها الله لي بامرأة أخرى.
- جبان!
- بل إنني جريء جداً، فرجل غيري كان ليصُلبكِ على منصة الإحتكام التي تعتلينها كل صباح، ويبادر برجمكِ مثل الآخرين. ولكنني فضّلتُ أن أجعلك تنظرين إلى فارسكِ وهو في قفص الاتهام حبيس.
- وما الفرق بين هذا وذاك؟
- الموت أمر سهل ويحدث سريعاً، فإنه ما من وجع به مطلقاً. أما مشاهدة أحبائنا تحت وطأة المعاناة فهي أشد بطئاً من الوفاة وأكثر إيلاماً.

تغرق الزوجة في صمتها كثيرها فيقول لها الزوج هازئاً:

- هل تذكرين عندما كنتِ تسيرين كل يومٍ؟ كان العالم حينها يدور خلف ظهركِ. الآن وحين ستتوقفين سيصبح العالم كله في مواجهتكِ.
- أنا بالكاد أكترث لمواجهة العالم.
- صدقيني، الموت رجماً أقل إيلاماً مما هو آت.
- سأكون قوية، وسأجتاز المحن جميعها، حتى لو كنتً وحيدة.
- لن تُفلح كل الدروس التي تلقيتِها بجامعة "كورنيل" في انتشالك من هذا الفخ المحكم.
- لم يكن عليكَ أن تُقدم على أمر كهذا.
- لا تعاتبـي رجلًا أرادت زوجته أن تخلعه.
- لقد خلعتني أنت مسبقاً، حين كان غيابك أكثر بقاءً من حضورك.
- حسناً، سأعيد صياغة العبارة.. لا تعاتبـي رجلًا لجأت زوجته إلى رجلٍ يصغرهُ بسنوات.
- لقد لجأت بنفسكِ إلى الكثير من النساء غيري، خلعتَ شفاههن، واحتفظت بابتساماتهن في نفس الدار الذي أحتفظ فيه بكبريائي. فما الذي ترجوه مني؟

صمتَ "سعد" في حضرة السؤال، لا سيما وأنه كان قد اقترن باجهاشات زوجته. صوت النحيب

المتقطع ذاك جعل الرجل مكلوماً حينها، فهو وللمرة الأولى منذ عقد قرانهما كان قادراً على سماع صوت بكائها. رغم كل الأوجاع التي اعتصرتها، ورغم كل الخسارات التي ألحقها بها، لم تجرؤ زوجته ذات يوم على إعلان سقوط دمعها. أجل، إنها ورغم كل الأضرار، كانت عصيّة الدمع، تأبى البلل، وتأبى أن تنتحب بجوار هزائمها.

يطول الصمت قليلًا فيأتي صوت الزوج فجأة:

- كل ما كنتُ أريده هو أن لا تعليني انتمائكِ لغيري، وأن تكتفي بالانسحاب بهدوء دون أن تجاهري بجرحي!

- أنا لم أصرخ ولو لمرة برغباتي.

- ولكن دعوى الخلع رآها كل من بالكون، وتحدّث عنها الكثيرون من حولي. قرأوها بملء سخريتهم، وقرأوا كذلك انتماءكِ لغيري.

أنبّها الزوج بصوت حانٍ ثم شرع في سرد المزيد من عتابه:

- كنتُ أعلم أنكِ لم تكوني سعيدة بجواري، ولكنني لم أكن أرى الجراح بك. إنني لم أفهم ولو لمرة كيميا الدمع بك أو حتى فيزياء الانكسار، فلقد كنتِ بارعة فعلًا في دفن مشاعركِ. لذا، وكلّتُ أحدهم لمراقبتكِ في المجي والذهاب، فعاد إليّ بجملة واحدة ووحيدة فقط: "أطلق سراحها، فإنها تبحث عن رجلٍ آخر ليحل وثاقها عنك".

تأوه "سعد" بحرقة، وكأنه كان يريد أن يلفظ كرة من اللهب متقدة في جوفه. كان بوسع "نوال" أن تسمع تلك الحرقة في صوته رغم حشرجات بكائها، وكان بإمكانها أن تحاول مقاطعته أيضاً، إلا أنها، وبلا أي مبررات، وجدت نفسها مستمعة لتداعيات الخذلان الذي اعتراه:

- آه، كم كان ذاك الخبر مؤلماً كثيراً. أردتُ من بعده أن أخلد إلى النوم، فوجدتني أتساءل كثيراً: "كيف الخلود للراحة، وثمة رجل يسرق زوجتي مني؟" أردت أن أحفر قبراً، أن أنام فيه، وأن أستسلم للموت، فوجدت الأرض تسألني: "ألسنا مبرمجين للسير مسافاتٍ أطول؟". حينها وفقط حينها، أدركتُ أن الكرة الأرضية التي تطوف باستمرار لا يجب أن يتوقف دورانها عندي.

يختنق صوت "سعد" في حلقه، فيتوقف قطار الكلمات فجأة. ولأن السكون كان متوقعاً جداً في مكالمة كهذه، قال "سعد" بتلقائية:

لم يستلزمني الأمر سوى أن أقدم مكافئة سخية لمعاونتكِ؛ كي تفصح لي بما أود سماعه. اللقاءات اليومية، والصفقات السرية، والعلاقات الغرامية، جميعها قد دوّنتها لي مساعدتكِ على ورق لا يحتمل سوى الكلام، ولكنني رجلٌ لا يحبّذ قراءة هزائمه بعينيه، لذا، فضلت أن أبعث بها إلى الصحف المحلية ووكالات الأنباء، فأنا أفضل سماع الأنباء السيئة في المذياع.

بدت أحرف الزوج الأخيرة ممزوجة بأدمع الزوجة محترقة، فتساءل الزوج بضوضائية:

أليست الخيبة مثل البهجة، لا تصدر أي صوتٍ مطلقاً؟

تساءل الزوج دون أن يكترث بما ستقوله زوجته، ثم أتبع ذاك التساؤل بسؤال:

- ألا يمكنكِ أن تري أن هذه الخيبة قد جرحتني فعلًا؟ إنني أتصرف الآن تماماً كرجل مذبوح.

قصة الرجل المذبوح هذه كانت تشبه كثيراً في محتواها حادثة الزوجة التي وأدها زوجها في قصر باذخ منذ عدة أعوام، لذلك جففت الزوجة بعضاً من دمعها ثم قالت وللمرة الأولى منذ بكاء:

- أسطورة الخدوش التي تركتها أنت على روحي منذ أعوام تهل عليّ الآن، هل تذكرها؟
- ربما قد نسيتها.
- إذاً دعنا نعد الأرقام.. جرح.. جرحان.. أربعة جراح.. ثمانية جراح.. ستة عشر جرحاً.. في كل يومٍ كنتَ تصيبني بسهام غيابك وتجاهلك، حتى تضاعفت جراحي وما عادت تقبل القسمة على اثنان. ولأن ذاكرة أوجاعي لا تتسع إلا للقليل من قسوتك، فضّلت أن أفرغ محتويات حقيبتك الجلدية تلك، وأن أتخلص من مناديل عشيقاتك المعطرة؛ حتى أخزّن في فراغها المدبوغ ما فاض من جراحي.
- أعلم جيداً أن علاقاتي بالنساء الأخريات كانت تجرحكِ كثيراً، ولكنكِ تقبّلتها على مضض. وكانت الحياة ماضية رغم أوجاعنا.
- كلا، لم تكن الحياة ماضية. كل ما في الأمر هو أنك كنت تسير بها وحدك.
- إننا لم نتحدث عن تلك العلاقات ولو لمرة.. إنكِ لم تمنحيني الفرصة لأن أكون نادماً بحرقة.
- الندم الحقيقي لا ينتهز الفرص بل يختلقها.
- والجراح الحقيقية لا تدفعك للبحث عن غيري.
- إذاً المسألة لا تعدو كونها رغبة في الاقتصاص من الآخر؟
- لا.. إنها رغبة في الانتقام.
- وما الفرق بينهما؟
- أن للانتقام نهاية ستؤلمكِ بشكل أكبر.
- وماذا عنك؟
- أنا لا أوجاع لي في هذا النهاية.
- ستستيقظ من هذا الهذيان لاحقاً، وعندما يجرحك الأمر بقسوة، تذكّر أن هذا ما شعرت أنا به أيضاً.

استجمع "سعد" قليلًا من الجرأة؛ ثم قال لزوجته بهدوء:

- ثمة امرأة تسلقت ذات مرة سلالم دارها، وما أن بلغت منتصفها حتى قال لها زوجها، إن صعدتِ فأنتِ طالق، وإن نزلتِ فأنتِ طالق، وإن وقفتِ فأنتِ أيضاً طالق. ولأنها ما أرادت أن تخسر زوجها، رمت بنفسها من ذا الإرتفاع وماتت.

أعاد "سعد" ضبط وتيرة البحة في صوته ثم قال بصرامة:

- أنتِ الآن على سلم الصباح. ولأنني لا أتمنى لكِ الموت، ولا أتمنى لي سوى الحياة، أنتِ طالق يا عزيزتي.. أنتِ طالق!

الفصل الخامس والعشرون: حتى وإن شربتَ نهراً.. غصة خوفكَ لن تزول

انبلج الفجر، أناخ قمر الأمس على منحره، فتجلى للبصيرة جسد يشبه امرأة كانت قد اتخذت من أريكة المساء ملجأ لرثاء قضيتها. ضوء الصباح تكاثر من حولها، إنه وبكل هدوء تقدّم نحوها، فزحفت المرأة إلى الظل المجاور؛ حتى تُفلح في الاختباء بين تراكمات ظلامها. وما أن شرعت قامتها بالتبدد في عوالمٍ شبه داكنة، حتى أدركت أن الضوء قد استعمر النصف الأيمن من أريكتها، وأنها ما عادت ترى مُعظم أطرافها، فتحسست بأنامل الحيرة ما تبقى من أجزائها ثم تساءلت بصوت شبه مبحوح:

- يا ترى، أين ذهب جسدي؟

فراغ النافذة يطل على هدوء المنظر بالخارج، وحيث تأوي القصور والطرقات إلى فجر شاحب، يكون الصمت والهدوء متجاورين، أحدهما أقل طولًا من الآخر ربما، ولكن كلاهما لا يعرف ما الذي جاء بهما إلى هنا. وحدها المرأة التي كانت ترقب كل شيء، جلست بمهل في المكان الذي رفضت أن تُسميه، فكل أسماء الأحياء في هذه المدينة لا فتنة موسيقى بها.

ثمة من كان يسير في حديقة المنزل، تستطيع المرأة أن تراه جائلًا في أرجائها. لعله كان حارس القصر مشغولًا بإتمام دورته الصباحية. خطواته التي خلفها تقاطعت كثيراً مع ورق الشجر الذي احمرّ خجلًا من السقوط، فهتفت المرأة بشوق:

- لعله الخريف قد أتى!

كان الوقت حينها ملائماً للسقوط، فكل الأشياء بدت راغبة في أن تقع طوعاً. الشجر البائس، السحاب المعلّق، وحتى كبرياء السيدة يريد أن يهبط لأسفل. لعلهم كثيرون، أولئك الذين لا يصدّقون أن امرأة مثلها يمكنها أن تنهار على ركبتيها، أو أن تقول للخوف: "نعم.. أنا أستسلم"، ولكنها هذا الصباح ويا لحسرتها، وضعت رأسها بين كفيها ثم تمتمت:

- يا ترى متى ستأتي نهايتي؟

ثمة نفق طويل عَبَره قطار تأملاتها قبيل أن يتوقف كل شيء بجوار لوحة مكتوب عليها "تحذير.. أمامك منزلق". جلست السيدة عالقة هكذا، بين الروح وجسدها، بانتظار مقطورة أخرى تدفع بأفكارها إلى الأمام، فاكتشفت متأخرة أن الحياة بمجملها قد توقفت هنا، على رأس منحدر. أجل، إنه موسم السقوط، فحتى حياتها أرادت أن تهبط بها لأسفل.

ولأن من لم يستأنس بالشروق لم يفقه أبداً سحر البدايات الحزينة، جلست المرأة إلى النافذة؛ حتى تدرك أن القيظ سيذيب برد الصباح حتماً، وأن الفجر يشبه الشتاء في حضوره المربك فعلًا:

- لعلها الأيام قد قفزت فصلًا واحداً، فإنني أظن الشتاء هو الذي أتى!

هتفت بها المرأة حين لم يكن خضوعها لمؤامرة الفساد تلك مؤلماً حقاً. فهي حين ساقتها رغبتها بالنجاة إلى الاتصال بمعارفها، كانت كل خطوط العون مقطوعة. رفعت هاتفها، طلبت كثيراً من الأرقام، فعادت كل

محاولاتها خائبة. حمداً لله، فإنهِ لو أجابهم أحدهم واعتذر عن مساعدتها، لكانت خيبتها أكثر ألماً وتعذيباً.

وحده فارسها كان مهذّباً بعض الشيء حين هاتفته فأجابها بريده الصوتي طالباً منها أن تترك بعد النغمة بكاءها. كانت "نوال" تعاود الاتصال مراراً، فيأتيها في كل حين صوته بالعبارة ذاته: "من فضلك اترك رسالة!". لعلها في المحاولة الأولى قد شَكَت له بلباقة: "أنت نائمٌ على سرير الأحلام.. فيما أنا في حجرة المعيشة أرتّب خوفي حسب توقيتك"، ولعلها في المرة الثانية قالت له بلطف: "يُرَتِّبني القلق بتوقيت لا صبر فيه.. وأنا لا طاقة لي على انتظارك"، لكنها في المرة الأخيرة صرخت له بأوتار جراحها الصوتية: "أنا ألمس ضياعي في جنون غيابك"!

هي السَادِرة في غَيِّها، والمدّعية خرف حكايتها، "نوال" التي حدقت في ذاك الشيء القادم من بعيد، إنها رأت ذاك الذي راح يسير في الأزقة المجاورة دون أن يأبه بحُرمة السكون في شوارع حيها. تباً لزجاج النافذة، فلقد كان صادقاً! مركبة سوداء تندفع عنوة صوب الطريق المؤدية لقصرها. وما أن توقفت المركبة بجوار باب القصر الرئيسية، حتى هرع الحارس نحوها.

ما جرى بعد ذلك كله كان أشبه بمقدمة فيلم خيال علمي، حيث الأحداث المتشابكة عديمة الترابط، وحيث اللقطات تعبر سريعاً بلا مغزى. امرأة تهبط من المركبة، رجل يهبط خلفها، حارس يهرع عجلًا، بوابة يُطلق سراحها، وخادمة تستيقظ فزعة. حسناً، ثمة من دخل للتو إلى دارها.

كان بمقدور "نوال" أن تتصنع الموت قبل أن يأتيها صوت الخادمة من الخلف، لكنها فضلت أن تكون أكثر جرأة في مواجهة الموقف، وأن تلتفت صوب تلك النافرة حيناً لتقول لها:

- أخبريهم أنني سأكون بالأسفل حالًا!

ولأن وجهها لا يليق به القناع، ولأنها لم تألف مسبقاً الخوض في أي نزاع، ولأنها، منذ أن اقترفت حزنها ذات هزيمة، لم تعرف رهبة قلبها معنى الانقطاع، أرادت سيدة القصر أن تذهب للاغتسال، فلعل بمقدورها أن تتخلص من بعض الأوجاع.

لقد كانت "نوال" على قناعة دوماً بأنه ما من شيء أجمل من رحلة مباركة صوب حوض استحمام ممتلئٍ بالماء، وما من شيء يفوق قدسية التخلص من أعباء الحياة. بطريقة أو بأخرى، وجدت نفسها عارية في المُغْتَسل، يرافقها ظلها، ولكنها لم تعد تذكر من ذا الذي أتى قبل صاحبه. جلست على طرف المغطس، تحسست دفء الماء بيدها، فلم تشعر سوى بانعكاس عُريها:

- أينا كان مرآة صاحبه يا جسدي الحميم؟ أينا كان فخوراً بنا؟

هذا الذي كان يمشي معها كل يومٍ، ويشاركها النوم واليقظة أيضاً، إنه جسدها الذي لا تذكر كيف التقته أول مرة، ولا تذكر متى بدأ في النضج. يعذّبها كلما مررت أصابعها عليه، فهو ناضجٌ فعلًا مثل تفاح حرام سقطت من كبد السماء، ولكن لم يمسها سوى رجل أو ربما رجلان، فلماذا لم يبادر فوجٌ عظيم من الذكور بقضمها؟ هل أخطأت حين ظنت أن الرجال في هذه المدينة لا تستهويهم سوى المحرّمات؟

تريد "نوال" أن تغمس جسدها الآن، أجل هي تريد ذلك، ولكنها كلما تحسست عمق الماء تألمت روحها

بشدة. يبدو أن جروحها قد ازدادت مؤخراً، فإنها لم تكن لتدرك هذا القدر من الألم مسبقاً:

- ترى من أين تنـزف أوجاعي؟

قالتها وهي تتفحص جسدها المنعكس على مرآة كبيرة مؤطرة بالأبونس الأسود. اقتربت تارة وابتعدت تارة أخرى؛ لتدقق النظر في كل ما أصابها، فأدركت أنه يستلزم إحداهن الكثير من الجرأة؛ حتى تقف أمام الزجاج عارية، وحتى تشير إلى خدوشها ثم تقول: "ها هو مصدر ألمي".

هناك حيث الجرأة، اتضح لـ "نوال" أنه لم يتبق لها في جسدها سوى الكثير من الجراح، وسوى القليل من الرجال أيضاً. ثمة ضروح هنا، وبعض الندبات هناك، وبعض من الاحمرار في عنقها منذ مداعبة ما، فكيف لها الآن أن تُخفي ما تجلىّ للأبصار؟

شرخ عنيد يمتد على شق صدرها الأيسر، كما النهر يصبّ عميقاً في جوفها، تقتفي أثره بأطراف رقتّها، فتأّن المرأة من شدة التوجع:

- ويلي، لقد جرح أحدهم قلبـي!

قالتها "نوال" وجسدها الذي لا تريد الآن أن تغمسه، كان بلا شكٍ عصياً على الماء:

- سأخبئ هذه التشوهات بمستحضرات التجميل فقط.

هتفت بها "نوال" وهي تسارع بالعودة إلى حجرتها. جلست إلى طاولة زينة حين راحت تشتاق نفسها دائماً. تلك المنكوبة، إنها سيدة بملامح لا تقومها سوى أصباغ الوجه. وحين لا يكون لهذه الأنثى أي صدى، ينكسر ظلها في المرآة التي أمامها، وتخونها كذلك الصورة المموّهة.

قليل من حمرة الخدين، بعضُ من المسحوق على الوجنتين، وكثير من الرسم بقلم العينين، كلا، سوف لـ تسعفها التدرّجات اللونية مطلقاً، حتى ولو استهلكت كل أصباغها، وما تبقى لها من أحمر الشفتين. ولكن المرأة كانت مُولعة بمواجهة الحياة وهي في كامل أناقتها. لذا، سارعت في اقتباس ما تيسّر من أقراط الأذنين.

- لا ينقصني سوى عطر الصباح

من أي زجاجة التقطتها، كانت "نوال" تستنشق رائحة زكية ممزوجة بشذا مخاوفها. كل النسائم بدت ملوّثة حينها بمجريات البارحة، حتى أريجها الفرنسي لم يكن صافياً نقياً. ولما كانت كل الخيارات متشابهة رغم حقيق اختلافها، قالت المرأة بسخط:

- "كوكو شانيل"!

تتطيّب المرأة جيداً، تحكم الإكتساء بجاذبية الرائحة، ثم تعبر المسافة المؤدية إلى خزانة ملابسها. إنه الباب، وما وراء الفراغ أردية فاخرة. تضع يدها على مقبضه، وهي بانتظار من يعزف لها أغنية الخشب الذي أغلقه الريح، فتجد نفسها في مهمة جذب مقبض الباب وحيدة. تستجمع قواها، تسحبه إليها، فيستقبلها فوج الحرير المختبئ بعناية. ثياب مرتصة بزهو الألوان، تناولت المرأة أحدها وهي تقول:

- هذا لي.. وهل قُلتُ أن هذا الرداء لي؟

لأجلها أزرق الصباح، ثوب مطرّز بالكثير من النقاء، قصير بعض الشيء، ولكنه يمتد حتى منتصف الساق. التقطته بخفة، انـزلقت فيه بروية، ثم استعرضت مجموعة من حقائب اليد المتمددة أمامها:

- "برادا".. فاليوم سأكون أنا الشيطان.

قالتها وهي تتناول حقيبة حمراء تتناسب كثيراً مع أحمر شفاهها، ومع الحذاء الأحمر الذي شرعت في ارتدائه. وما أن عاودت "نوال" الوقوف أمام المرآة مجدداً، حتى كانت خصلات شعرها القصيرة، وابتسامتها الغائبة، وملامحها القاسية مجرد امتدادات لسمات الشخصية "ميرندا بريستلي" في فيلمها الدرامي المفضل "الشيطان يرتدي برادا":

- أووووه يا "ميرلي ستريب"، إنني أشبهكِ الآن كثيراً.

أتمت المرأة ارتداء بذخها، فراودتها عن نفسها بضعة الرعشات التي انبثقت من بين المسامات، ونَمَت باستعجال على جسدها. لا، إنها سوف لن تسقي خوفها من ماء هيبتها، فهي تريد لجملة الانتفاضات تلك أن تموت مبكراً. هكذا وبكل ثقة، غزلت المرأة لغتها بلا كلمات ثم قالت لنفسها:

- وليكن يوماً آخراً فقط.

الدروب تغالط أسرارها، تعبرها المرأة خطوة تلو الخطوة. ولأن المسافات منـزوعة الحياء، لا، بل إباحية الهوى، قررت "نوال" أن تسلك مساراً مختصراً هذا الصباح لا يَعبُر مطلقاً بمطبخها. قادتها قدماها نحو السلالم المؤدية للأسفل، حيث اللذان كانا بانتظارها، فهمست مخذولة لنفسها:

- آه، لو أنه كان هنا يشد على أرقي.. آه لو أمكنه أن يعانق مخاوفي!

ثمان وسبعون خطوة، هبطت بالمرأة للأسفل. وما أن استقرت أمام مصيرها، حتى شدّت إزارها للأسفل، وتناولت العباءة من خادمتها، ثم قالت بثقة مفرطة:

- حسناً، أنا مستعدة!

الفصل السادس والعشرون: ما بال الريحِ التي تريد خلع الأبواب المفتوحة أصلاً؟

- هذا ليس استجواباً، وأنا لست مُحَقِّقاً.

قالها رجلٌ كان يدخن الوقت سجائراً بنكهة الصبر. جلس في ذلك الحين مع الكثير من القهوة والتبغ؛ حتى يحاول وصف المرأة التي من دونه. منفضة السجائر أمامه هولوكوست دائم، وأعقاب اللفائف شهداء لمذبحة حرائق. من يا ترى سيعينه على طمس آثار الموت اللائق؟

سواد في بياض، وبياض في سواد، ما بال التبغ متصلباً بإنفراد؟ يشتعل وحيداً في حنجرة الانسداد، ثم يرمي بنفسه من علو؛ حتى ينتحر في منفضة الرماد. تباً، فكل الأشياء التي على تلك الطاولة كانت تدعو إلى الوفاة. لا شيء فوق ذاك الخشب يحرّض على الميلاد!

يتابع الرجل حديثه بصوت جهور:

- ليس ثمة ما يشيخ في مدينة "الرياض".. لا الأشجار، ولا الأحجار، ولا حتى المعتقدات. نقتبس الأنظمة الحديثة من ما يجاورنا من دويلات، نجلب الخبراء من الخارج لصنع المعجزات، نبعث أبناءنا للدراسة فيما وراء المحيطات، فتعود كل جهودنا خائبة، وكأننا مجتمع معصوم من التغيّرات. يبدو أن جيناتنا ملوّثة بالفطرة، أو أننا مصابون بهيموفيليا العادات.

تغيب يد الرجل في قلب مظروف مجاور، وما أن يعثر على ضالته بالداخل، حتى تنسحب يده من عُمق الفراغ حاملة معها جملة من الأوراق. يقلّب الرجل بعضاً مما بدا كسجلات أكاديمية ثم يتابع الحديث:

- نيل درجة القانون من جامعة "كورنيل"، يتطلب الإلمام التام بأهمية الانضباط والتقيّد بالأنظمة، فهي صرح تعليمي لخمسين فائزاً بجائزة "نوبل"، ووطن لأفضل كليات الحقوق في العالم. كل الذين ارتادوا هذه الجامعة قاموا بالتأثير على منظومة الحياة إيجاباً، فيا ترى، ما الذي يدفع إحداهن لأن تمتهن الفساد، والارتشاء، بعد تخرّجها من هذه الجامعة؟

تلك المرأة التي باغتتها غزارة المعاني في الكلمات، يا لانحسارها خلف الطاولة، ويا للمفردات التي جرحتها. تجلس أمام جلادها حاملةً ذاك الوجه الذي يشبهها، فيكون ظلها مبتعداً من شدة الحياء عنها. تحاول أن تستعيد كل الذي تبعثر منها، فيأتيها صوت الرجل مجدداً؛ ليشتّت ترتيبها:

- "الإجراءات المدنية".. "القانون الدستوري".. "أنظمة العقود".. "أنظمة الملكيات".. "أنظمة الترافع".. "قانون الأضرار".. "تاريخ نظام القضاء الأمريكي".. "نظام القضاء الأمريكي المعاصر".. "أخلاقيات المحامين والقضاة".. "السلوك المهني في مجال القضاء".. "الإجراءات التأديبية في سلك القضاء".

تخلى الرجل عن تلك السجلات تدريجياً، هزّ رأسه بطريقة تعبرّ عن دهشة مصطنعة، ثم راح يصفّق لها بطريقة شبه استفزازية:

- براڤو! لقد تمكنتِ من اجتياز كل تلك المقررات بجدارة.

ولكنه ما أن أتم جملته، حتى توقف عن التصفيق، وأحنى جسده ليقترب منها. تحت وطأة ذاك الضوء

المغادر، بدت ملامح الرجل أكثر وضوحاً، وأقل جدية، لاسيما وحين قال لها بسخرية مفرطة:

- ولكنكِ لم تتمكني من اجتياز المنهج السعودي الأوحد وهو "نظام تفادي السقوط في فخ الفساد".

تضاعف حجم المساحة الداكنة في شفتيه، فكانت ابتسامته العريضة استفزازية، لا لشدة اتساعها، بل لأنها كشفت عن صف من الأسنان التي لا تتناسب ببياضها الناصع مع شراهته على التدخين. داعب الرجل قلقها بمزيد من العبارات ثم أهداها نصاً أشبه بطعنة في صدر الخُيلاء:

- وهذا أيضاً هو حال أخيكِ الذي فقد منصبه في مجلس الشورى. إنه لم يُفلح في اجتياز المقرر ذاته بالرغم من أنه قد حصل على الشهادة العليا في القانون من جامعة "أوكسفورد".

على طرف الحقيقة، تتأمل "نوال" بوجوم حادثة تواجدها في هذا المكان. يا لهذا الحضور، إنه نافذ كنصل خنجر. رغماً عن أنف الوجع، تحاول جاهدة أن تتشبّث بالصمت، وأن تكتم النشيج الذي تردد في جوفها. يا لجرحها المكابر، ويا لإنكسار الضوء في بؤبؤ عينيها!

- لن أغمض الآن قلبـي.

قالتها "نوال" سراً لحظة أن غدا فؤادها قلقاً. ولكنها ورغم الصمود لم تُفلح في إبقاء أجفان قلبها مفتوحة طيلة ذات اللقاء. أغمضت عينيها حيناً؛ حتى تسمح للنبض بأن يعبر حجرات قلبها، فتهادى لها صوت الرجل لينتشلها من ظلمتها:

- وهذا ما يثبت صحة نظريّتي العلمية التي تنص على أن غالبية سكان هذه المدينة مصابون بأمراض وراثية ناتجة عن اضطراب في جينات الإكتفاء، وبالتالي، مهما قدّمنا لهم من علاج، ستظل أجهزتهم المناعية رافضة لتقبّل أي تغيّرات.

أسند الرجل رأسه على كفه الأيسر، ثم ذهب بأنظاره بعيداً صوب إطارات معلّقة على جدار مجاور. كان وكما يبدو أنها وثائق تخرّج مؤطرة ومثبتة باهتمام عال. تأملها وهو يحاول الإبحار قليلًا في أعماق ذاكرته ولأنه لم يشأ أن يسقط وحيداً في غياهب اليَم، حمل المرأة معه على قارب الحديث، ثم راح يجدّف بها:

- عندما كنتُ طالباً في إحدى الجامعات المحلية، كنتُ متيّماً بالفلسفة، ومواظباً على دراستها، وخصوصاً فلسفة الأحياء. أردتُ حينها أن يخبرني أحدهم بأن الداروينية في حقيقة الأمر هي الاعتقاد بأن أصل الإنسان غراباً وليس قرداً. إنني قد أردت لأحدهم أن يفسّر لي حينها أحجية أجنحتنا السوداء، ولغز قلوبنا العامرة بالبغضاء، وسر ضمائرنا التي لا تعرف النقاء. لقد تمنيت، ولو لمرة واحدة فقط، أن يبرّر لي أحدهم شغفنا بالسعي وراء كل ما يلمع من الأشياء.

التفت الرجل نحوها بطريقة درامية ثم استطرد:

- هل تعلمين بأن الغربان لا تجذبها سوى الأشياء البراقة والمطلية بالذهب؟ إنها حين تجوع، تنبش مناجم الأرض بمعول مناقيرها، وحين تشعر بالاكتفاء، لا يغيب بريق الألوان عن عينيها. تلك الطيور لا شان لها في الحياة سوى مداهمة أعشاش بعضها؛ حتى تستعيد بالقوة ما لم يكن لها. إنها بارعة في ابتكار أساليب السطو واللجوء إلى الحيلة حتى تُخادع بعضها. داهية، ماكرة، تلك الكائنات إنها لا تنعق في الجنازات لرثاء الغير، بل حتى تحتفي بإنجازاتها.

يدفع الرجل بقارب الكلام بعيداً، فيزداد خشب كلماته بللًا بماء الذكريات:

- كل المحاضرين الذين لجأت إليهم أثناء دراستي، ادّعوا جهلهم، وكثيرهم قاطعني على الفور. وحدها موظفة المكتبة أخبرتني بأن في الحديث عن الأسلاف إهانة للقرود. ولأنني أكثر كبرياءً من أن أقرّ بانتمائي إلى سعادين العالم القديم، تخليتُ عن دراسة الفلسفة، وتوجهت لدراسة سايكولوجيا الإنسان. تعمّقتُ في ذاك الحقل كثيراً، حصلتُ على الشهادة العليا، ثم عُدتُ بها إلى أمي، فوجدتها في الانتظار ميتة، ووجدت بجوارها ورقة كتبت عليها: "لم يكن بوسعي أن أواجه ذلك المؤكد.. لم تكن لتسعني حقيقة أجدادي". إنها ماتت طوعاً لما أدركت أنني سأعود لها بالخبر اليقين، وهو أننا نحاول أن ننتسب إلى الفصائل الأخرى؛ حتى نهرب من سوء خصالنا!

زفرة ساخرة أطلقها الرجل دون أن تتبدّل ابتسامته، فأصبحت ملامحه صعبة القراءة تماماً. لعله كان نادماً على تأخره في الوصول إلى أمه، أو ربما كان نادماً على ما توصّل إليه من اكتشاف، فها هو الآن قد شرع في هز رأسه بحسرة وخذلان:

- ماتت أمي خوفاً مما كنت سأجلبه لها، والحقيقة هي أنني كنت أريد أن أجلب لها إطاراً فقط؛ حتى تعلّقه على حائط حجرتها. كنت أريد أن أعاونها على ستر فجوة الجدار التي لطالما كانت تمقتها. الآن وأنا أشد يُتماً مما مضى، أعلّق خسائري على لائحة الشرف تلك؛ حتى أثبت للآخرين أنني أجيد قراءتهم، وحتى أثبت لنفسي أنني فقدت أمي.

يستيقظ الرجل من خياله هازئاً، ثم يقول لـ "نوال":

- كما ترين، إنني لم ألتحق ذات يومٍ بأيٍ من تلك الجامعات الأجنبية العريقة، ولم أتخط ولو لمرة حرم الدائرة الضيقة، ولكنني أقل غباءً من أن أرتكب الحماقات الباعثة على حملي لتبوّء المقعد الذي تجلسين عليه الآن.

يُقلِّب الرجل النصف المتبقي من لفافة التبغ بين أصابعه بطريقة تتناسب طردياً مع الأفكار التي كانت تدور في رأسه، يعتصر الصمت من صهده المزكوم بأنامل أنهكتها رائحة السجائر، فيتقاطر الحديث من بين شفتيه مغلّفاً ببعض الأدخنة:

- إنني ومنذ الصغر، لم أكن لأحلم بأن أصبح مستشاراً، أو قاضياً، أو حتى عضواً في مجلس الشورى. جُل ما كنتُ أتمناه آنذاك هو أن أكون بطلًا يعيد للحياة توازنها، مثل تلك الشخوص الخارقة في الأفلام. كنتُ أتدلى دائماً من السقف مثل الرجل الوطواط، وما أن بلغتُ الثلاثين من العمر، حتى أصبحت قادراً على رؤية الحياة على حقيقتها، فكل شيء في هذه المدينة يسير بالمقلوب!

تلفظ لفافة التبغ التي في يد الرجل أنفاسها الأخيرة، فيدفنها الأخير بلا رحمة بجوار شقيقاتها. هناك في مقبرة الرماد، يغمسها الرجل أسفل تلال الاشتعال قبل أن يقول:

- وبرأيي، في هذه المدينة لا أحد يحتاج إلى الشهادات العلمية أو المناصب الرفيعة. كل ما يحتاجه المرء هو إجادة مهارة الوقوف رأساً على عقب، مثل القرود التي انتسبنا إليها زوراً؛ حتى يرى ما لم يألف مشاهدته.

من ذات المظروف المجاور، يقتبس الرجل مزيداً من الورق، ثم يتقوّس بمرونة عالية فوق الطاولة؛ حتى يمرر للمرأة أبيض الصفحات. تتبدل نبرة صوته سريعاً، فيسألها بجدية هذه المرة:

- لقد قُمتِ في ظهيرة يوم الأربعاء المنصرم بالتفاوض مع أحد رجال الأعمال بخصوص إعانته على تملّك عدد كبير من الأراضي مجهولة الهوية مقابل قدر سخي من المال، أليس كذلك؟

برائحة السدر، فاح صمت المرأة في أركان الحجرة الضيقة، فأدرك الرجل حقيقة تمنّعها عن الجواب. تأملها وهي تقبض على الورق بقوة، فباغتها بصنفٍ آخر من الأسئلة:

- يا ترى، كم من المبالغ المادية قد تلقيتها كرشاوى؟

مثل المنصرم من استعلامات، يغيب السؤال بعيداً، ولا تأتي من بعده أية إجابات، فينهض الرجل من مقعده؛ ليتحسس أشياءه باهتمام. يلتقط حاسباً لوحياً كان يتمدد بالقرب منه، ويداعب شاشته الملساء محاولًا أن يكتشف الرؤيا في ازدحام الألوان. يخاطبها قائلًا دون أن تبتعد عيناه عمّا كان يراه على شاش الزجاج:

- من دونكِ حزمة ورق، فتفحّصيها! سوف تجدين بالأعلى إفادة من مساعدتك "مها". إنها إفادة مدعمة بنصٍ لحوار بينكِ وبين أحد رجال الأعمال، تتحدثين فيه عن رغبتكِ في معاونته على تملّك عقارات بطرق غ مشروعة؛ حتى يقوم ببيعها للجهاز المختص بإنشاء المدينة الصناعية الجديدة. أما في الأسفل، فسوف تجدين إفادة من زوجكِ، يسرد فيها تفاصيل التسهيلات التي قدّمتها مقابل مبالغ مادية طائلة، وكيفية استخدامكِ للعقار السكني الذي تملكينه لتيسير عمليات الارتشاء.

ولما أبت "نوال" أن تتصفح الورق الذي كان أمامها، أو أن تنبس ببنت شفة، قال لها الرجل بهدوء:

- صمتكِ هذا لا يستفزني مطلقاً، فكما وقد أخبرتكِ سلفاً، إنني لست محققاً، وإنني لست معنياً بالحصول على إجابات.

اقترب الرجل من قصر أنوثتها، جلس على حافة الطاولة، تَطَيّب من عبق مخاوفها، راقب مزلاج البوح بها، ثم اقتبس حديثاً يتلاءم كثيراً مع أزرق الرداء الذي لم تخفه عباءتها:

- هذه المشاهد تم التقاطها بواسطة كاميرات للمراقبة في المواقف الأرضية لإحدى المنشآت السكنية شمال مدينة "الرياض".

هتف بها الرجل وهو يضع حاسبه اللوحي بين أنامل "نوال" المتمنّعة. كان وبلا أدنى شك متطلعاً لرؤية الدهشة في وجه امرأة قطعت على نفسها عهداً بأن لا يهتز كيان هيبتها. تلك المعتصمة بالمعاندة، تأمّلها الرجل وهي تفشل في كبح جماح الشهقة التي تسربت من جوف حلقها ثم أشار الرجل إلى الشاشة وهو يقول لها قولًا مبللًا بالحكمة:

- في مدينة تفخر بطهر النساء، عندما يدلِ أحدهم بإفادة لإدانة زوجته، يكون السبب حينها عشيقاً سرياً وقصة اختلاء.

طَوَّقَها الذهول، وارتجف الزجاج بين يديها. تلك الـ "نوال"، إنها بثغر فاغر تراقب ما تفشّى من أسرار خلوتها. فيض انساب من بحيرة صدمتها، إنها ترى نفسها على الشاشة تتقمص أدوار بطولتها. هناك حيث مقاعد الجلد، تشاهد جسدها عُهدةً بين يديّ فارسها، وتشاهد رشاقة أصابعه التي راحت تتحسسها ملياً حتى تعيد هندسة شبقها. ربما لم تكن زاوية الالتقاط ملائمة، ولكن تفاصيل المشهد كانت أكثر وضوحاً من الحياة ذاتها. بشرة الشاب الملتهبة بالسُمرة، شفتاهُ المختبئتان بين شفتيها عُنوة، وعناقهما الذي انعقد حول اللهفة، تباً.. فكل ما هنا كان يتحدث عنها.

يستعيد الرجل وقوفه من على سطح الطاولة قبل أن يقطع المسافة القصيرة نحو وثائق التخرج المعلقة على الجدار. يتسمر أمام شهاداته ثم يتفوه بكلامٍ أشبه بالهذيان:

- حتى وإن تقدم الزمن، ليس هنالك ما يتغير في مدينة "الرياض".. لا الأحجار، ولا الأشجار، ولا الرجال، ولا حتى النساء.

يتأمل الرجل انحراف إحدى الإطارات المعلقة، يقيّمه قليلًا، فيصبح المستطيل الخشبـي متوازياً تماماً مع سائر الإطارات. ذاك الرجل المتيّم بتناسق الأشياء، لما طال صمته، عاود تلاوة المزيد من الكلام دون أن تبتعد عيناه عن الوثائق المؤطرة:

- إن الذين توفاهم الله من قبلنا كانوا قد ناضلوا كثيراً من أجل صناعة المعجزات. انتخبوا النساء كقاضيات، منحوهن الحق لقيادة المركبات، تقاسموا معهن المناصب الرفيعة، ووهبوهن الأصوات للمشاركة في الانتخابات. لقد أرادوا للحياة فعلًا أن تتخذ مساراً آخر، فشيّدوا الجسور والطرقات. ولكن لما أن حان أوان العبور تصلبت مفاصل الحياة، وامتنعت عن قطع المسافات. توقفت هكذا بجوار رجائهم، وكيف لها أن تتمرد على ما خلّده الدهر منذ سنوات؟

يعاود الرجل موازنة إطاره المبجّل وهو يستطرد:

- إننا في هذه المدينة حتى ولو تقدم بنا الزمن، سوف نظل هكذا دوماً، هائمون خلف الشهوة، باحثون عن النزوة، ومؤمنون بأهمية الرشوة. الجشع نشربه دوماً، مثل الشاي والقهوة، والقناعة التي بداخلنا، ليس لها أي ذروة. لربما تنام أطماعنا حيناً، ولكن شراهتنا لا تعرف الغفوة. سوداء وحبيسة الصدور، هي أرواحنا، تلك التي لا ترفض للفساد دعوة. وسنظل جميعاً على هذا الحال يا عزيزتي.. جميعنا.. رجالٌ ونسوة

وما أن يصبح الإطار المعلّق في تمام الاستقامة، حتى يتراجع الرجل إلى الخلف بخطوتين ليتأمل نتائج صنيعه. يقرأ بدقة عينيه تفاصيل الوثيقة التي تشهد بحصوله على درجة الماجستير في السايكولوچيا ثم يتأوه بحسرة:

- ما من شيء ليبرّر مقدرتنا العجيبة على توارث هذه الخصال عن آبائنا، سوى حقيقة تلوّث كروموسوماتنا. أوووه، لو أنني درست البيولوچيا؛ لأمكنني أن أثبت صحة نظريتي هذه.

يعاود الرجل الجلوس على كرسيه المقابل للمرأة، فتتشبث الأخيرة بمقعدها. ولما كان اعتصامها بالجماد لافتاً للانتباه، طمأنها الرجل بصوت منخفض:

- لا تقلقي، فأنتِ لستِ أول الجالسين على هذا الكرسي. من قبلكِ كان الكثير من الفاسدين، والمزوّرين والمختلسين، والمرتشين، رجالًا ونساء، كانوا يجلسون أمامي ها هنا؛ حتى أقرأ لهم مصيرهم المبين.

تقوّس الرجل ليستعيد حاسبه اللوحي بخفة، بعد أن وضعته "نوال" على الطاولة، فبدت له ملامح المرأة أكثر برودة وقسوة. ذاك الذي يعشق الألوان الزاهية كثيراً، ويعشق جمع الصور، إنه لا يواظب على الرسم، ولكنه يهوى تأمل ملامح الآخرين فقط. ليس مهماً بالنسبة له إن كانت الوجوه شاكية، أو باكية، أو مذنبة، أو حتى متصلبة. المهم أن تكون وجوهاً ناطقة يستطيع التحدث معها. ولأن صمت "نوال" كان أكثر قسوة من أن تكسره الكلمات، توجّه الرجل لمخاطبة ملامحها:

- صدقيني، أنا لستُ معنيّاً بالحقيقة، ولستُ هنا من أجل الاستجواب. كل ما في الأمر أنني هنا حتى أقر لكِ الكف بإسهاب.

خطف الرجل يدها اليمنى بشكل مفاجئ، فأصبح كفها حبيساً بين قبضتيه القويتين. لم يكن ذلك الاختلاس فظاً، ولكنه كان مُباغتاً للحد الذي لم يدع لها مجالاً حتى تسأل نفسها إن كانت تريد لأحدهم في ذاك الحين أن يلامسها. برفق سَبَر الرجل خطوط كفها، تحسس الفراغات في مصيرها؛ واستدعي مهاراته ليتنبأ بمستقبلها:

- إنكِ سوف تخرجين للحياة ذات ضياء، وستتمنين حينها أن يهبط عليكِ شيء من السماء. شيء حرير: كما القبعة، لا بل إنها طاقية للإخفاء. ستتمنينها حمراء فاقع لونها، أو ربما بيضاء بريشة سوداء. لا بل إنكِ ستريدينها زرقاء اللون؛ حتى تبدو ملائمةً تماماً لهذا الرداء. سترتدينها على الدوام لتحجب فضائحكِ، ولكن ما من شيء سيسترك من ذاك الذي هو آت. لا عجبَ يا عزيزتي، فكيف لامرأة تَعرّت للغريب أن تُحسن مهارة الاختفاء ستحاربكِ شبكات التواصل الاجتماعية، ستدينكِ محطات الأخبار الفضائية، وستتهجم عليكِ كل الصحف الصفرا ولأنكِ ستنالين وسام الفساد الخُلُقي والإداري لهذا العام، سيصفكِ كُتاب الأعمدة الأسبوعية بالآفة التي تحتا للإقصاء، وستستشهد بكِ المجلات العلمية كدليل على أن متلازمة الفساد ليس لها أي دواء. أما ذلك الشاب الهزلي على موقع الـ "يوتوب"، فسوف يقوم بعرض كل مشاهد خلوتكِ، وسيطلق عليكِ أبشع الأسماء.

أسود المصير ذاك، ما من حاجة للتنجيم حتى يتم التنبؤ به، فلقد كان محتوماً وشديد البيان. ولكن الرجل الذي لم يكن يجيد قحافة اليد لجأ إليه لا لإدعاء الغيب وإنما لإيضاح الجلاء. فرك بإبهامه تلاصق الخطوط في كف المرأة، تفحّص التلال المجاورة لأصابعها، ثم اكتشف خط نصيبها وهتف لها بدهشة:

- أنظري هنا حيث الفراغ، سوف تسقط عنكِ حصانتكِ تمهيداً لملاحقتكِ قانونياً، ولكن لا تقلقي فثمة سبيا للخروج من هذا المأزق. سوف تدّعين إصابتكِ بالسحر من قبل ذلك الشاب الذي أحببتهِ، وستقدمين إفادة تذكرين فيها قصة اليد الخفية التي تدفعكِ لتمرير المعاملات دون أن تشعرين.

يشير الرجل إلى خط عرضي آخر في كفها، ثم يقول:

- وبالرغم من أن السحر والشعوذة لا يعتدّ بها في القضايا الأمنية والجنائية، ولا يؤثران على الأحكام والقوانين، سوف يساعدكِ أحد المحامين على تجاوز هذه العقبة بإدعاء فقدانكِ للأهلية، وبحجة غياب الإدراك عن ممارسة العمل.

يطيل الرجل تَملّك كفها، وعوضاً عن أن تطالب المرأة باستعادة وديعتها، تتمادى هي الأخرى بالنظر في خطوط يدها، وتتمنى لو أن بمقدورها التحقق من صحة النبوءات بثاقب حدسها. وما أن يزداد ارتباك خطوطها فجأة، حتى تصبح التموّجات بها أشد وعورة، فيُقلّب الرجل رأسه بحيرة مفرطة؛ ويقسم بأنه غير حانثٍ، وأن أقواله ليست رجماً بالغيب:

- أنتِ قد أوشكتِ على الكُفر بقولي، أعلم ذلك، ولكن لا تقلقي، إنها بضعة أشهر فقط، وسينساكِ الجمي من بعدها، وسوف لن يتذكر أحدهم أياً مما كان. لا تندهشي، فسكان هذه المدينة ذاكراتهم مؤقتة، ولا تحسن العد إلا لتسعة، تماماً مثل سائر الغربان.

يعيد الرجل لـ "نوال" كفها ثم يبدي لها استغراباً مصطنعاً:

- الدهشة الحقيقية هو فرار كل المتورطين في هذه الحادثة، إلا فارسكِ. وحدهُ، دون البقية، آثر البقاء في مكانه، ولم يجرؤ على التسلل خارج أسوار البلاد. قيل أنهم حين قبضوا عليه كان نائماً، وقيل أيضاً أنه كان ملتحفاً بالكثير من السُبات. ولأنه بدا سعيداً في الغفوة حينها، ما أيقظوه من النوم مطلقاً، بل جلسوا بجواره منتظرين حتى أفاق. من غيبوبة أفراحه اقتادوه، وهو الذي آثر الذهاب للمعتقل بثياب الأفراح. أخبروه أن بإمكانه أن يبدل ثيابه، فقال لهم أنه يفضل أن يواجه مأساته العظيمة بآخر ما تبقى له من مسرّات.

"نوال"، ها هو ذا رفيقها الغائب، ها هو ذا بين القلق وجرحها. يحرّض بذكراه الدماء على النزيف، ويفتق بتفاصيل القبض عليه الشج الذي في صدرها. ما أعمقه ذاك الألم، ولكن ليس في هذا الأمر ما هو خارق، أن تكف إحداهن عن الإنصات إلى غزير الكلام، وأن تضع ضمادات الراحة على خدشها:

- سأدّعي الصمم.

قالتها المرأة في داخلها تأهباً لوضع سبابتيها في ثقوب أذنيها، ولكن سيل الحديث ذلك شرع في التدفق بكثافة، وكأنه كان مُصراً على قطع المسافة نحوها:

- خسارة مؤسفة، أن يذبل شباب أحدهم خلف القضبان، ولكنها نهاية ملائمة لغواية النساء. أن يُسَلّم أحدهم حياته لامرأة لا يعرف عنها سوى خريطة جسدها، ذلك هو المعنى الحقيقي للغباء. كنتُ أظن أن الفتيان سيصبحون مع تقدم الزمن أكثر ذكاءً، لكنهم، ويا للحيرة، لا يليق بهم الدهاء. وحده، دون البقية، سيكون ذاك الشاب حبيساً في معاقل الشقاء، ففي قضايا الفساد والرشوة، لا أحد أجدر باللوم من الوسطاء.

يسارع الرجل بالتقاط المتناثر من الورق، يخبئه في قلب المظروف الخالي، ثم يبوح لـ "نوال" بسر عظيم:

- بعد أعوام من الآن، سيعود الشاب لمزاولة الحياة بحرية، وسيكون الذين فروا من البلاد أكثر راحة وطمأنينة. أما زوجكِ فسيتزوج امرأة أخرى، وسيسميها بكل فخر "زوجتي الثانية". أما أنتِ، فستكونين المرأة التي تطاردها اللعنات على الدوام. سوف لن تتمكني من مزاولة القضاء أو المحاماة مطلقاً، ستُباع ممتلكاتكِ في المزادات علناً، ستصادر أوراق سفرك للخارج أيضاً، وسوف تصبحين تحت طائلة الرقابة دوماً وأبداً.

وما أن أتم الرجل لملمة شتات المنثور من حديثه، حتى قال لها بصوت شبه جاف:

- ستكونين مجرد امرأة تتواجد ولا تعيش، وإنني أخشى أن تكون حريتكِ أشد وطأة ومشقّة من حبس ذلك الشاب.

صلاة الجراح على المرأة التي أمامه، حين وقف الرجل دقيقة حدادٍ ليدعو بالرحمة على روحها وروح فقيدها. وقف بقامة ممشوقة، أعاد ترتيب هندامه، ثم أشار إلى الباب الذي كان خلفها وقال:

- ها هو المَخرج إلى الحياة.. ها هو ذاك.. اذهبـي الآن لمواجهة ما هو آت.

الفصل السابع والعشرون: ثلث الرجال أكذوبة.. وثلثهم الآخر قسوة.. وما تبقى منهم تذكير بالخيبات

حين مر صوته الهادئ بهاجسها مثل مطرٍ خجول، وحين تعفف ثغره الصائم عن البوح بكل ما يمكنه القول، كان جلوس "نوال" أمام فارسها أكثر أهمية من حقيقة المكان المهول. هناك، في الحجرة التي لا تتسع سوى لعاشقين، تحايل الاثنان سوية على سر وجودهما، فتعالى صدى حضورهما على صوت الصمت الجهور. وما أن أطلق "فارس" سراح عباءتها، حتى ارتمت المرأة على صدره بنواح الزجاج المكسور. بَكتْ "نوال"، وبَكتْ جلياً، فصار صوت النداء لصلاة الظهر غير مسموع.

ولأن الأحزان ما كانت تليق بامرأة كمثلها، وضع "فارس" راحة كفه على نعومة خدها، ثم همس لها؛ ليخفف من حدة دمعها:

- كنتُ أحب الدمع في عينيكِ حين كنتِ تسعدين بلقائي.. الآن وأنتِ وحيدة.. ما عاد يحقُ لكِ البكاء بعدي.

رتلت "نوال" المزيد من دمعها بجدوى مصلية تتنسك بصلاة الظهر، فقال لها الشاب متأثراً:

- حتى أنا أريد أن أبكي، ولكنني لا أملك دمعاً.
- لا أريدك سوى أن تمنحني بعضاً من السعادة.

فتعهد لها الشاب وهو يهديها ضمتين وابتسامة:

- حسناً، سأبتا ع لكِ بعضاً منها، ولكن عديني أن لا تبكي مجدداً.

هو ينتظر أن ينضب الدمع في عينيها، وهي تُصر على أن تتبلل بأنهارها. عنيدة في البكاء، تلك الـ "نوال" إنها ورغم رقتها تُصر على أن لا تلاطف ورقة البوح بحديث أو حتى بعبارة.

وحتى لا نُبخس المرأة حقها، إن لنحيبها طقوسه التي لا تتكرر على نفس الخد مرتين، فهي وفي هذه المرة كانت تستدمع لأسباب مختلفة، وكانت تنوح بطريقة شبه مبتكرة أيضاً. فيما مضى من الهزائم، كانت "نوال" تكتفي برفع رأسها إلى الأعلى؛ حتى لا يرى الجميع بكاءها، فيعاود دمعها السقوط بداخل عينيها. أما الآن وهي في رعاية فارسها، قررت أن تحني رأسها للأسفل قليلًا، فلعل من شأن الانكسار أن يعينها على تفريغ المخزون الاحتياطي لمائها.

له بها شغف، يأخذها "فارس" إلى صدره بعيداً، ثم يسألها بحيرة:

- ما الذي جرى لكِ، طمئنيني.
- أحدهم استدعاني إلى مكتبه؛ كي يشيع لي نهاية الأحلام.

تتلعثم "نوال" قليلًا ثم تسأله بصوتها المبحوح:

- وماذا عنك؟
- لا شيء سوى أنني معتقل بانتظار التحقيق، وبانتظار المحاكمة، وبانتظار مهاجمة وسائل الإعلام.

يبلّل الشاب شفتيه ثم يطرح عليها سؤالًا آخر:

- ترى ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟
- أذكر أنني قد سألتك السؤال عينه ذات مرة.
- أجل، عندما أتيتُ إليكِ بعد طول غياب.
- وما كان جوابكَ آنذاك؟
- أن الشوق كله قد دفعني للمجيء حينها.
- حسناً، أنا أدين لك بذات الجواب.

ابتعدت المرأة عن صدره قليلًا حتى تجفف بلل عينيها، فبدا اللون الأزرق عليها منسياً، وكأن الأشيا. الفضفاضة قد فقدت بريقها ذاك النهار. وبرغم انطفاء الوهج، كانت قامتها الممشوقة كافية لأن تُعيد للرداء بهاءه، ولأن تجعل الشاب يقترب منها قائلًا:

- أنا ممتن لأنكِ عدتِ إليّ مرتديةً أزرق الرداء.. إنه لون أفراحي.

تحسست "نوال" حرير القماش بحسرة ثم أجابته:

- لم يعد الأزرق يناسب مفاتن جسدي مثل سابق الأوان.
- ابحثي عن البديل إذاً.. تخلّصي منه ومن كل ما كان.
- ولكن ما من لون آخر ليُشعِرني بالأمان.
- كل التدرجات تليق بهذا الافتتان.
- وحده الأسود صار يلائمني الآن.
- ولكنكِ لا تحبينه، فالأسود قرين الأحزان.
- إنه سيرافقني حتى في سريري حين أنام.
- لا أهمية للأطياف فأنتِ ما زلتِ يانعة الأنوثة كالرمان!
- وما فائدتي كأنثى إن كان الأسود سيدي وسيد الألوان؟

للقادمة إلى اللقاء مواعيدها المؤجلة وحضورها المقتضب، وللجالس على مقاعد التواجد حتمية المجاورة والرغبة في الإنصات. تعاود المرأة جمع ما تناثر من عباءتها، فتنحني لتلتقط شتات الأسود الساقط هنا وهناك. ويلها، فالهبوط إلى أسفل مرهقٌ لمن اعتادت الرفعة والسمو. ويلها، فالتحدب في الثلاثين من العمر مؤلمٌ لمن دأبت على الوقوف بشموخ وعلو.

تكون "نوال" على الأرض حيناً، ويكون فارسها ناظراً إليها من فوق الأريكة. يرمقها بكل هدوء، يتأمل ضيق أفراحها، وما أعمق المسافة بينه وبينها:

- وللمرة الأولى، ها أنا أعترف بالسقوط!

دفعت "نوال" بالعبارة خارج حدود شفتيها، ثم بادرت بفتح رئتيها، فكانت شهقتها فاضحة وعميقة المغزى. هناك في الدرك الأسفل من الحياة، بَرعت المرأة في ندب حظها، فما كان للشاب سوى أن ينحدر بدوره حتى يجاورها في تعاستها. تقرفص على الأرض قريباً منها، فصار العاشقان على سطح خشن،

رجلٌ متمددٌ بثياب نومه، وامرأة بجواره تتدثر بحرير ناعم من الأعذار:

- كنت أريد فعلًا أن أتوقف عن كل شيء، عن المعاونات، والمشورات، والوساطات. كنت أريد فعلًا أن أرسم خطاً للنهاية، وأن أتأبط ذراعيكَ، ثم نرحل بعيداً. ولكن الوقت الذي داهمنا لم يترك لنا فرصة أن نُعَبّر عن توبتنا، أو أن نترك خلفنا صنيعنا الذي تبجحنا به لأعوام.

وترتكبه من جديد، ذنب البكاء الذي ما كانت لتقترفه قبل اليوم، ها هي "نوال" تمارسه مجدداً. تُسند رأسها على كتف "فارس" فتقول له بحرقة:

- لربما قد كان علينا أن نغادر هذه المدينة لحظة أن التقينا.
- ما كُنا لنجيد الهرب وقتئذٍ.. ما كنا لنستدل على طريق الفرار يومها.
- أنا متيقنة بأننا لو اتبعنا بوصلة قلوبنا ذاك المساء لوصلنا سوية إلى بر الأمان.
- لا أحد يفلح في الفرار من مسقط رأسه.
- ما الذي تعنيه؟
- كنا لنذهب من منتصف الأرض وحتى أقصاها، نتجاوز تواطؤ الطبيعة مع هذا العالم الوحشي، نعبر الحدود المرسومة بأحبار وهمية على الخرائط، ونستوطن دويلات الشتات دون أن نكون مواطنيها. ولكننا في الختام كنا سنتألم بوجع المسافات الطويلة، وبذكرى كل الأشياء التي تركناها من بعدنا، فنعود مجدداً حيث الأرض التي هربنا منها، وحيث المساحة التي يصفونها بالمقر الدائم لتعاستنا.
- دع عنك هذا الهراء، فثمة أماكن أخرى تصلح للإختباء.
- لا يوجد مكان على وجه الأرض أكثر وداعة وحميمية من هذه المدينة.
- هل مازلنا نتحدث عن مدينة "الرياض"؟
- أجل.. إنني فقط أتحدث عن المقدّس، رغم شكي بما يقدسون.

أخذ "فارس" بيدها؛ ليساندها على الوقوف. وما أن عاود الاثنان الجلوس سوية على الأريكة البيضاء، حتى أشار إلى النافذة الوحيدة التي زينتها القضبان، ثم قال:

- أنظري بالخارج، أنظري هناك. ما من مدينة كهذه لتستقطبنا بكل مساوئنا. هي وحدها التي تأخذنا بضيمها، وهي التي تبطش بنا. دون البقية، هي التي تمنحنا الخوف من أن لا نكون ضمن حدودها، تخلق لنا العراء، تصنع لنا الظل، وتهبنا ثمار الجفاف. شديدة الحرارة صيفاً، شديدة القسوة شتاءاً، ومزاجها متقلّب طيلة العام. صدقيني.. إن ارتباطنا بها يشبه بطريقة أو أخرى علاقة الأبناء بالآباء.
- هذه المدينة ليست أمي!
- هذه المدينة ألد أعدائي!

سقاها "فارس" قدحاً ساخناً من العاطفة لما طفق يحتويها باهتمام. طوّقها بذراعيه جيداً قبل أن يستفتيها:

- هل لكِ أن تتنبئي بمصيري؟
- ولكنني لا أجيد التكهن بما هو آت.
- حاولي فقط.

- كل ما يمكنني التنبؤ به هو أننا سنفترق لأعوام.
- لا أريد أن أموت هنا.. لا أريد أن أقضي ما تبقى من عمري في بطن حوت.
- سنبحث سوية عمّن ينُقذكَ ويعيد لمّ شملنا.
- لماذا لا تترافعين عنيّ، ألستِ في الأصل محامية؟
- لقد فقدتُ كل الصلاحيات الممنوحة لي اعتباراً من هذا الصباح، ولقد استنفذتُ أيضاً جُل ما تبقى لي من علاقات اجتماعية حتى أنفرد بك في هذا المكان. الجميع تخلى عني، ولا أحد سواك تبقى لي الآن.

تأوهت "نوال" بحرقة وكأنها قد استنتجت مؤخراً مدى أهمية رغبة فارسها في أن تتنبأ له بالقادم من لحظات. ولأن مصيرها كان يرتبط كثيراً بمصيره، تعلقت به كثيراً ثم سألته ذات السؤال:

- هل لكَ أن تتنبأ بمصيري؟
- كل ما يمكنني قوله هو أنكِ ستبقين في قلبي لأعوام.
- أحدهم قرأ كفي هذا الصباح، وأخبرني أن السبيل الأوحد لنجاتي هو أن أتصنع المس بالجان.
- ستدعين المس؟
- أجل، وسيجلبون لي شيخاً يقرأ عليّ ما تيسر من القرآن.
- ولكنكَ أكثر وعياً من أن تكوني مجنونة.
- هذا هو السبيل الوحيد لخلاصي.. أنا الآن سيدة مسها الشيطان.
- وأنا الآن شابٌ شبه مُدان.
- ولكنكَ لم تخضع للتحقيق، ولم تُحاكم بعد.
- أفيقي يا عزيزتي، فأنا وحدي كبش الفداء.

تشبث الشاب بها جيداً، ثم قال بشفاه غير مرتجفة:

- أن تتفشى فضيحة كهذه، يعني أن يكون هنالك متهم واحد على الأقل. ولأن حدقة القضية المتسعة قد فرّ الجميع خارجها، سأظل أنا بها وحدي، وسأظل متفرداً بصفة الشاب المدان.

لكأن السماء أطبقت على الأرض فتعانقتا، وما عادت الحجرة تتسع سوى لصوت سكوتهما. كل شيء بدا مضغوطاً ومنعدم الكثافة في تلك الآناء، حتى الهواء الساكن. حل عليهما الصمت المبهم ضيفاً ثقيلاً للمرة الثانية منذ اللقاء، فتوقف كل شيء مرة واحدة، وكأنه شريط الحياة قد كَفّ عن الدوران.

هكذا تكون إذاً، حكاية الشاب الذي لم يشارك في الحرب، فوقع على اللغم وفقد بدل الساق ساقان. إنها مماثلة تماماً لحكاية المرأة التي فَرّت من واقعها لتعود إليه بخذلان، ومماثلة أيضاً لحكاية الزوجة التي تمردت على مجتمعها يوماً، فما كان لها سوى أن تُعاقب بوجوب الإذعان.

- ما يحدث الآن أشبه بواقعة فساد شراشف الوسائد حين تتلطخ بدمع المساء.
- ما يحدث هو أكثر قسوة من ذلك.. إنه مشابه لواقعة تلاشي ملامحكِ سريعاً بالرغم من أنني أتمسك بك بقوة الآن.
- هل يعني هذا أنني أختفي تدريجياً؟
- أجل، وإنني لأتوجس خيفة! فكيف لي أن أتجاهل في غيابكِ هواجسي الكثيرة ولو لثوان؟

وضعت "نوال" يدها على صدره، فأحست بأن في قلبه خزيناً من الوجل، من الترقّب، ومن المخاوف الدامية أيضاً، فسألت نفسها أولًا قبل أن ترتّل عليه:

- لَماذا يستعمرنا هذا القلق المرعب؟
- لأننا لا نريد أن نُبحر بزورق مثقوب خارج حدود راحتنا.
- مأساتنا يمٌ إذاً؟
- أجل.
- ما عسانا أن نفعل؟
- ولندع أمواج اللُجة تتقاذفنا بانخفاضها، بارتفاعها، بعمقها، وباتساعها، ولنترك لها فرصة أن تُباغتنا بهوجائها.
- ولكنها ستحطّم مجاديف قاربنا المتهالك بكل تأكيد.
- سنكون حينها أكثر رغبة في النجاة.
- ولكنني لا أجيد العوم ولا السباحة.
- تشبّثي بالحطام، فوحدها الأنقاض ستعينك على الطفو فوق الماء.

أغمض الشاب عينيه بحرقة ثم همس بخذلان منقطع النظير:

- ياللحسرة.. إنني سوف لن أتمكن من التواجد بجوارِكِ حينها حتى أنتشلكِ.
- إني أخاف البحر.
- وإني أخاف عليكِ من الغرق.
- أنا لستُ قوية بما يكفي.
- ولستِ أضعف مما يجب.
- سأموت.. حتماً سأموت!
- إنه إما الموت.. أو مزاولة الحياة كامرأة يسكنها الجان.

تُحيطه "نوال" بذراعيها، طفلة كانت تخشى مزيداً من الضياع. تضع سماعة أُذنها على مذياع صدره، تستمع لذبذبة النبض، فتأتيها ترددات فارسها الممزوجة بالأسى:

- كم جسداً يا ترى قد نجا من الجحيم؟
- كل الذين ذهبوا إلى الجحيم قد عادوا بأجساد مشوهة.
- لربما كان عليّ أن أذهب إلى الحرب مثل سائر الشبان.
- كنتَ ستخسر روحكَ حينها، وكنا سوف لن نلتقي حتماً.
- لربما كان ذلك أمراً جيداً.
- لماذا؟
- لأن النهاية حينها سوف تكون سعيدة تماماً.. سأموت أنا دون أن أراكِ تتألمين هكذا.. وسوف لن يكون بوسعكِ الوقوع في أية فخاخ.

ابتسمت "نوال" رغم الدمع الذي تدلى من عينيها ثم راحت تهذي منكسرة:

- المسافات امتداد للغبراء، وفي الوصول عنوسة البقاء، شابٌ أنت من المسك النقي، فهل تذكر كيف تعارفنا، وكيف تمّ بيننا اللقاء؟
- أذكر أننا قد التقينا في مأدبة عشاء.
- كنتَ مهذباً وبهي الطلعة جداً، مثل فارس في حلم فتاة مراهقة، فلماذا لم تختر حينها أن تكون فظاً أو دميم الخلقة؟
- هل كنتِ ستتجاهلينني حينها لو تنكرت لخصالي؟
- أجل؛ حتى أجعلكَ تعود لمزاولة الحياة بسلام.
- ولكن ماذا عنكِ أنتِ؟
- كنتُ سأنجح بطريقة أو أخرى في العثور على شخص آخر أقوده للهلاك بسذاجتي.
- لن أنعت حُبنا بالساذج.. ولن أسمي هذه النهاية هلاكاً.
- جُل ما أريد قوله هو أن اللعنات ستلاحقني أينما ذهبتُ بحظي.

قرفصت "نوال" إلى جواره؛ حتى تشعر بالانتماء، فأصبح الشاب قريباً منها تماماً، وأصبح بإمكانها أن تنصهر في كيانه أكثر. أخذته إليها، ضمته كثيراً، فقال لها:

- استمري في عناقي، استمري فإنني سوف لن أنام. وامضغي أحلامكِ كثيراً، امضغيها يوماً، أو شهراً أو حتى عام. فمهما طال انتظارنا، سأكون بجواركِ مجدداً، وستتوسدين صدري على الدوام.

ازدادت "نوال" تشبثاً بقامته المائلة ثم سألته فجأة:

- هل أنت هنا على حدود الروح، أم أن تجاويف صدرك فارغة.
- وهل تتخيلين أن للروح مكاناً آخر؟
- لا.. ولكنني ما عُدت قادرة على ملامسة روحك مثلما مضى من أيام.
- تحسسي نفسكِ جيداً، وستشعرين بروحي. أحدهم يريد أن ينتزعها مني الآن.
- أوه، كم أريد أن أهبكَ جسدي كاملًا، ولكن الهدايا غير قابلة للإرجاع، وأنا أحتاجه من أجل ممارسة الضياع.

تنهدت المرأة جيداً، وكأنها كانت تبحث عن حلٍ لمعضلة التبرع بأعضائها. ولأنها بالغت في التفكير ملياً، نجحت فعلًا في أن تعود إليه باقتراح مسبق الدمع:

- حسناً، من حسن حظكَ أنني امرأة قابلة للتجزئة، فمن كل أجزاء جسدي سيمكنك أن تختار شيئاً واحداً أو ربما شيئين؟
- لا، سوف لن أشوّه مفاتنكِ المقدسة، وسوف لن أتخذ أي قرار.
- اختر ما شئت من أجزاء جسدي، فلقد فقد قدسيّته منذ أن استعاره أحدهم قبل عشرة أعوام.
- سأختار جميعكِ، امرأة كاملة لا تشبه غيرها من النساء.

تبسّمت "نوال" كثيراً حين راح الفارس يطارحها عذب الكلام. هو الصوت، وهي الصدى، حين غاب الصمت فجأة. فمن ذا الذي يقاطعهم؟ ناوشت المرأة رغبة الشاب في احتوائها، سمحت له بأن يسافر في حُضن رجائها، ثم قالت له حين انهمر متعباً على صدرها:

- حادثتان عرضيتان بإمكانهما أن تصنعا صدفة، أما ثلاثة حوادث عرضية فهي لا تصنع سوى مؤامرة.
- عن أي الحوادث تتحدثين؟
- حادثة لقائنا الذي كان بلا ميعاد، وحادثة الانتحار التي شاهدناها على جسر الموت، وحادثة رؤيتنا لفيلم "ابنة الماء". كل شيء يتآمر ضدي.. كل شيء يريدني أن أغادر الحياة.
- لا.. سوف لن تفضّلين الموت.
- وسوف لن أفضّل الحياة بنصف عقل.

نظر إليها "فارس" بتعجّب شديد قبل أن يستجوبها بانكسار ملحوظ:

- آه يا حبيبتي.. إن رحلتِ فكيف سألتقيكِ؟ كيف سأُقبّل ما بين عينيكِ والدموع؟
- ستفقدني دهراً.. ولكنكَ في نهاية المطاف ستقطف امرأة غيري من شجرة الأيام.
- اخفضي عنان العُند ولا تخذليني. تعالي حتى نواجه الحياة سوية، تعالي لأُدغم فيك ونصبح كُلًا واحداً.
- يا أنتَ، يا سيد قلبـي، ما عُدت الآن حلماً في متناول يديك.

وقبل أن يتأمل الشاب راحة يديه بحثاً عنها إحتد صوت طرقٍ على الباب، ودلف إلى المكان رجلٌ ومن خلفهِ شرطيان. وبتهذيب يتعارض كلياً مع هيئة الرجل الباعثة على الريبة قال الرجل البدين لـ "نوال":

- أعتذر يا حضرة القاضية، ولكن قد حان الأوان.

سألته "نوال" راجية:

- هل بإمكاني أن أتحدث إليه لدقيقة إضافية أو لدقيقتين.

فأجابها الرجل بلباقة شديدة:

- أعتذر مجدداً، فثمة فوج من المحققين بانتظاره الآن.

وقف "فارس" بخيلائه وكأنه كان منتصراً في تلك الهزيمة، ثم انتصب بهيبة تشرئب لها القامات. وقبل أن يسير نحو الذين كانوا بانتظاره، التفت نحو المرأة ثم هتف:

- قفي!

هتف بها بلسان عربـي مبين، فهبت المرأة لاحتضانه بعفوية. اختبأت بين ذراعيه المهددتين بالانقراض، فهمس لها في أذنها كلاماً حانياً:

- تذكري أنكِ الحياة كلها!

قالها "فارس" قبيل أن يتخلى عنها بمهل، وقبيل أن يغادر الحجرة بلا ظل. "نوال"، إنه لم يتسنّ لها أن تلحظ طريقة قدومه؛ لأن وصولها كان متأخراً، ولكنها كادت تجزم بأن رحيله المشبع بالثقة لم يكن ليشبه أياً من محاولاته السابقة في السير إلى الأمام.

الفصل الأخير: ولات حين مناص

ثمة أوقات غير محتسبة، عندما وقفت "نوال" على ناصية الحياة دون أن تحتاج إلى أحد أو إلى شيء ما. لجأت لنفسها حتى تبرّر صدفة التواجد في ميادين الغيب، عاودت تلاوة مجريات يومها المحفوظة عن ظهر قلب، واستدعت جُل ما أمكنها من الاحتمالات؛ حتى تنتقي مصيراً تخبئه في الجيب، فما كان لها سوى أن تدرك تصوراً مقترحاً لمآلها المريب.

ثمة هواجس غير محتسبة، حين تحسست المرأة نهارها العديم المعنى، وحين توقفت لتشاهد الشمس وهي تصعد بمهل لأعلى، وحين استجمعت قواها لتسأل نفسها ذات نجوى، لماذا لم يتطوع أحدهم للوقوف على شمالي؟ لماذا لا أجد سوى الفراغ على الجهة اليمنى؟

ثمة تفاصيل غير محتسبة، حين تصف إحداهن النهار والتلال والأشجار، ولكن تعجز عن وصف نفسها. تبالغ في التعبير عن كل ما يدور حولها، وتنسى أن تشير مطلقاً إلى حقيقة وجودها. هل كل محاولات النعت تلك كانت مقدمات للحديث عن نفسها، أم أنها كانت محرد محاولات للتنصل من واقعها؟

ثمة أحزان لا تصلح للعد، ولكن كل الجراح محتسبة. حين تخطت المرأة أسوار المعتقل العتيدة، ظنت أن حرباً قد انتهت للتو، وأن معركة ستشتعل بعدها. تسمرت مذهولة أمام مرآب خارجي، استودعت المناديل أمانة سرها، فكان خوفها يبلل القماش بشراهة، وكان دمع وداعها خاشعاً في منديلٍ آخر.

- أنا أتألم!

هتفت بها المرأة حين شعرت بطنين يتردد في جوف صدرها، ثم سارعت بوضع يدها على جبين الوجع لتخفف من حدته. لربما راحت تنتظر من يُقلِّها حيث تدري، وحيث لا تدري أيضاً، ولكنها وقبل أن تبادر بالتساؤل، لاحت من المسافة القريبة مركبة فاخرة كانت تقودها "عبير".

كيان فضي راح يتدحرج بتثاقل شديد، توقف تماماً بجوار "نوال"، فوضعت المرأة يدها على مقبض بابه أملًا في أن تتمكن من تحرير أبوابه. وما أن لامست يدها قطعة المعدن، حتى ساورتها الظنون بأن بين قبضة هذا الباب والباب الذي سبقه مسافة قد قطعتها للتو بكعب عال، وأن ما بين قبضة هذا الباب والباب الذي يليه مسافة سوف لن تترك عليها أثر حذائها!

بحذر أطلقت المرأة سراح الأبواب، فجاءها عبير السوسن بموعد غير معلوم، وتهادى إليها صهيل إحدى العطور بجدارة. اتخذت من الجلد مقعداً لها قبل أن تدرك بأن ثمة شيء كان يدفعها لأن تعاود استنشاق الرائحة بحاسة القلق لا بحاسة شمها. إنها وبالتأكيد غرائزها، تريد لها أن تستعين بشذا الرائحة حتى تثبط مخاوفها.

وما أن أتمت "نوال" إغلاق الباب من بعدها، حتى اختفى ظلها تدريجياً، وأصبحت علاقتها بكل ما هو في الخارج مجرد معرفة سطحية. انسدلت في مقعدها حتى تختبئ فيه أكثر، فكانت صديقتها جامحة الشغف بجوارها. سألتها "عبير" بنهم:

- أخبريني ماذا جرى!
- ما من مخرج لمأزقه. إنه إما أن يقع كلانا في الفخ، أو أن أنجو منه بمفردي.
- وهل أخبرتهِ بأنكِ ستدينينه بالسحر؟
- لم أملك الجرأة الكافية لأن أقر له بحاجتي إلى قول الأكاذيب.
- إنها ليست أكاذيب حين افتَتَنتِ بسحره.
- ولكنني سلّمتهُ جسدي طوعاً لما استعمرني بشعوذة بهائه. طلاسمُ الحُسن التي عقدها لي، أنا التي خبأتها في تجاويف قلبـي، فكيف لي أن أدّعي البراءة، أو أن أتصنّع جهلي؟
- إنكِ وإن تمسكتِ بموقفكِ فسوف يُزج بكِ أيضاً في معاقل الظلام. ما من منفذ آخر لهذه المتاهة سوى البوح بأصعب الكلام.
- ولكنني لا أستطيع التفوه بما لا أؤمن به.
- حان الوقت لأن تكوني أكثر تعقلًا مما مضى، ولأن تتصرفي بأنانية مطلقة مثلما يفعل الأطفال.
- تباً للأطفال!
- إنهم وفي نهاية المطاف ينجون ببراعة من العقاب.

عاودت "عبير" النظر أمامها، وضعت يدها على مقود قلقها، ثم سألت صديقتها باهتمام واضح:

- إلى أين الآن يا عزيزتي؟
- أنا لا أدل السبيل إلى خلاصي.

راحت "عبير" تشير إلى الجهات الأربعة من حولها وهي تقول:

- هنا الشرق، هناك الغرب، من خلفنا الشمال، ومن بعدنا الجنوب.
- توجهي حيث منفذ الحرية إذاً. اقصدي ذلك الجسر المؤدي إلى ضفة الأمان.
- حسناً!

قالتها "عبير" بتلقائية دون أن تُبالي بتفاصيل الوجهة. كل ما كان يجول بخلدها حينذاك هو أن تحسن قيادة صديقتها إلى حتمية الخلاص. صبت تركيزها على الطريق الذي أمامها، فجاءها من الجوار صوت جريح بالكاد بدا مألوفاً:

- لي من العمر ما يكفيني لأن أبدأ منهُ ولأن أنتهي بـي.
- ما عاد يمكنكِ أن تتمني استنـزاف المتبقي من حياتكِ بجواره.
- ولكنني أحببته جداً.
- لن تدركي بأنكِ قد أحببتهِ فعلًا حتى تتخلي عنه.
- كيف لي أن أفعل هذا؟
- افتحي قضبان قلبكِ، وأطلقي سراحه الآن.
- ولكنني امرأة لا تجيد التخلي عمّا هو لها.
- إنهُ لم يكن ذات يومٍ ملكاً لكِ حتى تفقديه. كل ما في الأمر أنه رجلٌ قد أعارته لكِ الأيام!

نظرت "نوال" إلى كفّها المتقوسة، تحسست كثافة الشيء المتكدس بها، عملة معدنية كانت قد التقطتها

للتو من حقيبة يدها. بهدوء، راحت "نوال" تحتضنها، تسافر بها، تدلّلها، وتخاف عليها، فلعلها ستصبح ذهباً في لحظة إسرائها. تتأملها عن قرب ثم تقول:

- كارثتي هذه أشبه بعملة معدنية لها وجهين، واحد لي، والآخر لا شيء منقوش عليه.
- هي قرعة التضحية يا صديقتي.
- أي النهايات إذاً سأختار؟
- أنتِ لا تملكين سوى نصف احتمال.
- راحة يدي لا تحتمل المزيد من الأخطاء.
- اقذفي بالعملة عالياً، وقبل أن تقع في كَفّكِ، تخلّي عنها. دعيها تسقط من خلفكِ مثل كل الأشياء التي قد سقطت مسبقاً، ثم امضي إلى الأمام.
- وهل سيساعدني المضي قدماً على أن أتناسى كل ما كان؟
- المسافة كفيلة بأن تجعلكِ قادرة على تبنّي شريعة النسيان.
- ولكن كيف لي أن أنسى أنني قد أصبحت مشوّهة من بعد هذه الخسارة الفادحة؟
- روحكِ المصابة ستنزف داخلياً فقط. ما من كدمات جلية يراها الآخرون.
- ولكن ماذا عن ذاك العرج حين أمشي؟ إنني وبعد هذا السقوط ما عدت قادرة على السير باستقامة.
- حاولي أن لا تجوبي الطرقات في آناء النهار.
- وهل سيجعلني الليل أقل دمامة؟
- سيجعلكِ أكثر قدرة على الاختفاء.

زفرة أطلقتها "نوال" بحرارة قبل أن تقول:

- فيما سبق، كنت أتعهد بأن لا أبدو جميلةً حتى لا أفتن المارة. الآن، سيتوجب علي أن أخبئ عاهاتي حتى لا أخيفهم.
- لا تقلقي، فيوماً ما سوف تتماثلين للشفاء.
- داء مصيبتي هذا ليس له أي دواء.

في حضور تلك العبارة الأخيرة، تبادر إحداهما بالتوقف عن البوح، وتشرع الأخرى في الكف عن النَوْح. تحاول الأخيرة أن تجفّف بلل بكائها، وأن تكنس التراكمات من على خدها، فتصبح بشرتها أقل جفافاً مما ينبغي. تمرّر أصابعها على وجنتيها ثم تقول:

- لو كنتُ حائطاً خشبياً لما أحببت رجلًا.. لو كنت حائطاً لما سمحت لأحدٍ بأن يطرق على صدري مسماراً ولما تمنيت أن أصرخ أو أن أبكي.

استدارت صديقتها نحوها؛ كي تهديها ابتسامة، ثم قالت:

- أنتِ جميلة كما النهر.
- لو كنت نهراً لما تماديتُ في الجريان دون أن أسمح لضفتيّ بالتلاقي.
- ضفة الحب وضفة الأمنيات.
- أجل، كنت لأصل إحداهن بالأخرى حتى أعيد تدوير سعادتي باستمرار.

تستشعر "نوال" جفاف بشرتها ثم تستطرد بانكسار:

- ولكنني قاحلة مثل هذه الصحراء.

أشارت إلى فناء البُنيان بالخارج وإلى واحات التراب. سفراً تغيّرت المسالك حين هامت المركبة ذات ظهيرة، وحين تبدّلت الطرقات فجأة. هكذا، وبلا تنويه مسبق، ما عادت الصروح حاضرة، وما عادت ناطحات السحاب متواجدة. وحدها تلك المركبة كانت مهاجرة صوب الغرب، وكأنها ما كانت تريد للشمس أن تتبعها.

أرخت "نوال" جسدها، قلّبت رأسها بإعياء، ثم همست لصديقتها بصوت أتعبه الترحال:

- لماذا لا يتوقف هذا العراء عن التمدد.
- لا شيء في هذه المدينة سوى الصحراء لتطوّقنا.
- إنها بالغة التواجد.
- أكثر مما ينبغي.
- كيف لنا أن نهرب منها إذاً؟
- وهل نحن الآن نحاول الهرب؟
- لا، فإني لو أردت الفرار؛ لحملت معي حقيبة السفر التي أعددتِها لي.
- هل ما زالت الحقيبة في مكانها؟
- لا، لقد وضعتها قبل بضعة أيامٍ في صندوق سيارتي.
- هل نويتِ الرحيل حينها؟
- كنت أتمرس فقط على مهارة الهرب.
- وهل نجحتِ في ذلك.
- أبداً! لقد خابت كل توقعاتي.
- حقاً؟
- لقد أدركت مؤخراً أنني أنثى لا يعنيها الهرب.

وضعت "عبير" كفها على كف "نوال" المُلقى بإهمال، ضغطت عليه برفق لتهدئ من روعها، ثم استفتتها:

- لقد أطلنا السير، فما هي وجهتنا؟

أشارت "نوال" حيث النقطة البعيدة في المدى:

- هناك حيث ذاك الجسر الممتد.
- ولكن ماذا سنفعل هناك؟

قلبت "نوال" عملتها المعدنية بضعة مراتٍ ثم أجابت:

- ثمة صرخة أريد أن أطلقها هناك بصوت عال.

جسر أمامهما عالٍ، جسر ولوحات إرشادية للانتباه، اقتربت منه المركبة، فبدا المعبر أكثر تقوّساً، وأقل جاذبية مما كان. هناك، وعلى سبعمائة قدم فوق سطح الصخر، توقفت المركبة الفضية عن الحركة، وتوسدت الجانب الأيمن بلا مبالاة. هناك، وفوق وادٍ شديد الانحدار، جلست "عبير" إلى صديقتها دون أن تكترث

بأفواج السيارات التي راحت تتجاوزهما بسخط، ثم قالت:

- هل الأمر أشبه بنافورة "تريڤي"؟
- أجل، سأقف بمحاذاة الهاوية، سأمنح السقوط ظهري، سأتمنى أمنية، ثم سأقذف العملة المعدنية بيدي اليمنى حتى تعبر من فوق كتفي الأيسر.
- وأي الأمنيات سوف تختارين؟
- لم أفكر في ذلك مطلقاً. ربما سأنتقي واحدة على عجل.
- لا تتأخري.
- حسناً.

فتحت "نوال" الباب بأصابع اليقين، ثم غادرت المركبة بجرأة متضخمة، فوجدت نفسها في ساحة ترتفع كثيراً عمّا حولها. هناك بالخارج، كان كل شيء مخالفاً للمألوف، الشمس النصف غائبة، السحب الشبه معلّقة، والريح الغير مترددة. لا بأس بذلك كله، فما زالت المرأة تستطيع أن تتخيل بأن زُرقة السماء التي من فوقها كانت صافية كما رأتها للمرأة الأولى.

نحو سياج حديدي قصير، سارت "نوال" بحذر، ثم تسللت من مساحة شبه فارغة. وما أن أتمت عبورها إلى الطرف الآخر بنجاح حتى اكتشفت أنها كانت على حافة الهاوية. دون أن تُبدي قلقاً من ذاك المنتهى، اختلست المرأة النظر إلى ما كان بالأسفل، فلم تجد في ذاك الفراغ الرحب سوى راحتها.

ذاك الوقوف كان به نشوة روحية أحالتها للضوء، فقَلَّبت سيدة الحزن قطعتها المعدنية وهي تتأمل نقطة في آخر المدى، أرخبيل من الغيم يتشكل، لعله المطر قد أتى. وحتى لا تتقاعس المرأة أو تتأخر عن القيام بما قد جاءت لأجله، رفعت كفها عالياً، ثم قذفت قرص المعدن بقوة. وقبل أن تهبط القطعة المعدنية في كفها، قفزت المرأة من ذاك المرتفع، دون أن تغمض عينيها.

مثيرٌ ذاك السقوط لما كان في لحظة عجل، مثيرٌ جداً حين كانت الصديقة بانتظار عودة صديقتها. ولكن الأكثر إثارة في ذاك المشهد كله، هي العبارة التي نطقت بها "نوال" قبل أن تواصل سقوطها:

- أوه، لقد نسيت حقيبة سفري.. ولكنني حتماً راحلة.

ولو أن أعمارنا بالمقلوب.. لكانت طفولتنا أجمل خاتمة

شكر وعرفان لأصدقاء الغربة

نايف السليس

عبد الرحمن المطيري

عبد الرحمن المطوع

ممدوح المطوع

وشقيقتي الصغرى: أبرار

انتهى

هذه الرواية هي محاولة

لإعادة النظر إلى المجتمع السعودي

من زاوية لم نعتد النظر منها مسبقاً

هنا محاولة ..

للتنبؤ بالشكل المستقبلي لوطن

يعتد كثيراً بالتقاليد و الأعراف

هنا تساؤل ..

ياترى لو تقدمت عجلة الزمن

فهل ستغيرنا الحياة أم سنغيرها؟

@EyadAbdulrhman

@EyadAbdulrhman

Facebook.com/EyadAbdulrhman

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1142-4

9 786140 111424

www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ريب المنون

إياد عبد الرحمن

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.